LUCINDA BERRY

لوسيندا بيري

حين عادت

WHEN SHE RETURNED

رواية

ترجمة: بسمة الخولي

عصير الكتب

مكتبة ياسمين

حين عادت

اختفت كيت بينيت من موقف السيارات منذ أحد عشر عامًا، تاركة خلفها زوجها وابنتها الصغيرة. لكن حين عادت لتظهر في محطة وقود في مونتانا، حاملة طفلةً رضيعةً، تصرخ طلبًا للمساعدة، ظن المحققون أنها ربما اختُطِفتْ سابقًا من قِبَل طائفة دينية.

عودة كيت تقلِب عالمَ عائلتها رأسًا على عقب، فزوجها متزوج بأخرى، وابنتها بالكاد تتذكرها. كيت نفسها لا تبدو أو تتصرف كما كانت من قبل.

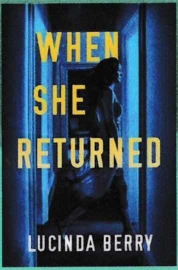

بينما تحاول العائلة مساعدة كيت على إعادة الاندماج في المجتمع، يبدؤون بمعرفة حقائق أخفوها عن بعضهم بعضًا في علاقتهم. ومع محاولة العائلة معرفة ما حدث لكيت، تتوالى الاكتشافات الصادمة، ليُفاجؤون بأن عودة كيت تحمل شرًّا أكبر بكثير مما تخيَّل أيٌّ منهم.

غلاف: محمود هشام

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

عصير الكتب
www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

حين عادت

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

- العنوان الأصلي: when she returned
- العنوان العربي: حين عادت

- حقوق النشر:

copyright © 2019 by Heather Berry
This edition is made possible under a license arrangement originating with Amazon Publishing, www.apub.com

- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: بسمة الخولي
- تحرير: أحمد حسين
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- الطبعة الأولى: سبتمبر/2024م
- رقم الإيداع: 14480/2024م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-407-6

مقدمة

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

شقت صرخات شايلو الهواء.

رفعتُ أطراف رداء نومي لأركض في الظلام، ضامة إياها إلى جسدي، فتوترتْ في اللحظة ذاتها لترتجف مُطلقةً عويلًا آخر. صعقني الخوف فوضعتُ يدي على فمها. ارتجف جسدها الصغير ببكاء صامت، فجثوت أرضًا لأجلس واضعةً إبهامي في فمها، آملةً أن يهدِّئها هذا، لأجدها تصمت من فورها.

شكرًا لله!

اختلج قلبي في صدري، احترقت رئتاي، وتفحصت الغابة حولي بذعر. شعرت وكأنني أركض في دوائر لساعات. بلا دليل يُخبرني بموقعي، بلا علامة تُرشدني لأي طريق أسلك، أو إن كنتُ هنا سابقًا. لكن هذا لا يهم، جل ما احتجت إليه هو مواصلة التحرك.

نظرتُ إلى الأسفل، إلى شايلو. عيناها متسعتان، تحدق إليَّ وهي تمص إبهامي. لطالما استيقظت جائعة. قبَّلتُ جبهتها، مُذكِّرة نفسي أنها دافعي، وسأفعل أي شيء من أجلها.

همستُ: «فقط تماسكي يا صغيرة، تماسكي».

لم تمتد الغابة حولي صامتة، وكل صوت انبعث منها جعلني أقفز. تملَّكني اليقين أن في أي لحظة سيقفز أحدهم ويمسك بي، أو سيحدث ما هو أسوأ، سينتزعون شايلو من بين ذراعي، سيأخذونها له. ماذا لو تركوني هنا؟

نهضتُ، مهَدهِدة إياها وأنا أضمها بقوة إلى جسدي. علينا مواصلة التحرك. أخفيت رأسها في رباط حول جسدي وانطلقت مرة أخرى. تدمي الأعشاب والغصون ساقي وكأنها أسلاك شائكة. لا يهم، شققت طريقي للأمام. اخترقت الحجارةُ قدميَّ الحافيتين. جل ما رغبت فيه هو الراحة، لكن لا يسعني التوقف.

هي مسألة وقت فقط قبل أن تبدأ الرضيعة بالتململ مرة أخرى، وهذه المرة لن تفي إبهامي بالغرض. بكاؤها سيقودهم مباشرة لنا، وهذا لا يمكن أن يحدث، لن أتركه يحدث. لذا واصلت الركض. مقاوَمة التعب الذي عصف بجسدي كالأمواج، ضارب رأسي كالطبول.

فقط حين عجزت عن اتخاذ أي خطوة أخرى، بدأت الأشجار تَنحَل، وبدأ طريق ينفرج أمامنا. أسرعت في خطواتي بفضل دفعة أخرى من الأدرينالين، أعطتني القوة الأخيرة التي احتجت إليها لعبور الفتحة إلى الطريق الرئيسي.

وهنا رأيت، أضواء ساطعة تمتد إلى السماء.

ركضت عابرة الطريق إلى محطة البنزين، تقافز جسد شايلو فاستيقظتْ وبدأتْ بالبكاء مرة أخرى، لكن لم يعد هذا مهمًّا بعد الآن.

صِحت: «يمكنك الصراخ الآن، اصرخي كما يحلو لكِ».

استقرت مضختا البنزين في المقدمة فارغتين وصامتتين، لكن رأيت الأضواء داخل المتجر مضاءة. أسرعت إلى الباب، وارتد جسدي للخلف حين لم يُفتح، دفعته من جديد. ولا شيء تغير.

لم يتزحزح، ضربت الزجاج صارخة: «لا!».

تحول بكاء شايلو لصرخات مذعورة. واصلت طرق الباب وأنا أصرخ بعنف: «كل هذا الطريق، بعد أن قطعت كل هذا الطريق!». تساقطت الدموع على وجنتيَّ، سال المخاط إلى فمي، ثم التففت حول نفسي متهاوية ككومة مُهمَلة أمام مقدمة المتجر.

كان هذا قبل أن أجفل وقد باغتني صوت ذكوري يعترض، دفعني لأضم شايلو أقرب إلى صدري وألتصق أكثر بالحائط: «هيي أنتِ!».

أطل وجه الرجل عبر الزجاج السميك ناظرًا إليَّ بالأسفل. تفوح منه رائحة الدخان، وقد حملت البطاقة التعريفية على صدره اسم «مات» تحت شعار أموكو، شركة البتروليات التي يعمل بها.

- ماذا تفعلين هنا بالخارج؟ هل أنتِ بخير؟

انتفضت لأقف على قدمي ودفعت نفسي تجاهه: «أرجوك، عليك مساعدتي!».

تشبثت بقميصه: «اتصل بالشرطة، أرجوك، عليك الاتصال بهم، أنا أُدعى كيت بينيت!».

***

واحد

آبي

الآن

بعصبية، تحسست بإصبعي السلسلة حول عنقي، القلادة الصغيرة التي حملتْ صورة أمي، التي ارتديتُها منذ اختفائها. دفنَّاها أخيرًا منذ خمس سنوات. مهمة شاقة في غياب جسد ليُدفَن. لكن أبي أكد لي أن الأمر على ما يرام وأن العائلات تفعل هذا طوال الوقت، كما لو أن هناك أطفالًا آخرين ذهبت والدتهم للتسوق ولم تعد إلى المنزل مرة أخرى.

عقدنا حفلَ تأبين جميلًا بدلًا من جنازة رسمية، ودفنَّا أجزاء مهمة من حياتها، مثل الكمان الخاص بها، وشريط فيديو لأفضل عروضها، نُسخ من الرسائل التي كتبَتها إلى أبي، وصور لنا نحن الثلاثة معًا في العطلات والمناسبات الخاصة الأخرى. أشياء من هذا القبيل. لكنها الآن عادت إلى الحياة. لا أحد يعود إلى الحياة بعد موته!

ما زلت أشعر وكأنني في نهاية حلم، أنتظر أن أستيقظ.

حدقتُ إلى مؤخرة رأس والدي، تجعد الشعر بنهاية رقبته بفضل العرَق، كما يحدث في المعتاد حين يمارس الرياضة، لكن هذه المرة العصبية هي السبب. بينما جلس في المقعد المجاور للسائق قادت ميريدث السيارة، يحرك

ساقه اليُمنى بعصبية. أصرت ميريدث على القيادة، وفي المعتاد يعترض قرارها لكن هذه المرة لم يقل شيئًا، لم يقل الكثير منذ أن أبلغوني بالخبر.

علمت أن هناك خطأً ما في اللحظة التي خطوا فيها إلى غرفتي دون طرق الباب، لأن والدي يطرق الباب على الدوام. خلفه أمسكت به ميريدث، تدفعه حرفيًّا عبر المدخل. يداها ترتجفان ووجهها شاحب، لكنها بدت في حال أفضل مقارنةً به. اتسعت حدقتا عينيه، لتبدوا كبيرتين جدًّا لدرجة أنهما غطتا على اللون الأخضر في عينيه، محدقتين كما لو أنه نسي كيف يرمش. لم أره محطَّمًا بهذه الطريقة من قبل. قفزتُ من سريري حيث جلست سابقًا أنهي واجب مادة العلوم خاصتي.

وقفتُ أمامه متسائلة: «أبي، ما الخطب؟».

لكن نظراته عبرت خلالي كما لو أنه لا يراني، حدق إلى النافذة خلف مكتبي كما لو أن هناك شيئًا مهمًّا بالخارج يود رؤيته. كررت: «أبي؟».

تحركت تفاحة آدم بعنقه للأعلى والأسفل وهو يجيب: «الأمر هو، هو...».

بدا كمَن يكافح مشاعره، شحب وجهه حتى صار كالرماد وغطاه العرق: «لو، أننا...».

هل يعاني نوبة قلبية؟ سكتة دماغية؟ لماذا يضيعون الوقت في التحدث معي لو كان هناك خطبٌ ما به!

التفتُّ إلى ميريدث: «ماذا يحدث؟ ميريدث، ماذا يحدث؟».

تحشرج صوتها وهي تجيب: «تلقينا أخبارًا صادمة للتو».

تابعتْ: «لِم لا نستريح جميعًا على فراشكِ دقيقةً».

ربما وقع أمر ما لكايلب؟ أو ثاد؟ لكن لو أن الأمر متعلق بهما لتلقيت رسالة أولًا! وعلى الأرجح لساء حال ميريدث أكثر لو أن شيئًا ما حدث لأحد أبنائها، وبما أنها هي مَن ساعد أبي للجلوس على الفراش كما لو أنه مصاب، لذا لا بد أن الأمر متعلق به، هناك شيء ما خطأ بأبي. أسوأ مخاوفي بدا في طريقه للتحقق، أسوأ مخاوفي منذ فقدان أمي، أن أفقد أبي. بدأ الذعر يتمكن مني. حاولت إجبار أنفاسي على الانتظام، ضاغطة على حذائي بأطراف

أصابع قدمي لأظل حاضرة في اللحظة الحالية، كما أرشدني معالجي النفسي منذ سنوات. جلست جوار أبي، عاقدة يدي على حجري، منتظرة أن يتحدث أحدهم.

قطعت ميريدث نوبة ذعري: «سكوت، عليك إخبار آبي بما يحدث».

التفت أبي إليَّ، ما تزال حدقتاه متسعتين، ارتجف فمه وهو يتحدث: «عثروا على أمك».

أمي!

غصت في الفراش كبالونٍ يتسرب منه الهواء، بدأت أشعر وكأن أطرافي تنحل عن جسدي: «هل، هل هي...».

قال أبي: «على قيد الحياة».

لم أستوعب الكثير مما تفوه به بعدها -شيء بخصوص مونتانا- لأن رأسي بدأ يدور بأفكار بسرعة كعجلة الهامستر. الآن، وبينما نحن على الطريق السريع، لا يزال عقلي يدور بينما أستعيد ذكرياتي وأحاول تخيل كيف يشعر أبي. مر أحد عشر عامًا منذ أن اختفت أمي من موقف السيارات في متجر تارجت. تبددت كشبح، مفاتيح السيارة ما تزال في وضعية التشغيل، حقيبتها على المقعد المجاور للسائق، وبلا أي أثر لوقوع صراع.

كنت في الخامسة حين حدث ذلك، لذا انحصرت معظم ذكرياتي الأولى في الجولات بين أحياء أركاتا، متنقلة من باب منزل إلى الآخر بصحبة والدي، نوزِّع منشورًا يحمل عنوان «شخص مفقود» مع بياناتها. طرقنا كل باب، وحين لم يجب أحدهم، تركنا له منشورًا للتأكد من أننا لم نتخطَّ أيًّا من المنازل. صنع أبي خرائط تفصيلية على جدران غرفة معيشتنا، محتفظًا بسجلات مرمَّزة بالألوان لكل مكان زرناه، وكل مكان لا يزال يتعين علينا زيارته. انتقده الناس لأنه اصطحبني معه في عمليات البحث. لانتقدوه أيًّا كان قراره على أي حال لأنهم انتقدوا كل ما فعل في ذلك الوقت.

لم يعِر أحدٌ اجتيازَه لجهاز كشف الكذب اهتمامًا، وواصلوا اعتباره مشتبهًا به.

طرقنا كل باب مدة عامين تقريبًا. في كل عام، في يوم اختفائها، أعادوا نشر قصتها، بثوا بعض اللقطات الأصلية لأبي وهو يتوسل من أجل عودتها. تحدثوا عن الإحصائيات المروعة التي تخص أولئك المفقودين، وكيف أنه كلما طال غيابهم قلت احتمالية العثور عليهم على قيد الحياة. لكن أبي لم يهتم بالإحصائيات. لم يفعل قط. قال الجميع إن فرص بقائها على قيد الحياة استحالت، لكن من الواضح أن أيًا منهم لا يعلم بقدر ما يظن، لأننا في طريقنا إلى المستشفى لمقابلتها.

ملت إلى الأمام لمقدمة السيارة لأضع يدي على كتفه، متمنية لو أن بوسعي التقوقع بين أحضانه والبقاء هناك. أمسك بيدي دون الالتفات لي، متسائلًا: «هل أنتِ على ما يرام، يقطينتي؟».

- أنا بخير يا أبي.

بالطبع لست بخير وكلانا يعلم هذا، لكن ماذا عساي أن أقول؟ أنا في طريقي لرؤية الأم التي شكلت أسطورتها الغامضة طفولتي بالكامل، تعجز الكلمات عن وصف هذا الشعور.

لم أتذكر الكثير عنها نظرًا إلى صغر سني وقت اختفائها، على عكس ذاكرة أبي التي امتلأت بالأحداث، عرفها كما يعرف ذاته تقريبًا والفضل في هذا يعود إلى حُبهما المتبادل منذ المدرسة الثانوية، شاركني ذكرياته باستمرار محاولًا غزلها في نسيج ذكرياتي الخاصة. بمرور السنين، أصبحت مثل شخصيتي المفضلة في فيلم شاهدته أكثر من عشر مرات ودرسته حتى حفظت كل سطر عن ظهر قلب. حدقت إلى صورها حتى حفظت كل شبر من وجهها، كل منحنى، كل خط. استقرت صورتها المفضلة لي في إطار خشبي أصفر اللون على المنضدة بجوار سريري. ظهرت به تقف أسفل شلال متلألئ محدقة بعيدًا، كما لو أن لديها سرًا أضحكها، بابتسامة عريضة على وجهها ولمعة في عينيها. قال أبي دائمًا إن ضحكتها مُعدية، وكدت أسمع تلك الضحكة عندما نظرتُ إلى تلك الصورة. تسارع قلبي عندما فكرت في سماع ضحكتها بنفسي. هل لا تزال تضحك؟ مرت بي قشعريرة. قالت الشرطة إنها اصطحبت طفلًا معها. وهذا عنى شيئًا واحدًا فقط.

***

اثنان

ميريدث

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الآن

أحدنا بحاجة إلى قول شيء ما، أي شيء. لم يتحدث سكوت منذ أكثر من ساعتين. لم يتفوه ببنت شفة منذ أن غادرنا كاليفورنيا وعبرنا خط ولاية أوريغون. أدليت ببعض التعليقات السخيفة حول مدى جمال الجبال، لكن الكلمات خرجت مني شديدة الافتعال، كلما توترتُ زاد حديثي، ولا يسعني فعل شيء حيال ذلك. هكذا تعاملت مع مشكلاتي. وسكوت فعل الشيء ذاته عادة، كان هذا إحدى أكثر صفاته التي أحببتُ وما جذبني إليه حيث التقينا في جلسات دعم المصابين بفاجعة.

واظبت على حضور جلسات مجموعة الدعم لأكثر من شهرين، وعلى الرغم من أنني توقعت أن النساء ستشكل الفئة الأكثر بها حين ذهبت للمرة الأولى، فإنني فوجئت باكتشاف أن الحضور ضم عددًا من الرجال أيضًا. أولئك حملوا داخلهم عمقًا عاطفيًّا لم أشهده قبلًا في رجال آخرين، ولا حتى في والدي، وهو الذي رأيناه رجلًا عاطفيًّا. لكن لسوء الحظ، جاء نضجهم العاطفي على حساب وجع القلب والخسارة التي فاقت التصور. كان معظم الرجال في

أواخر الأربعينيات من أعمارهم وقد فقدوا زوجاتهم بسبب السرطان، مثلما حدث في حالتي.

لم أتوقع قط أن أتحول إلى أرملة في مثل هذه السن المبكرة، لا أحد فعل. عندما تزوجت بزوجي الأول جيمس، امتلكت الحلم ذاته مثل أي شخص آخر. بناء أسرة معًا والتقدم في السن معًا ونحن نراقب أحفادنا يلعبون، وربما أحفاد أحفادنا لو واتانا الحظ. لا أحد منا استعد نفسيًّا على الإطلاق لسماع كلمة سرطان، جاءت الكلمة كصفعة على وجوهنا بعد أن ذهب جيمس لإجراء فحص جسدي في ذلك العام. تمامًا كما صفعت الجميع في جلسة الدعم.

حسدت أولئك النساء والرجال الذين رحل أزواجهم بسرعة وبكرامة. على عكس سرطان الدماغ الذي عنى موتًا بطيئًا ومنهِكًا، جرد جيمس تدريجيًّا من كل جزء من شخصيته السابقة. مشهد مروع لو رأيته، وبقدر ما صلى أبنائي من أجل شفاء جيمس، صلوا بالقدر ذاته في النهاية ليدركه الموت. هم مَن اقترحوا أن أجد مجموعة دعم للأرامل، لأن السرطان لم يمتص حياة جيمس فحسب، بل حياتي أيضًا. لذا ذهبت رغم أنني لم أذهب إلى أي مجموعة دعم سابقًا.

كنت قد بدأت أتأقلم مع واقعي الجديد بالفعل حين ظهر سكوت. تعرفت عليه على الفور عندما دخل إلى قبو الكنيسة. معظمنا فعل. لا يسعك ألا تتعرف على وجهه لو أنك أحد المقيمين في أركاتا، ظهر وجهه في جميع وسائل الإعلام والجرائد. في بلدة صغيرة كبلدتنا، أثَّر شيء من هذا القبيل علينا جميعًا. بعضنا كان جزءًا من فِرق انتشرت لتمشيط الغابات وضفاف الأنهار المحيطة بحثًا عن أي علامة ترشدنا إلى زوجته.

شابَ جذورَ شعره البني اللونُ الرماديُّ، لكنه ظهر أفضل مما بدا قبل كل تلك السنوات على شاشة التلفاز حين حوَّله الحزن الجامح إلى ما يشبه المجذوب، وهو يتوسل إلى أي شخص لديه أي معلومات عن زوجته بالتقدم إليه. ازداد وزنه، وامتلأ وجهه، مما أعطاه مظهرًا أكثر ودًّا واسترخاء. بقيت شفتاه الممتلئتان مضمومتين وهو يتخذ موقعه جالسًا على أحد الكراسي الألومنيوم في الدائرة، أبقى نظراته مثبتة على الأرض أمامه، وبقي على هذه

الحال لعدة أشهر، لم يتحدث إلا حين قدَّم نفسه في بداية كل اجتماع. لكنه بدأ -ببطء- يتحدث بانفتاح أكثر. أصبحنا أصدقاء، ولعدة سنوات اقتصرت علاقتنا على صداقة بحتة، لأنه رفض تصديق أن كيت لن تعود.

تطورت صداقتنا إلى جلسات لعب الشطرنج عبر الإنترنت في وقت متأخر من الليل، لأن الأرق المزمن جاء كعامل مشترك بيننا، ومثل الآخرين جميعًا، بدأ بفقدان أزواجنا. تناوبت مراسلاتنا على الانتقال ذهابًا وإيابًا بيننا في أثناء اللعب. تحدث في محادثاتنا الصغيرة عبر الإنترنت أكثر مما تحدث في المجموعة، وفي الواقع، كذلك فعلت أنا. منحني التواصل عبر الإنترنت الشجاعة التي تمنيت لو أنني امتلكتها في تفاعلاتي مع العالم الحقيقي.

- هل ارتبطت بأحد منذ اختفاء كيت؟

سألته حين اتخذت أولى خطواتي لعالم المواعدة توًّا، الخطوة التي لم تلقَ استحساني، المواعدة في نهاية الأربعينيات أسوأ من تلك في العشرينيات حتى. جاء رده فورًا: «بالتأكيد لا!».

أربع سنوات كاملة مضت على اختفاء كيت، وبالتالي افترضت أنه على الأقل مر ببعض المواعدات السيئة لنتبادل قصصها معًا. ضمت المجموعة صنفين من الناس، أولئك الذين كرهوا الحديث عمن فقدوهم ورغبوا في إبقاء ذكراهم قريبة منهم، مثل سِر يحرسونه بشدة. وأولئك الذين عجزوا عن التوقف عن الحديث عنهم. سكوت انتمى إلى الفئة الأخيرة، وشارك العديد من القصص عن كيت حتى إنني شعرت وكأنني أعرفها شخصيًّا، عرفت عن كيت أكثر مما عرفت عن أصدقاء مقربين لي.

- هل فكرت في الأمر؟

لم يأتِ رده بالسرعة ذاتها هذه المرة، وشعرت بالذنب الذي حمله وهو يكتب: «أكثر من مرة».

على مدار الشهور التالية، صار سكوت أكثر انفتاحًا في الحديث عن الصعوبات التي يواجهها في تخطي أزمته. طمأنته مرارًا وتكرارًا، موجِّهة إياه بلطف ناحية التخلي عن فجيعته. كان شابًّا، أصغر من أن يمضي بقية حياته

وحده، ثم في إحدى الليالي خرجت الكلمة مني أخيرًا: «ربما سيساعدك اعتبار أن كيت ميتة في تخطي رحيلها».

مضى عامان كاملان بعدها، قبل أن يتخذ هذه الخطوة، وعام آخر قبل تواعُدنا للمرة الأولى.

والآن ها نحن هنا، زوجان حديثا الزواج.

مضت عشرة أشهر منذ أن ذهبنا رسميًّا إلى المحكمة، مع أطفالنا كشهود. ابناي ثاد وكايلب، وآبي. كلانا مر سابقًا بعرس تقليدي ولم يرغب أيٌّ منا في تكراره مرة أخرى. بالإضافة إلى أن هذا المكان ظل محفوظًا من أجل أزواجنا الذين فقدنا. بهذه الطريقة احتفظ كلانا بذكراهم. بدلًا من عقد احتفال ضخم، خرجنا في عشاء للاحتفال، ولم يختلف الأمر كثيرًا عن العشاء العائلي الذي عقدناه كل شهر.

شكَّل دمج عائلتينا أولوية ذات أهمية قصوى. لهذا السبب انتقلنا للحياة معًا قبل زواجنا بكثير. لسنا غبيين، وعلمنا أن الأمور قد لا تسير على ما يرام، وكلانا استعد لترك علاقتنا لو لم يتقبلها الأطفال، لأنهم عانوا بما فيه الكفاية بالفعل.

مع ثاد وكايلب، مضى الانتقال إلى الحالة الجديدة بسلالة، ثاد حظي بصيف واحد فقط قبل انتقاله إلى الجامعة، وكايلب كان على وشك البدء في عامه الثاني في جامعة دريك، كلاهما مشغول ببدء حياته الخاصة ليعطي علاقتنا الكثير من الاهتمام. لكن آبي، قصة آبي اختلفت. كانت في الثالثة عشرة تقريبًا حين بدأت أنا ووالدها الحياة معًا، ولم تشارك والدها سابقًا مع أي شخص آخر. الحياة التي عهدتها اقتصرت عليها هي وسكوت. ولم يكن لديها أي استعداد للتخلي عن تلك الحياة. فتياي هما مَن كَسر تلك الدفاعات، لأنهما أحبَّاها وأولياها رعاية واهتمامًا على الدوام. ولم تستغرق منها مبادلتهما تلك المشاعر وقتًا. حين عادا من الجامعة إلى المنزل، لم يفوِّتا ولا مرة تدريب الكمان خاصتها، وأُعجب أصدقاؤها كافة بهما.

***

عبر مرآة السيارة الأمامية ألقيت نظرة على آبي بالخلف. كانت عيناها مغمضتين لكنني شككت في كونها نائمة. لم تعتد النوم قط إذا ما اعتراها الضيق. كانت المزيج المثالي بين جينات سكوت وكيت. ورثت جسد كيت الممشوق، الذي -مخلوطًا ببعض زوايا جسد سكوت الحادة- رزقها مظهرًا رياضيًّا رغم كراهيتها للرياضة. وعلى الرغم من كل ما مرت به، شيء ما في مظهرها حمل الكمال والود.

ترنح رأسي وأنا أسترجع مشاهد هذا الصباح، فاجأتني الطرقات على الباب لأننا لم نتوقع أحدًا. نظرت عبر نافذة المطبخ ثم ناديت سكوت. رأيت ضابطَي شرطة على درجنا الأمامي.

أفلتت تنهيدة عالية من فمه عندما رآهما وهو يهبط الدرج مُتجهًا إلى الردهة. تخيل تلك اللحظة لسنوات، ولم يتمكن من إخفاء ارتياحه لأن الأمر قد انتهى أخيرًا.

سأل الضابط: «هل أنت سكوت بينيت؟».

أومأ سكوت وقد أعجزه التوتر عن الرد، واصل الضابط الآخر: «سيدي، عُثر على كيت بينيت حية في ريتسبيرج- مونتانا».

أجفل سكوت متراجعًا للخلف وكأنه سكران، فساعدتُه ليجلس على المقعد في المدخل، في حين نصحه الضابط بلهجته الآمرة المعتادة مِن أفراد الشرطة: «انحنِ للأمام وضع رأسك بين ركبتيك».

شحب لون سكوت ليتحول إلى شيء رمادي، كالصلصال. أنفاسه المتلاحقة أثارت قلقي. انحنى ووضع رأسه بين ساقيه. مسدت ظهره محاولة دفع كتفيه للاسترخاء. استغرق الأمر بضع دقائق قبل أن يهدأ تنفسه، لكنه هدأ أخيرًا. قال الضابط رغم أن سكوت لم يتكلم: «أخبرتك أن هذا سيساعد».

لا بد أنه مرَّ بمثل هذا الموقف مرارًا ليتحدث بمثل هذا الغرور. تساءلت إن توجب عليهم المرور بتدريب خاص يؤهلهم للتعامل مع تدمير حياة الأفراد بنجاح؟ على الرغم من أنه أخبرنا بأن كيت على قيد الحياة، فإنني شعرت

بموجات الصدمة تضرب حياتنا السابقة لتفنيها من الوجود. منذ هذه اللحظة الفارقة، ستتحول حياتنا إلى ما قبل الخبر، وما بعده.

منذ هذه اللحظة والأسئلة تتوالى بعقلي لتفوق قدرتي على ترتيبها. فركت مقدمة رأسي، متعبة من تيار الأسئلة اللانهائي داخله. حركت رقبتي من جهة لأخرى محاولة التخلص من الإجهاد المتراكم بها منذ الصباح. ثم همست لسكوت، في حال أن آبي نائمة بالفعل: «كيف تشعر؟».

هز كتفيه، فتابعت: «هل ترغب في الاستماع لبعض الموسيقى؟».

- بالطبع.

جاء صوته خشنًا متحشرجًا، كما فعل كلما سهر بعد مباراة بيسبول، وظل لونه مخطوفًا.

احتجت إلى هاتفي لأتابع الطريق لذا شغلت الراديو، ولم تقدم لي القنوات المبرمجة بالفعل على تردد بلدتنا سوى ضوضاء استاتيكية، لذا واصلت التقليب بينها حتى وصلت إلى محطة نقية، ملأت موسيقى الروك الكلاسيكي السيارة، فحرك رأسه نفيًا، تلتها الموسيقى الريفية التي يكره. اعتذرت: «آسفة».

وحاولت تغيير المحطة بسرعة لأخطئ وأضغط أزرار الصوت عوضًا عنها، انتفضت آبي مستيقظة بالخلف.

- بحق المسيح!

لو أن الوضع اعتيادي لوبخها أحدنا على لهجتها، لكن لا شيء في هذا اليوم حمل صفة الاعتيادية. قلت: «هل عليَّ البحث على ترددات أخرى لعلنا نجد أي برنامج حديث أو ما شابه؟ أو يمكننا استخدام هاتفك لإرشادنا بالطريق وسأوصل هاتفي بما أن هاتفك لا يعمل على المحول، أنا...».

قاطعني بوضع يده على ساقي: «عزيزتي، أنا أحبك، لكن هل بوسعنا التزام الصمت فقط؟».

***

ثلاثة

آبي

الآن

حدقت بغضب إلى الباب المغلق، كابحة رغبة عارمة في الطرق بقبضتَيَّ عليه حتى يسمحوا لي بالدخول. تلك أمي، وأنا أستحق أن أكون هناك بالداخل بصحبتهم، لكن إحدى المسؤولين التي قابلتنا بمدخل غرفة الطوارئ هذا الصباح، مصطحبة إيانا عبر المستشفى دون حتى تعريفي بهويتها، تركتني بالممر وأغلقت الباب خلفهم جميعًا هناك قبل أن يتسنى لي الاعتراض حتى. لوبخها أبي لمعاملتها لي كطفلة، لو لم يكن في حالة صدمة. وجود ميريدث بالداخل بصحبته بدلًا مني ليس عدلًا. أنا التي حسبت كل ميل قطعناه حتى وصلنا إلى مونتانا، لم أتوقع قط أن أُلفَظ بمثل هذه الطريقة.

كرهت أن أعامَل كطفلة حين يتعلق الأمر بوالدتي. لم يتناول حديثهم خلف الباب المغلق معلومة لم تخطر ببالي سابقًا، أحيانًا أكثر من مرة. تخيلت بالفعل كل سيناريو سيئ قد مرت به على مدار كل تلك السنوات، ولا شيء سيقولونه بالداخل من شأنه مفاجأتي. لكن الأوان فات الآن، كنت عالقة هنا.

آلمتني معدتي، عانيت في أثناء محاولتي للنوم الليلة الماضية، لأنني لا يواتيني نوم مريح مطلقًا بغرف الفنادق. وجل ما أكلته طوال اليوم هو موزة. لم أرغب في أكلها حتى لكن والدي أجبرني. هو نفسه لم يأكل منذ البارحة،

لذا وافقت أن آكل لو أكل هو الآخر. وبقدر ما أزعجني وجود ميريدث معه بينما بقيت أنا في الخارج، إلا أنها على الأقل هناك لدعمه، لأن حاله يرثى له.

اهتز هاتفي بجيبي، وهو ما ظل يفعله منذ أن شغلته مرة أخرى. أطفأته الليلة الماضية بسبب توالي رسائل صديقتي المقربة ميغان دون توقف، تسأل عن حالي وعما يحدث، حتى عجزتُ عن تحمل الأمر أكثر. لتركته مغلقًا لولا أنني أردت أن يتمكن أبي من مراسلتي من الداخل إذا أراد.

أكانت أمي هناك أيضًا؟ هذا غير ممكن، أليس كذلك؟ على الأغلب لا. تحدث أبي مع محقق يدعى ماركوس منذ أن علمنا بأمر أمي، وقال إنها والطفل احتاجا إلى الإيداع بمستشفى بسبب إصابتهما. هذه الغرفة التي دخلوا إليها لم تشبه غرفة مرضى، بدت أقرب للمكتب العادي، لكنها في المبنى ذاته.

رسميًّا، نحن نتنفس الهواء ذاته.

لم أفكر في أمي منذ فترة طويلة، ربما ما يقرب من عام حتى. وفجأة اعتراني الذنب لهذا.

في الصف الثاني، اعتقدت أن خاطفي أمي سيقتلونها لو لم أفكر فيها كل ساعة. كما لو أن وجودها ونجاتها -أيًا كان موقعها في العالم- ارتبطا بأفكاري. أُصِبت بهوس لأتأكد من فعل هذا، حتى إنني ضبطت منبهًا ليلًا لإيقاظي، طورت نوعًا غريبًا من الوسواس القهري، وأعادني هذا إلى الطبيب النفسي الذي توقفت عن زيارته مؤخرًا. شعرت بتشابه الموقف بشكل مخيف الآن، كما لو أنني إن لم أبقِها في وعيي طوال الوقت، فستختفي مرة أخرى.

نظرت إلى الأبواب المؤدية إلى الأجزاء الأخرى من المستشفى. إذا مررت بجوارها في الردهة، هل ستتعرف عليَّ على الفور؟ أم أن الأمر سيشبه أكثر انجذابك لشخص غريب دون أن تقدر على تحديد السبب؟ لفترة من الوقت بعد اختفائها، بقيت أصر على قص شعري كل بضعة أسابيع حتى يبقى بالطول نفسه، لأنني خشيت أنها لن تتعرف عليَّ إذا بدوت مختلفة.

كيف تبدو الآن؟ لم يقل أحد أي شيء لأبي عن مظهرها. بالكاد قالوا أي شيء على الإطلاق. كل ما أخبرنا إياه ماركوس هو أنها جاءت إلى محطة وقود

في شمال مونتانا تحمل طفلًا رضيعًا، وتصرخ طلبًا للمساعدة، وأن كليهما نُقلا إلى المستشفى. وعد بأنه سيجيب عن جميع أسئلة أبي شخصيًّا. نظرت إلى الباب المغلق مرة أخرى. شاعرة بأن دهرًا مضى على وجودهم بالداخل!

ولماذا لا يتحدث أحد بشأن المعضلة الواضحة؟

فيمَ ستفكر أمي حين تعلم أن أبي تزوج من جديد؟ ليس ذنبه أنه تخطاها، لو أن الأمر عائد له، لبقي عالقًا في دوامة الكتابة لها كل صباح، والنوم جوار ثوب نومها على السرير كل ليلة، لانتظرها للأبد.

لأنه اعتاد القول إن حبهما هو ذاك النوع من الحب الذي يأتيك مرة واحدة في العمر.

أربعة

ميريدث

الآن

أسفل الطاولة، عانقت يدي يد سكوت، جالسين إلى رأسها على كراسي بلاستيكية بيضاء، كما لو أننا الضيوف المهمون بعشاء رسمي غريب. ألقت إضاءة الفلورسنت القاسية ضوءًا ذا انعكاس أخضر مزرق عبر الغرفة المتداعية. على الجدار خلفي، تداعى ورق حائط ذو طبعات زهور -الباقي كمخلفات من موضة الثمانينيات- وتقشر. جلس المحقق الرئيسي ماركوس إلى الجانب الأيمن من الطاولة. يجاوره شريكه من جهة وضابط شرطة من جهة أخرى. بينما شغَل أحد المسؤولين التنفيذيين المهمين من المستشفى الكرسي المتبقي، اصطف أطباء آخرون مستندين إلى الجدران. كان هناك عدد كبير جدًّا من الأشخاص واقفين، مما جعل المساحة الصغيرة تبدو أصغر حجمًا.

قال سكوت: «لا أفهم، لِم لا تقدم لي أي إجابات!».

لم أسمع نبرة الغضب تلك تأتي من فم سكوت مطلقًا. حدق مباشرة إلى ماركوس. في اللحظة التي أغلقوا فيها الباب خلفنا، تحول سكوت من حالة الشلل بفعل الصدمة إلى مدفع يطلق أسئلة متتالية.

- أين كانت؟

- من أخذها؟

- كيف وصلت إلى محطة البنزين؟

- لِم كانت في مونتانا؟

من جديد رفع ماركوس يده لإيقاف سيل أسئلة سكوت، كما فعل منذ أن جئنا إلى هنا: «أخبرتك بالفعل، عثرنا عليها في حالة مرعبة من الصدمة، لم يكن بوسعنا الضغط عليها بالأسئلة حتى تسمح لنا رئيسة الأطباء، التي هي للأسف متغيبة في مؤتمر ولن تصل طائرتها قبل الثامنة».

- ومتى ستصل إلى هنا؟

وضعت يدي على ذراع سكوت بلطف قائلة: «قال في الساعة الثامنة يا عزيزي».

تلك المرة الثالثة التي ندور فيها في هذه الدائرة. سكوت بحاجة إلى الراحة. أخبرني أنه حصل على قسط من النوم الليلة الماضية، لكنني شعرت به يتململ يمينًا ويسارًا جواري على الفراش طوال الليل. في لحظة ما قبل الثالثة، تسلل من الفراش ليجلس على مقعد تحت النافذة ولم يعد للنوم قط. بالكاد أكل أي شيء طوال اليوم. مضت أربع وعشرون ساعة وبدا بالفعل أنه فقد وزنًا، لحسن الحظ أقنعته آبي بأكل موزة هذا الصباح.

- وماذا فعلتم قبل هذا؟

تناثرت خصلات شعره في اتجاهات متفرقة من كثرة ما مرر يده بينها. اقتنع سكوت طوال ذلك الوقت أن سلسلة من الأخطاء الكثيرة شابت قضية كيت منذ البداية، وأن الشرطة لم تقم بعملها بالشكل الصحيح. ابتداء بالامتناع عن إصدار تقرير تغيب إلا بعد أن اختفت بالفعل بثماني وأربعين ساعة. قال إنهم أضاعوا ساعات مهمة في التركيز عليه عوضًا عن البحث عنها.

حين بدأنا نتواعد، سألتني أمي: «هل أنتِ واثقة أنك ترغبين في التورط مع مشتبَه به في جريمة قتل؟».

ضحكتُ صارفةً اتهامها: «مضت سنوات على هذا، بالإضافة إلى أنهم استبعدوه في التو واللحظة تقريبًا».

الجميع عرف أن المشتبَه به الأول هو الزوج في حالة غياب الرفيق، ولولا اشتباههم في سكوت، لما قيل إن الشرطة الفيدرالية أنجزت عملها على الوجه الصحيح. لكنه خرج من الاستجواب نظيفًا تمامًا، حتى إنه نجح في اختبار كشف الكذب. لكن تلك النتائج لم تكن جيدة بما يكفي للبعض، لا شيء سيرضي الجميع. لحسن الحظ أمي لم تكن واحدة من هؤلاء، وبمرور الوقت أحبت سكوت وكأنه ابنها، إخوتي أحبوه أيضًا.

- لدينا فريق يجمع الأدلة من محطة البنزين ويتتبع خطواتها من الغابة المحيطة. يمشطون المنطقة بحثًا عن أدلة.

ارتدى ماركوس بذلة مصنوعة خصيصى له بعناية، امتلك شعرًا بلون الرمل وعينين زرقاوين بدا الذكاء منهما، لم يحوِّلهما عن سكوت بعد.

سأل سكوت: «متى يمكننا رؤيتها؟».

علقت أنفاسي في صدري، هذا يحدث بالفعل، كيت حية وسنذهب لرؤيتها. لا شيء فيما يحدث بدا حقيقيًّا حتى هذه اللحظة. قرقع ماركوس أصابعه وأبقى نظرته ثابتة: «نرغب في اصطحابك لرؤيتها في أقرب فرصة ممكنة، من شأن وجه مألوف أن يخرِجها من قوقعتها».

سعل وتابع: «كنا نرغب في أن تعاوننا بمشاركة أي معلومة تقدمها لك في أثناء زيارتك، أي شيء، حتى لو بدت المعلومات غير مهمة».

أومأ سكوت بشوق: «بالتأكيد، سأفعل كل ما بوسعي للمساعدة في معرفة مَن اختطفها».

أشار إليَّ: «وبالمثل ستفعل ميريدث، وسأتأكد أن تفعل آبي الشيء ذاته».

- ماذا عن الطفلة؟ هل هي بخير؟

أخبرونا أن الطفلة فتاة، لكنهم لم يعرفوا أكثر من ذلك. لا أحد علم اسمها وكيت لم تتحدث. لم تقل شيئًا منذ أحضروها إلى المستشفى، خدروها في سيارة الإسعاف لأنها أُصيبت بالذعر عندما أغلقوا أبواب السيارة وحاولت القفز منها. ومنذ تلك اللحظة وهي صامتة، لم يهدئها الدواء فقط، بل أسكتها تمامًا.

تقدم الطبيب الذي وقف سابقًا مستندًا إلى الجدار، كما لو أنه انتظر الإشارة بالحديث: «قيَّم الطفلةَ فريقٌ من أطباء الأطفال المؤهلين من طاقمنا، باستثناء جفاف طفيف وبعض الخدوش، تبدو بصحة جيدة تمامًا».

أطلقتُ زفيرَ راحة، ونظرت تجاه سكوت لأرى رد فعله. لم يذكر الطفلة ولم يعلق أو يتغير وجهه. سأل: «هل بوسعنا رؤية كيت الآن؟».

أومأ ماركوس: «أرغب في إنذاركما بشأن حالتها على الرغم من كل شيء. نحن لا نعلم ما مرت به، لكن حالتها الجسدية تشي بأنها مرت بالكثير. الوقت الذي غابت فيه نال من عُمرها كل منال. أيًّا كان ما عاشته أو مرت به، فقد كان بشعًا».

اعتصر سكوت يدي أسفل الطاولة وقال: «يمكننا التحمُّل».

***

خمسة

آبي

الآن

انحنى والدي أمامي، بعد أن خرج كآخر الوافدين من تلك الغرفة هو وميريدث، بعد مغادرة الجميع بالفعل. عدا ماركوس الذي وقف منتصبًا يعلونا جميعًا: «لِم لا تخبرها بما حذرتُك منه بالفعل؟».

ذكَّرني بالشباب من فريق كرة القدم في مدرستي الثانوية، بكتفيه العريضتين وصدره المنتفخ. استطعت تخمين أنه بلا أطفال لأن وجودي سلب منه الراحة. وضع والدي ذراعيه حول كتفي، وبدت عيناه مبتلتين: «والدتك مرت بالكثير، وستستغرق بعض الوقت للتعافي. ستبدو مختلفة عما تتذكرين. لذا أرغب في أن تستعدي لهذا حين ترينها».

عرف أبي عني أكثر مما يعرفه معظم الآباء عن بناتهم المراهقات. ربما أكثر مما أراد، مثل حجم حمالة صدري والعلامة التجارية للسدادات القطنية التي استخدمتها، لأنني أخبرته بكل شيء تقريبًا، عدا شيء وحيد لم أخبره به قط وهو مدى قلة تذكري لأمي. لأن ذلك سيكسر قلبه بصورة أسوأ مما هو مكسور بالفعل، ولم أستطع أن أفعل ذلك به، لكن ذكريات طفولتي امتلأت بوجهه بدلًا من وجهها. كانت ذكرياتي عن أمي أقرب إلى الشعور، إلى لمحات

مِن فضاء، محفورة داخلي بطريقة لا يمكن لأي قدْر من الوقت أن يمحوها. لكنها مجرد قطع. صغيرة جدًّا.

أكثر ما أتذكره عن أمي هو وميض عينَي أبي بالحب كلما تحدث عنها. أحببت الاطلاع على الأشياء الموجودة في خزانتها والاستماع لقصصه عنها وهو يتحسس بإصبعه قماش فساتينها المفضلة، كما لو أنه يروي لي أهم قصة خيالية في العالم -كيف كانا أفضل الأصدقاء في طفولتهما وكيف أثارا إعجاب الجميع عندما صارا معًا في سن المراهقة-. لم أرغب قط في ارتداء ملابس سندريلا أو سنو وايت، لأن أمي كانت أميرتي المفضلة. على مر السنين، التقط أبي مئات الصور لي وأنا أرتدي فساتينها. كانت الصورة المفضلة لدينا هي تلك التي دخلتُ فيها المطبخ بفستان زفافها، وأنا أنتعل حذاء رعاة بقر هائلًا وأضع قبعة عيد الفصح على رأسي. وفي أحد الأيام توقفت عن ارتداء ملابسها. لماذا توقفت عن ارتداء ملابسها؟ هل حدث ذلك في اليوم نفسه الذي توقفت فيه عن الإيمان بالأميرات والحكايات الخيالية؟

تكومت ثيابها في صناديق بالجزء الخلفي من المرأب لسنوات. كنا بحاجة إلى إخراجها لها، لكنها لا تستطيع ارتداء ملابس قديمة إلى هذا الحد، أليس كذلك؟ ماذا سترتدي؟ لماذا لم يفكر أحد في ذلك؟

غمغمتُ: «لم نأتِ لها بأي ملابس».

رفع أبي حاجبيه: «ماذا؟».

بدأت المشاعر تغلي داخلي لتنفجر كالفقاعات على السطح، علمت أنها فكرة غبية لا تتطلب البكاء لكنني عجزت عن منع نفسي: «لا تمتلك أي شيء لترتديه».

ضمَّنِي أبي لصدره وأحكم ذراعيه حولي: «سيكون كل شيء على ما يرام، سنجد لها ما ترتديه».

ضحكتُ وسط دموعي، وسلمتني ميريدث منديلًا من حقيبتها. نظفت أنفي والتقطت نفسًا عميقًا. سأل ماركوس: «الجميع مستعدون؟».

لم يجب أحد، لكننا وقفنا وتبعناه خارج الغرفة. ثم للأسفل عبر سلسلة من الممرات القصيرة. بدا المستشفى كمدينة صغيرة. توقف ماركوس أمام غرفة تحمل رقم «28A» وتباطأت حركتنا خلفه. أعطانا كلنا لحظة قبل أن يطرق الباب ويفتحه ليلج بالداخل. أحكمت قبضتي حول أعلى ذراع أبي. امتلأت غرفتها بالناس وتحرك الجميع نحو الجدران، مفسحين لنا طريقًا للوصول إلى سريرها. قفز قلبي من صدري وغادر الهواء رئتيَّ.

ها هي هناك.

أمي.

لم يعد شعرها أشقر بل رماديًّا مشعثًا مع فجوات فارغة في الأعلى، يمتد على هيئة خصلات طويلة منسدلة حتى منتصف ظهرها. عيناها الزرقاوان الساطعتان، اللتان لمعتا واضحتين في كل صورها، غاصتا الآن وامتلأتا بالفراغ حتى صارتا ضحلتين. وجنتاها عظميتان كما لو أن السرطان يأكلها من الداخل. ولفظ جانب وجهها الأيمن ندوبًا بدت وكأنها تحدق إلينا غاضبة.

هذه ليست أمي، لا بد أننا في الغرفة الخطأ.

استدرتُ ناظرة إلى أبي، الذي حدق إليها دون أن يتحرك. حركت يديها لوجهها، لتخفي فمها بأصابع طويلة مرتجفة. بدا حجمها أصغر مني، كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ لم تحمل أي صفات مشتركة مع تلك المرأة في الصور التي أبقيتها تحت وسادتي إلى أن صرت في الثامنة من العمر.

لم يتحرك أحد، لثوانٍ لم يتحدث أحد، وكأننا احتجنا إلى لحظة من الصمت لنعي أهمية تلك الدقائق. ثم تحدث الجميع في الوقت ذاته، وبدأ الكل يتحرك حولي لأجدني فجأة في مواجهتها.

مدت يدها ومسدت وجهي بلطف، وكأنها لا تصدق أنني حقيقية. همست بصوت مسموع بالكاد: «آبي».

لم أسمع هذا الصوت منذ سنوات، لكن في اللحظة التي سمعته فيها، شيء ما بداخلي تعرف عليها. جاء صوتي يرتجف مُحمَّلًا بالمشاعر وبدأت الدموع تنساب على وجهي: «أمي».

جذبتني أقرب إلى جسدها، ولفت ذراعيها الضعيفتين حولي. شعرتُ بكل عظمة في ظهرها. ضغطتْ أضلاعها على صدري. خشيت أن أوذيها إذا ضغطتُ عليها بشدة. لم أتعرف على رائحتها. لا شيء يشبه العطر الذي اعتادت وضعه. جاءت رائحتها مثل الحليب الفاسد.

بذل والدي ما بوسعه ليقف جواري صابرًا، ولبقيت بين ذراعيها للأبد، إلا أنني تنحيت كي يتسنى لهما أن يحظيا بوقتهما. ألقى بذراعيه حولها، واختفى جسدها النحيل بجسده. اهتزت أكتافهم بالبكاء، وهمسا بأشياء لبعضهما بعضًا لم أستطع سماعها. أشاح طاقم التمريض بوجوههم، غير راغبين في التطفل على قدسية تلك اللحظة الحميمة. تحركت ميريدث من موقعها أمام الجدار الخلفي وجاءت لتقف جواري. وضعت ذراعيها على كتفيَّ وقربتني منها وهي تقول بينما تمسح دموعها: «أهلًا بعودتك كيت، نحن سعداء لأنك بخير».

***

ستة

ميريدث

الآن

ألقيت نظرة على المقعد الخلفي للسيارة. هذه المرة غطت آبي في النوم حقًّا بمجرد مغادرتنا المستشفى. بكت المسكينة طوال الطريق عبر المستشفى وفي ساحة انتظار السيارات حتى وصلنا إلى السيارة. قلت لسكوت: «لن أعود إلى الفندق بعد، سأقود لفترة من الوقت حتى يتسنى لها النوم. أخشى أن تستيقظ حين نتوقف ثم تعجز عن العودة إلى النوم من جديد، وهي في حاجة إلى الراحة».

اعتدت فعل الشيء نفسه وقت أن كان ولداي ما زالا طفلين، إن عجزت عن دفعهما للنوم أبدأ بالقيادة حتى يغطا في النوم ثم أتوقف في مكان ما إلى أن يستيقظا. أومأ سكوت موافقًا على اقتراحي: «فكرة جيدة».

استدرت لليسار من الشارع الرئيسي وقدت ببطء مارة بالمحلات الصغيرة المحلية المصطفة على الجانبين. اعتصر الألم قلبي لأجل حال سكوت وآبي. قطع دخول الطفلة الزيارة. كان سكوت وكيت متعانقين حين أتى طاقم التمريض بالطفلة إلى الغرفة. قفز سكوت فورًا وكأن الفراش يحترق. أضاء وجه كيت حين رأت طفلتها: «شايلو».

سلمتها الممرضة لكيت، ومن فورها بدأت تتحرك وتتلوى متجهة إلى صدرها. أبعدتها كيت لكنها عادت مرة أخرى، وصار الوضع غير مريح بسرعة. وبما أنه من الواضح أن شايلو أرادت الرضاعة، انطلق سكوت إلى خارج الغرفة بسرعة قبل أن يتسنى لآبي حتى ضم كيت أو توديعها بصورة لائقة.

- أعرف أن ماركوس حذرنا أنها ستبدو مختلفة، لكن كان عليه أن يكون أكثر تحديدًا.

تابعت: «أعني، كان بوسعه أن يقول: هيي، بالمناسبة، ستبدو وكأنها امرأة في الثمانين. أنا واثقة أن هذا كان سيساعد الجميع على الاستعداد».

- ربما رغب في أن نُصاب بالصدمة.
- حقًّا؟

حرك كتفيه: «ربما، مَن يعلم، لا فكرة لدي لِم يفعلون أيًّا مما يفعلون. أنتِ على وشك رؤية ما أخبرتك إياه طوال تلك السنين الماضية».

سمعت كل شيء عن قضية كيت. عرفت كل ذلك كما لو أنها زوجتي أنا- علمت بالضبط كيف اختفت من موقف السيارات الخاص بمتجر تارجت في ذلك اليوم، وكل ما كُتب في قائمة مشترياتها، وأين تركت حقيبتها على المقعد الأمامي بسيارة تويوتا الخاصة بهم. عرفت كل خطوة من خطوات التحقيق، وكل دليل اكتشفوه، ثم كل دليل استبعدوه فورًا. كل الأشياء التقليدية وغير التقليدية التي فعلها للعثور عليها أو على الأقل العثور على دليل واحد- الوسطاء الروحيون والمتصوفون وكل غريبي الأطوار الذين تواصلوا مع سكوت على مر السنين لإخباره بقصص عن أقاربهم الذين اختفوا. كانت هناك مجموعة كاملة من الأشخاص الذين آمنوا بمؤامرة الاختطاف الجماعي من قِبل الحكومة. تحدثوا عن هذا في أحد تلك المنتديات التي تصفحتها آبي دائمًا.

- المحققون والشرطة لا يقدمون أبدًا المعلومات كافة التي يمتلكونها، دائمًا ما ستجدين كارتًا أو آخر مخفيًّا تحت الطاولة.

واصل سكوت الكلام في أثناء استمراري في المضي بالسيارة، أُبطِئ فقط عند الإشارات: «لكن في المقابل يرغبون في أن تتفوهي بكل شيء، أن تكوني كالكتاب المفتوح».

- على الأقل ليس لدينا ما نخفيه.

اشتعل صوته بنيران الغضب، متذكرًا بالتأكيد ما عاناه بسببهم: «هذا لا يهم، سيواصلون معاملتك كما لو أن لديك ما تخفيه».

تمتمت آبي وتحركت في المقعد الخلفي، فالتزمنا الصمت حتى عادت إلى النوم، لأتابع: «صعب عليَّ التعرف عليها».

تصفحت كل ألبومات الصور التي يمتلكونها قبلًا، ورأيت الشرائط المنزلية التي سجلوها عدة مرات. حدق سكوت في صمت خارج النافذة: «لا أعرف، ما زلت قادرًا على رؤيتها هناك في داخل عينيها».

نظرت إلى عينيها أنا الأخرى، لكنني لم أرَ ما رآه، كل ما رأيته بالداخل بدا ميتًا. سألت: «ماذا قالت حين عانقتها؟».

احمر وجهه خجلًا، وتمتم بشيء هامسًا لم أستطع سماعه.

- وماذا قلت أنت؟

- هذا لا يهم.

- بل يهم، ربما هو مهم. هل تذكر أن ماركوس أخبرنا بتذكر كل تفصيلة مهما بدت غير مهمة؟

- قالت وبقيت تكرر «أنا آسفة يا سكوتي».

- سكوتي؟

أومأ وأشاح بنظره، فتعجبت: «أخبرتني أنك تكره أن يناديك أحد سكوتي!».

بدأ عنقه يصطبغ بالحُمرة وهو يجيب: «أعني.. أنا فقط.. كما تعلمين.. هذا مجرد لقب غبي اعتادت مناداتي به حين كنا.. في العاشرة من العمر مثلًا».

هذا هو ما جمع بينهما، كانا صديقين مقربين قبل أن يتواعدا، عرفا كل شيء عن بعضهما بعضًا لأن هذا هو المعتاد بين الأصدقاء المقربين. اعتاد

سكوت إخباري أنهما عرفا بعضهما حد أنها حُفرت في جيناته. تابعتُ الكلام وأنا أدفع ابتسامة عُنوة لترتسم على شفتيَّ: «هذا لطيف».

لم أشُك في حبه لي، لكنني لم أنسَ كل تلك السنوات التي قضيتها في الاستماع لكيف أن فقدان كيت صدمَهُ كما لو أنه فقد جزءًا من جسده، وكيف عانى النقصان في غيابها.

***

كيت

حينها

تفحصت الجزء السفلي من حقيبتي، أبحث عن قائمة مشترياتي. وبدلًا من ذلك، كل ما وجدته هو كيس محكم الغلق مليء ببقايا سمكة ذهبية والمصاصة الحمراء التي حصلت عليها آبي من حفلة عيد الميلاد التي حضرتها يوم السبت الماضي. أطلقت تنهيدة محبطة. ربما تركتها في المنزل مرة أخرى. يا إلهي، كرهت شراء البقالة بعد ظهر يوم الأحد. يكون المتجر مكتظًّا دائمًا بالناس، والأرفف نصف فارغة، لكن ازدحام أسبوعنا تسبب في عجزنا عن الذهاب أبكر، والآن لم يعد لديَّ أيُّ خيار، حيث نفد الحليب منَّا.

قفزت من السيارة وأغلقت الباب قبل أن أسرع إلى الداخل. ليست لديَّ سوى ساعة واحدة قبل أن أضطر إلى الذهاب لاصطحاب آبي من الحضانة التمهيدية. أخبرت نفسي دائمًا أنني سأنجز الكثير في أثناء وجودها في الحضانة، لكن الساعات الأربع مرت بسرعة كبيرة، والآن بعد أن تلقيت المزيد من المهام المتعلقة بالكتابة من محرري «ليو»، أصبح وقتي تحت ضغط أكبر.

في العام القادم من المتوقع أن تصير الأمور أسهل مع انتقال آبي إلى الصف الأول من الحضانة. لم تكن لديَّ فكرة مَن قرر أن تقتصر الحضانة التمهيدية على نصف يوم، لكنني الآن صرت في أتم استعداد لأوصل آبي إلى المدرسة في الثامنة صباحًا وأعود لاصطحابها في الثالثة. ليس الأمر وكأنني لن أفتقد غيابها عني طوال اليوم، لكننا صرنا مستعدتين لهذا الفراق. بعض الوقت بعيدًا عن بعضنا بعضًا سيفيد كلتينا.

داخل عقلي، لعِبت تفاصيل حديثي مع ليو هذا الصباح. تردد في إمدادي بفرص عمل جديدة خوفًا من أنني لن أمتلك الوقت الكافي لإنجاز أي مهمة كبيرة، لكنني لشهور واصلت إخباره أنني صرت مستعدة لمواصلة مهامي القديمة. هذا بالطبع بجانب أن الشخص الذي تواصل معه بشأن إجراء مقابلة طلبني شخصيًّا بالاسم، وبالتالي لم يعد لديه خيارات كثيرة.

وظيفتي كانت السبب في انتقالنا إلى آركاتا. وحصلت على ثلاثة أشهر إجازة أمومة من عملي ككاتبة في المنصة ولم أعد بعدها إلى العمل بدوام كامل قط. حصلت على جائزة جورج بولك لمقال كتبته تحرَّيت فيه قصة عن استغلال اثنين من كِبار السن في منزل رعاية في رويال هايتس. وبعد القبض على المسؤولين، حظيت بانتباه على مستوى واسع، وانهالت عليَّ عروض عمل من أنحاء البلاد كافة. لطالما حلمت بالانتقال إلى كاليفورنيا الشمالية، وبدا وكأن الأقدار رتبت مصايرنا حين اكتشفنا أن شركة المبيعات التي يعمل بها سكوت لها فرع بمدينة قريبة.

قررنا أن أبقى في المنزل مع آبي لأعمل بدوام جزئي حتى تبدأ في الذهاب إلى المدرسة، نظرًا إلى أهمية السنوات الخمس الأولى في حياة الطفل. وسعدت بفعل هذا، لكن مرت عليَّ لحظات دفعني فيها الملل من البقاء في المنزل بلا عمل إلى حد الجنون. عرفت أن البقاء معها استحق المعاناة، حين رأيت كم نشأت آبي سعيدة ومستقرة، لم أقابل في حياتي طفلة أكثر حيوية منها، بشهادة الجميع. ولا يعود الفضل في ذلك فقط إلى كوني أمها، لكن آبي شعرت بالسعادة والاكتمال أينما كانت وتحت أي ظرف يحدث حولها. شعرت بالسعادة حين حصلت على قيلولتها، ولم ينتَبْها الضيق إن لم تفعل

كما يحدث في حال أطفال كثيرين آخرين. وحتى صديقتي المقربة كريستينا، التي أقسمت إنها لن تحظى بأطفال، مزحت في إحدى المرات قائلة إنها لا تمانع لو أنها حظيت بطفلة مثل آبي. على الرغم من ذلك لا يمكنني نسب الفضل لنفسي على حالها، هي فقط خُلقت هكذا.

تردد سكوت بشأن عودتي إلى العمل بدوام كامل حين فاتحته في الأمر، لكنني شعرت بملل بشع من كل القصص الصغيرة التي عملت عليها. يمكنني تحمل الكتابة عن معرض الخبز المحلي أو مشكلات جدولة أوقات الري عددًا معينًا من المرات فقط قبل فقدان أعصابي. رغبت في العمل على قصص ذات محتوى مهم من جديد.

- رؤية والدتها تعمل ستُشكِّل فارقًا مع آبي، أرغب في أن تحظى بصورة عني تحمل كلا الجانبين كربة منزل وامرأة عاملة.

أخبرته هذا ونحن نتناول العشاء في إحدى الليالي، بالكاد أكتم ضحكاتي على كيف بدت كلماتي ليبرالية متحررة، بينما ما انطوت عليه هو مجرد رغبتي في العودة إلى العمل، أحببت كوني أمًّا لآبي لكنني أيضًا أحببت عملي.

اتفق سكوت معي دائمًا حين تحدثنا عن الأبوة والأمومة ورعاية الأطفال، لكننا على وشك رؤية ما إذا عنى ما يقول لأن ليو جعل الأمر يبدو وكأن هذه المهمة التالية صعبة. ولهذا السبب بقي مترددًا في تكليفي بها. تتطلب القصص الكبيرة الكثير من الساعات الإضافية، وقد مر وقت طويل منذ أن تمكنت من فعل أي شيء يتجاوز الحد الأدنى من الوقت، لكنني صرت مستعدة للعودة مرة أخرى، وبخاصة بعد أن سمعت أن الأمر يتعلق بطائفة محتملة انتقلت إلى المنطقة، لتتسكع في محيط الحرم الجامعي.

شكلت كلية بيرس قلب أركاتا، ودارت حياة الناس حولها. جاء الطلاب من جميع أنحاء العالم للدراسة في برنامج الهندسة الكيميائية وتخصص الأدب العالمي الإنجليزي. لكن مدينتنا الجامعية اللطيفة واجهت مجموعة المشكلات نفسها مثل أي حرم جامعي آخر في جميع أنحاء أمريكا - حاربنا وباء انتشار المواد المخدرة، وفقدنا طالبين بسبب تناول جرعات زائدة في العام الماضي.

في الآونة الأخيرة ظهرت طائفة دينية تشير إلى نفسها باسم «الحب الدولي» في الحرم الجامعي، تهدف إلى مساعدة الشباب في الإقلاع عن المخدرات.

امتلكوا منشأة على أطراف المدينة، واصطحب أفراد «الحب الدولي» أولئك الشباب إلى منشآتهم لمساعدتهم على التخلص من الإدمان، بقوا جوار المدمنين على مدار الساعة حتى أفاقوا، نجحوا بالفعل في مساعدة أكثر من دزينة من الطلاب وانتشرت قصص معجزات شفائهم كالنار في الهشيم في جميع أنحاء بلدتنا. لم يكن الأمر كما لو أن طريقتهم في المراقبة لمدة 24 ساعة على مدار الأسبوع مختلفة عن باقي الطرق المتبعة في التخلص من الإدمان. كانت هناك مئات البرامج ومدربو التخلص من الإدمان الذين قدموا الخدمة ذاتها بالضبط.

جل ما ميز جماعة «الحب الدولي» عن البقية، هو أنهم قدموا خدماتهم مجانًا، كلها.

رحب بهم المجتمع بأذرع مفتوحة على الرغم من أن لا أحد علم لِم اختارونا أو أين كانوا سابقًا. لم يتفوه أحد بأي سوء عنهم حتى، إلى أن قرر أحد الطلاب الذين ساعدوه في الاستشفاء التخلي عن دراسته بعد شفائه والالتحاق بهم. بدأ بالعمل معهم لمساعدة طلاب الجامعة في الاستشفاء أيضًا. ولم يمض وقت طويل حتى تبع خطاه عدد آخر من الذين تلقوا المساعدة. وهذا بدأ بإثارة الانتباه.

رغب الآباء في أن يُشفى أبناؤهم، لكنهم رغبوا في أن يواصلوا دراستهم أيضًا.

في الشهر الماضي، توسعت دائرة تأثير جماعة «الحب الدولي»، وبدأ بعض الطلاب الذين لم يعانوا الإدمان حتى في ترك مدارسهم للانضمام والعمل معهم. ومع اندلاع ثورة من الأهالي، بدأ الجميع في المطالبة بمعرفة المزيد عنهم. جذبت القضية انتباه محطات الإعلام في جميع أنحاء الوطن حين نُشرت قصة كتبتها جريدة الجامعة عنهم.

حمل قائدهم اسم «راي فيشر»، ورفض الحديث مع أي محطة وطنية أو إجراء مقابلة رسمية حتى الآن. كان هذا منعطفًا مثيرًا للاهتمام بطبيعة مثل هذه المنظمات التي كبُرت وترعرعت على الشهرة الإعلامية بل وسعت خلفها. لكنه رفض كل عرض آتٍ من الصحافة، حتى أولئك الذين عرضوا تعويضات مادية.

لسبب ما كان مطلعًا على المجتمع المحلي، وتواصل مع ليو قبل بضعة أيام، مطالبًا بإجراء مقابلة، لكنه سيجريها فقط إذا تولاها شخص محلي وطلبني بالاسم، متعللًا بأن السبب هو قراءته لإحدى مقالاتي الأخرى. لم يضيع ليو أي وقت في الترتيب للمقابلة الرسمية، بما أن صحيفة الجامعة سبقتنا لنشر القصة الأولى، واحتجنا إلى القفز في المقدمة قبل أن يتمكن منافسونا -جريدة ذا صن- من تدبير لقاء معه.

أراد ليو أن يصطحبني للمقابلة، لأننا الشخصان الوحيدان اللذان حملا أي خبرة في تغطية شيء بهذا الحجم. جاء ليو من صحيفة محلية مزدحمة في ديترويت، حيث تولى قيادة قسم الكتابة عن الجرائم في البداية حتى وصل إلى منصب رئيس تحرير قسم أسلوب الحياة بأكمله. لكن والده كان يحتضر بسبب مرض نادر في الرئة، وصار في أسابيعه الأخيرة. واستعد ليو للعودة إلى المنزل للبقاء معه. حتى مع وجود أب يحتضر، كانت فرصة بهذا الحجم أكبر من أن يضيعها. لم تقع أحداث مثيرة للاهتمام في أركاتا، وقد تمضي سنوات أخرى قبل أن تسنح لنا فرصة كهذه من جديد.

رُتبت مقابلتي مع راي في الغد. وقضيت الصباح كله في البحث عن معلومات عنه لكنني عجزت عن إيجاد أي شيء عنه قبل أن ينشئ جماعة «الحب الدولي». وحتى تلك المعلومات شحت. جل ما وجدته هو تاريخ ميلاده، ولِد في وسيتن، نيو جيرسي، عام 1960. وهذا عنى أنه في السابعة والأربعين. لكن بجانب هذا لم أجد أي شيء. ولم يواتِني الحظ أكثر مع «الحب الدولي». لم يمتلكوا موقعًا، ولا سُجِّلوا كمنظمة عادية أو منظمة غير ربحية. وإن فعلوا، فتلك معلومة عجزت عن إيجادها على أي حال. اقتصر ذكرهم على بعض التعليقات على كتب دينية متنوعة بموقع أمازون، وبعض التدوينات

التي كتبها الأعضاء. كحال كل التدوينات كانت تلك مفعمة بالحماسة في بدايتها لكنها بدأت تقل بمرور الأسابيع حتى انتهت. لم يُنشر جديد في أيٍّ من المدونات لسنوات.

سأل سكوت: «ألا تشعرين بالقلق لأنك لا تعرفين أي شيء عن أولئك الأشخاص؟».

اتصلت به مباشرة بعد أن أنهيت الاتصال مع ليو، لم أفوت أي لحظة لأطلِعه على هذه الفرصة. ضحكت: «بالتأكيد لا، هذا يجعل الوظيفة حماسية أكثر فقط».

لم أرغب في الاعتراف لسكوت، لكن مضى وقت طويل منذ أن شعرت بمثل هذه الحماسة بشأن شيء ما. أحببت عائلتي، فعلت بالطبع، لكن معظم وقتي انحصر في رعاية احتياجات الآخرين. شعرت بأن تحولي إلى أم عَنَى أنني سلمت جميع حقوقي لأجل خاطر الآخرين. ما دفعني لهذا هو رؤيتي أنا المثالية للأمومة. لكنني واصلت الشعور بأنني لا أتوقف أبدًا عن التنظيف وجمع الأشياء التي خلَّفتها أطراف أخرى. تقت لفعل شيء يتخطى المهام اليومية التي حملتها قائمة مهامي. لم أتقبل قط فكرة بقائي كربة منزل. رغم أنني لم أعترف بهذا علانية، فإن الحسد الذي شعرت به في أول يوم عاد فيه سكوت إلى عمله بعد ولادة آبي، لم يغادرني قط.

بادرت بالتقاط التوابل اللازمة لصدور الدجاج التي قررت طبخها كعشاء اليوم، وغادرت المتجر مسرعة لأصطحب آبي من المدرسة، وعلى وجهي ابتسامة ضخمة.

لا أطيق انتظارًا حتى يأتي الغد.

***

سبعة

آبي

الآن

وخزت قطع الطعام أمامي، التي شملت دجاجًا بالبرتقال مُتبلًا بالكم المناسب من التوابل، بالضبط كما أحببته. لكنني عجزت عن إيجاد شهيتي لإجبار نفسي على الأكل، ما زلت غير جائعة على عكس أبي، الذي عادت شهيته لتهاجمه بقوة دافعة إياه لالتهام اللحم والبروكلي خاصته بنهم واضح، حتى إنه بدأ في تناول بقايا طعام ميريدث. قالت ميريدث وعيناها ممتلئتان بالاهتمام، وجانب فمها يلتوي عابسًا: «عزيزتي، عليكِ تناول شيء ما».

- أنا آسفة.

اعتذرتُ: «لست جائعة، لا أملك الشهية».

صعب عليَّ أن أتناول الطعام، في حين يقف ضابط شرطة مسلح خارج غرفة الفندق. شخص ما بالمستشفى سرَّب أخبار والدتي وبدأ الإعلام من فوره في غزو المستشفى. أخبر ماركوس والدي أن فرد الأمن معنا مجرد إجراء إضافي احتياطي، لكن لا أحد منا صدقه. أنا بالتأكيد لم أصدق. لا أحد يحمل سلاحًا ما لم يملك سببًا ليحمله.

غادرني كل الحماس الذي شعرت به سابقًا. لتحل حيرة أكبر مما سبق مكانه. انفجرت باكية وقفزت ميريدث وأبي من كرسيهما فجأة ليحيطا بي،

يحاصرنني داخل عناق هائل. فيض المشاعر الذي كبحته طوال اليوم، عاد غامرًا جسدي بالكامل الآن.

تداخلت أصواتهما معًا: «لا عليكِ، نفِّسي عما بداخلك».

- نحن نحبك، نحن هنا.

تعلقت بقميص أبي، أدفن وجهي به. لا أذكر آخر مرة بكيت بمثل هذه القوة، وشعرت بأن نوبة البكاء لن تنتهي. لكنها انتهت فجأة. كما بدأ هدير الدموع جف فجأة لأنسحب من بينهما، محرَجة ومتعجبة من انفجاري الفجائي. للمرة الثانية اليوم، ناولتني ميريدث منديلًا. لا أحد أخبرني أنني سأشعر بكل هذا.

سألت بصوت ضعيف: «ما الذي سيحدث؟».

فتحت ميريدث فمها لتتحدث لكنها أغلقته بسرعة، سامحة لوالدي بالبدء: «لا أعرف يا يقطينتي، أتمنى لو أنني أعرف».

جاهد أبي لكبح زمام مشاعره قبل أن يواصل: «سنتعامل مع الأمور خطوة تلي الأخرى، كما فعلنا سابقًا. أنتِ لا تتذكرين هذا على الأرجح، لكن في الأيام الأولى هذا كل ما قلته لنفسي. سكوت، تعامل مع ما أمامك مباشرة. لا بد أنني قلتها مئات المرات. وفي بعض الأوقات هذا كل ما بوسعك فعله، وهذه المرة أحدهم».

أشار إلى الطعام أمامي: «لذا الآن ستفعلين ما بوسعك للاستجابة لحاجة جسدك إلى الغذاء، ثم سنحاول جميعًا أن ننال قسطًا من النوم لأن عقولنا في حاجة إليه».

ربت على ظهري: «هذا فقط، لن نفعل أكثر من هذا الليلة. اتفقنا؟».

أومأت وأنا أتحسس شوكتي. من حولي انفض الجمع وعادا إلى مقاعدهما، ولوهلة، تناولنا جميعًا طعامنا في صمت. ثم قال أبي: «تحدثت مع أحد الأطباء من جديد الليلة حين كنتِ في الحمام».

وعدني أبي أن يطلعني على أي مستجدات بشأن أمي، نظرًا إلى أنه هو من سيتحدث مع الأطباء بصورة مستمرة ولن أكون حاضرة طوال الوقت حين يفعل.

- والدتك مريضة للغاية، بدأت نتائج التحاليل في العودة من المختبر ولا يبدو أيٌّ منهم طبيعيًّا. بدؤوا بإجراء المزيد من التحاليل وسيرسلونها إلى هناك مرة أخرى.

- لكن هذا بسبب الجفاف فقط أليس كذلك؟ لا تعاني مشكلة حقيقية؟

سألتُ، وتوهجت عيناه بالاهتمام وهو يجيب: «تقنيًّا بلى، لكن الأمر معقد. الجفاف وشُح الطعام عبثا بنظام جسدها وأعضائها بمُضي الوقت، علينا الانتظار لمعرفة نتائج الفحوصات الجديدة قبل أن نحظى بأي معلومة أخرى».

سألتُ: «كيف تحظى الطفلة بصحة جيدة هكذا؟».

سمعتُ ميريدث تلتقط شهيقًا عميقًا فور أن ذكرت الطفلة. لم يشر إليها أبي مطلقًا، ولم أرغب في السؤال. وهذا ليس نابعًا من أنني لا أرغب في معرفة إجابة، لأن الجميع رغب في الإجابات. أجاب والدي بصورة آلية دون تفكير: «الطفلة في صحة جيدة لأنها تمكنت من الرضاعة بصورة طبيعية، وهو مصدر غذائي ثابت لم يُتح لوالدتك، لذا عانت سوء تغذية بشعًا».

- إذًا الطفلة ابنتها بالفعل؟

- نعم، ويبدو أنها وضعتها قبل نحو سبعة أسابيع.

***

في نهار اليوم التالي، أمسك والدي بيدي بينما قادنا ماركوس إلى إحدى غرف المستشفى. أشار الأخير إلى المقاعد المبطنة المصطفة إلى أحد الجدران كي نجلس. من إحدى السماعات بمكان ما انبعثت موسيقى جاز سيئة، وتراصت المجلات المساعدة على الاسترخاء على حامل بالجانب الأيمن من الغرفة. وقفت عاقدة ذراعيَّ، وكأنهم لن يطلعوني على ما وعدوا بإطلاعي

عليه لو لم أجلس. بما أن الغرفة بدت كواحدة من تلك الغرف التي يُطلِعون فيها ذوي المريض على الأخبار السيئة. على جانبيَّ وقف والدي وميريدث، لنُشكل معًا شبه دائرة غريبة.

ظلت تعبيرات وجه ماركوس ثابتة طوال يومين. لم يبتسم، لم تبدُ في عينيه أي بادرة ودٍّ. لكن القميص أسفل المعطف الذي ارتداه حمل اللون الأحمر اليوم، مما جعل بشرته تبدو داكنة أكثر. تحدث بنبرة موجهة أكثر منها عارضة: «لِم لا نجلس؟».

بينما اشتدت قبضتي على يد والدي جلسنا على كراسي متجاورة، متقاربين حتى تلامست ركبتانا. لم تكن تلك المرة الأولى التي يقتادنا فيها محقق إلى غرفة كهذه، لكن هذه الغرفة بالذات لم ندخلها سابقًا. أغلق أحد في الممر الباب فغادرت أنفاسي صدري فورًا. شعرت بأن كل شيء يذوب، وبدأ رأسي يدور.

بدأ ماركوس، رافضًا إضاعة أي وقت ليدخل مباشرة في صلب الموضوع: «أرغب في أن نتحدث عن الخطوة التالية بخصوص والدتك».

لطالما أشار إلى والدتي باعتبارها «والدتك»، لم يقل لوالدي قط «زوجتك» ولا حتى ذكر اسمها. كان هذا غريبًا، تساءلت عن الصيغة التي أشار بها إليها حين تحدث مع والدي وحدهما. تابع: «الطبيبة الرئيسية وصلت إلى المستشفى الليلة الماضية كما هو متوقَّع، تفضلت بالحضور مباشرة من المطار إلى هنا بعد...».

قاطعه والدي، غير قادر على تحمل شرح مطول: «ما الذي توصلت إليه؟».

تحدث ماركوس بسرعة قبل أن يتمكن والدي من مقاطعته مرة أخرى: «أتمنى لو أن لدي المزيد من المعلومات لأقدمها لك، لكن هذه الأنواع من التحقيقات تستغرق وقتًا، وعلينا التأكد من أننا نفعل كل شيء بصورة صحيحة. ليس هناك مجال للأخطاء. ومع ذلك، فقد أعطت الطبيبة الإشارة الخضراء التي تعني أن كيت تمتلك القدرة على الخضوع لاستجواب، ومن

الطبيعي أن نتمكن من المضي قدمًا في تحقيقنا، لكن كيت فشلت في اختبار استقرار الحالة العقلية، مما يضعنا في موقف صعب».

تابع: «أحد أسباب فشلها في اختبار استقرار حالتها العقلية هو عدم قدرتها على إجابة أسئلة بسيطة مثل في أي يوم من أيام الأسبوع نحن أو في أي سنة، لا يعزي هذا إلى أن حالتها العقلية متأخرة، بل إلى أنها بقيت معزولة عن المجتمع فترة كبيرة، وبالتالي ليس لديها فكرة كم من الوقت مضى».

سأل أبي: «ماذا تعني بمعزولة؟».

حرك كتفيه: «لا نعلم بصورة مؤكدة بعد، لكن الاحتمالات تقع في أي نقطة ابتداء من البقاء خارج المجتمع المعتاد إلى الحبس جسديًّا في مكان مغلق بطريقة ما».

- وأنتم واثقون أن هذا سبب عجزها عن معرفة في أي الأيام نحن؟

سألتْ ميريدث، فالتفتُّ إليها رافعة حاجبيَّ، ما الذي تحاول قوله؟ إن أمي مجنونة؟

- بكل تأكيد. وهناك أدلة أخرى أيضًا. على سبيل المثال، لم تحظَ بأي رعاية طبية أو علاج أسنان لخمس سنوات على الأقل. إحدى أسنانها الخلفية اقتُلعت بآلة ما، ملقاط على الأرجح. ولديها التهاب موضعي في مكانها انتشر حتى نال من لثتها. لم تنل أي رعاية طبية قبل أو بعد الوضع. وجسدها منهك من الحمل. الحبل السري قُطِع بمقص أو سكين. أدلة كثيرة على شاكلة هذه.

على الكرسي المجاور لي انحنت ميريدث للأمام، امتلكت معدة ضعيفة عاجزة عن تحمل مثل هذه الأشياء، كانت تلك إحدى الصفات التي اعتدنا غيظها بسببها طوال الوقت.

- إحدى أولوياتنا هي إعادة تأهيلها لاستيعاب الوقت والعالم حولها. سيستحيل عليها استيعاب ترتيب أي أحداث زمنية ما لم تستقر بصورة ما في الواقع المحيط بها حاليًّا. لحسن الحظ، سيصل فريق من الخبراء

خلال الساعات القادمة، وأولئك لديهم القدرة على التعامل مع مثل هذه المواقف الحساسة.

قالها ماركوس وبدأت يد والدي تسترخي في يدي، ليذوب بعض التوتر عن جسده. لطالما اشتكى من قلة فاعلية الشرطة حين اختفت والدتي، قال إنهم غير مؤهلين لتولي قضايا بمثل هذا الحجم، وإنه كان عليهم التواصل مع الشرطة الفيدرالية أبكر مما فعلوا بفترة طويلة. وعلى الرغم من أنهم استبعدونا من القضية حين وصلوا أخيرًا لكننا دائمًا تساءلنا عما كان ليحدث لو أنهم وصلوا باكرًا، على الأقل لحظينا بأناس أفضل قادرين على دعمنا منذ بداية القضية.

قال ماركوس: «ما زلنا في أول اثنتي وسبعين ساعة من التحقيق، لذا فإن تركيزنا الوحيد ينصب على جمع أكبر قدر ممكن من الأدلة من والدتك والمصادر الأخرى. عثر عدد قليل من محققينا على مخيم قديم للعربات هُجر مؤخرًا، لذا وسَّعتْ فرق البحث خاصتنا نطاق تحقيقها ليشمل الغابات والأودية، ضمن دائرة نصف قطرها عشرة أميال من هذا المخيم بالإضافة إلى محطة الوقود. أجروا لقاء مع عامل محطة الوقود بالفعل، وسيجرون معه مقابلة أخرى بمجرد وصول فريق الخبراء. كما تواصلنا مع عدد قليل من سائقي الشاحنات على طول الطريق باعتبارهم شهودًا محتملين، وهذه المقابلات تجري بينما نتحدث».

تابع: «تحديد ما سنقوله للإعلام هو أول أولوية لنا بهذا الصباح».

لم أستبعد عن ذهني فكرة بقدر فكرة اضطرارنا إلى تقديم تصريح للإعلام، لم أفهم لماذا توجب علينا إمدادهم بتحديث يوميًا. سألت: «كيف حالها؟».

بقدر ما كانت قضيتها مهمة لكنني رغبت في الحديث عنها هي. تبادل والدي وماركوس نظرات، قبل أن يتحرك والدي في مقعده ليبدأ ماركوس بالحديث وهو يتخذ مقعدًا بالقرب مني: «إنها خائفة حد الموت».

لاحظتُ أن جسده الضخم متناسق مع لوحة ديفيد هوكني المعلقة على الحائط خلفه بطريقة غريبة، انحنى للأمام حتى كادت ركبته تلامس ركبتي: «أعرف أن الفكرة عسيرة على التخيل، لكن حين يُختطف الناس ويعامَلون معاملة وضيعة لفترة طويلة، يبدأ عقلهم بتطوير طرق غريبة ليبقيهم آمنين. باستطاعة الأشرار إخافتكِ، وبوسعهم مواصلة إثارة رعبكِ لفترة طويلة، حتى بعد أن تأتيكِ المساعدة».

حاربت الرغبة في البكاء كما فعلت في الأمس وسألت: «ما مدى سوء المعاملة التي تعرضت لها؟».

وضع أبي يده على ذراعي: «التفاصيل ليست مهمة».

دفعتُها متابِعة: «بل هي مهمة، وكلكم يعرف هذا، التفاصيل هي كل شيء».

التقط أبي نفسًا عميقًا قبل أن يومئ لماركوس، آذنًا له بالمتابعة. أبقى ماركوس نظرته ثابتة على عينيَّ وهو يجيب: «يبدو أنها تعرضت للتعذيب المنتظم على مدى فترة كبيرة من الوقت».

- ماذا تعني بالتعذيب المنتظم؟

- تعرضت للجَلد، ويحمل جسدها آثارًا لحروق وندوب أخرى، على ما يبدو...

قاطعته ميريدث: «أرجوك توقف، هذا يكفي».

ربما فاقت مِثل هذه التفاصيل قدرتها على التحمل، لكنه لا يقارَن بما مررنا به أنا وأبي. اضطر إلى أن يعاين جثة في إحدى المرات ليرى ما إذا كانت أمي. انحنيت إلى الأمام وحاولت أن أبدو لطيفة بينما أقول ذلك، لأنني لم أرغب في إيذاء مشاعرها: «أنا آسفة ميريدث لكن إذا رأيتِ أنك غير قادرة على تحمل ما يقال، ستضطرين إلى الانتظار خارج الغرفة، لأنني أرغب في معرفة كل ما حدث لأمي».

***

كيت

في الماضي

اضطربت أعصاب جسدي كافة. ليس الأمر وكأنني لم أجرِ مقابلات كبيرة من قبل، بل لأن هذه أولى المقابلات التي أجريها وجهًا لوجه بعد الولادة، خطوة داخل ماضٍ تركتُه خلفي بعد ولادة آبي. مسدت الجزء الأمامي من تنورتي، ممتنة لأنها عالية الخصر بما يكفي لتغطية البطن الذي تخليت عن محاولة خسارته منذ وقت طويل. ربما الاضطرار إلى ارتداء شيء ما إلى جانب سراويل اليوجا من شأنه أن يحفزني بما يكفي لخسارة آخر عشرة كيلوجرامات مزعجة اكتسبتها. بمجرد أن يبلغ طفلك الخامسة من عمره، لم يعد وزنك الزائد مؤهَّلًا ليوصَف بوزن الحمل، أليس كذلك؟ ماذا لو نسيت كيفية العودة إلى العمل كمحترفة؟

لكن ثقتي بنفسي واصلت نموها مع كل نقرة على حذائي الجديد على الرصيف. هذا لا شيء. أجريت مقابلات في سجون قبلًا. أنا قادرة على هذا، ذكَّرت نفسي وأنا أواصل مشيي.

لاح مجمع «منظمة الحب الدولي» في الأفق أمامي. وقع مقرهم بالقرب من أطراف المدينة، حيث تحول الطريق الرئيسي إلى طريق سريع قديم يصطف على جانبيه مزيج غريب من المنازل والمباني الخرسانية. جددوا مؤخرًا مبنى مكاتب مهجورًا، لينتقلوا من الاجتماع في الحدائق وأقبية الكنائس إلى إنشاء منشأة مكتملة في شهرين فقط.

كُتب على اللافتة على الباب الأمامي «مرحبًا بك في بيتك»، وفتحته امرأة في اللحظة التي رفعت يدي فيها لأطرق. بدت شابة مهندمة تفوح منها رائحة نظيفة كصابون الغسيل، وكشفت ابتسامتها عن غمازة بخدها الأيسر.

توقعت أن ينطوي المدخل على منسوجات ملونة معلقة على الجدران بجوار صور مؤطرة لنساء جالسات بوضعية زهرة اللوتس تضيء مواضع

الطاقة الخاصة بهن بألوانها المختلفة، في تصميم عصري. لكن ما قابلني هو جدران ردهة خاوية تمامًا، بلون بيج حيادي. قالت الشابة بصوت متقطع وكأنها ركضت للتو إلى الباب: «مرحبًا بكِ، أنا بيكا».

واءمت ثيابها لون الجدران حولها، انسابت تنورتها إلى أسفل ركبتيها، حاملة -هي والقميص- درجات مختلفة من البيج. تابعت: «لا حاجة إلى طرق الأبواب هنا، بابنا مفتوح دائمًا».

- شكرًا لكِ.

قلت وأنا أدلف للداخل.

- أنا كيت.

أومأتْ: «أعرف، كنا بانتظارك».

- شكرًا لأنك استقطعت من وقتك وقتًا لضيافتي اليوم.

- لا مشكلة.

ابتسمتُ: «هذا من دواعي سروري».

قادت أبواب مزدوجة خلف مدخل الردهة إلى غرفة فسيحة مترامية الأطراف. كل شيء بالداخل بسيط وتألقت الغرفة بالنظام والنظافة. لم أجد أيًّا من رائحة البخور أو الشموع التي توقعتها في أي مكان. بدلًا منها، امتلأ الهواء بعطر صنوبر لطيف. وكُدست عشرات الكراسي من الألومنيوم في الخلف بينما احتلت المقدمة منصة خشبية. تجاورت ثلاثة أبواب على الجدران الخارجية، وانتشرت طاولات قابلة للطي في الغرفة، بعضها تصحبه كراسي بلاستيكية بيضاء وبعضها فارغ. خلت الغرفة من أي شيء مريح أو دافئ، أو أي لمسات شخصية. لكن شيئًا ما في مظهرها ما زال مشجعًا على الدخول.

سألتُ: «ماذا يقع خلف هذه الأبواب».

أشارت إلى الأول على اليسار: «هذا يقود إلى الكافيتريا، نقدم ثلاث وجبات في اليوم لأي شخص يحضر».

أشارت إلى التالي جواره: «هذا يقود إلى غرف الاستشفاء لدينا».

- هل بوسعي رؤية إحداها؟

- بالطبع.

أجابت، ونجحتُ في إخفاء دهشتي لأنها وافقت بمثل هذه السرعة. أمضيت أغلب وقتي الليلة الماضية في تحضير ردود فعل لمقابلة عدوانية أو دفاعية توقعت أن ألاقيها ما إن أبدأ في محاولة التنقيب أكثر. هذا رائع، ابتسمت لنفسي، سيسعد ليو كثيرًا.

فتحَت الباب كاشفةً عن ممر طويل تتراص على جانبيه أبواب أخرى، طرقت الوسطى بينهم جهة اليمين، ووقفت منتظرة إجابة قبل أن تفتح الباب وتدلف للداخل، تبعتُها لأجد نفسي في مساحة ضيقة. لا تفوق مساحة دولاب التخزين جوار المدخل بشقتي، لكنها كما هو حال الغرف الأخرى، بسيطة، مرتبة ونظيفة. داخلها استقر سرير جوار أحد الجدران، وحوض مُثبت بجدار آخر. سألتُ: «كيف تساعدون الناس على الاستشفاء هنا؟».

أين كل الأجهزة الطبية؟ على الأقل هم في حاجة إلى تعويض الناس بالسوائل، أليس كذلك؟

أشارت حول الغرفة وكأنني فاتني شيء ما لتجيب: «نستشفي هنا؟».

- أتعنين العملية كلها؟ من بدايتها لنهايتها؟

سألتُ وأنا أتذكر رؤيتي لوالدتي جالسة على أرض الحمام تتلوى بألم بينما غادر سُمها المفضل جسدها. أومأت الشابة فسألت من جديد: «أليس هذا خطرًا؟».

أجابت سؤالي بسؤال وهي تبتسم: «أليست المخدرات خطرة؟».

قادتني عائدة إلى الغرفة الأساسية عبر باب على الجهة الأخرى، أمامنا امتدت متاهة من الممرات، تحدثتْ بينما مضينا وحاولتُ استراق النظرات عبر الأبواب المفتوحة لكنها مضت بسرعة حتى إنني عجزت عن التدقيق بصورة أفضل، بدأت تبطئ خطواتها حين اقتربنا من نهاية ممر على شكل حرف L لتقول: «هذه منطقة راي».

- هل يبقى في المكان مع الأعضاء التابعين له؟

حركت رأسها نفيًا: «أوه لا، التابعون لا يبيتون في حرم الاستشفاء».

تسميتها للمكان بالحرم مثير للفضول، سألتُ: «هناك فارق بين عضو وتابع؟».

- نعم.

- من هم التابعون غير راي؟ وأين هم؟

ابتسمت وأشارت إلى الممر والباب في نهايته: «تعالي».

لم يفُتني أنها لم تجب عن سؤالي، طرقَت الباب وجاء صوت ذكر من الداخل: «تفضل».

دفعَت الباب ليُفتح، ومن وسط الغرفة نهض رجل من خلف مكتب وسار نحونا، مرتديًا قميصًا بيج بلون مطابق للذي ارتدته بيكا. توقعته وسيمًا، نظرًا لأن أعين الفتيات الجامعيات كافة سرحت في النظرة الحالمة ذاتها حين تحدثن عنه. لكنه كان مذهلًا. حملت خصلات شعره سوادًا فاحمًا كانتصاف الليل، تُكلل وجهًا منحوتًا بعناية. لمعت عيناه بلون أزرق ثلجي وكشف ثغره عن ابتسامة ملتوية زادت من جاذبيته هي وأنفه المنحني قليلًا الذي أعطى وجهه منظرًا مثاليًا.

- أنا راي فيشر.

قالها وهو يمد يده ليصافح يدي: «لا بد أنكِ كيت».

- أنا هي.

قلتها وأنا أتمنى ألا تكون قبضتي متعرقة. لطالما أصابني التوتر بالتعرق. صافحني بقوة، وثقة، ثم أشار إلى الكرسي أمام مكتبه: «تفضلي بالجلوس».

أدار وجهه إلى بيكا: «شكرًا جزيلًا لكِ بيكا، هل سأراكِ على العشاء؟».

أومأت: «بالطبع».

قبل أن تستدير لي لتتابع: «سعدت بمقابلتكِ كيت، أتمنى رؤيتك مرة أخرى قريبًا».

قالتها وأغلقت الباب خلفها قبل أن تتسنى لي الفرصة للرد. أخرجت دفتر ملاحظاتي ووضعته على حجري وأنا أجلس، ومال هو من الجهة المقابلة عاقدًا يديه معًا، مريحًا ذقنه عليهما: «عمَّ ترغبين في الحديث اليوم؟».

اخترقتني نظراته، مصيبةً إياي بالشعور بأنني مكشوفة وعارية فورًا، وكأنه قادر على الرؤية مباشرة داخل روحي. أصابني هذا بالتوتر. مسحت الغرفة بنظراتي باحثة عن أي شهادات معلقة أو متعلقات شخصية قد تعطيني لمحة عن شخصيته أو منظمته، لكن الجدران انتصبت عارية كالغرف الأخرى كافة، طُليت مؤخرًا بطبقة من اللون البيج. وهذا كل شيء.

- ربما بوسعك البدء بإخباري القليل عن نفسك؟

انفجر بالضحك مجيبًا: «حقًّا؟ هذا كل ما لديك؟».

احترقت وجنتاي بالحرارة، ولم يعطني الفرصة لاستعادة رباطة جأشي قبل أن يتابع: «ماذا عن إخباري بالقليل عنك أنتِ؟».

أضاءت ابتسامته المتلاعبة وجهه، وانتظر إجابتي، فقلت: «أنا مملة».

قلبت في دفتري وكأنني أبحث عن شيء مثير للاهتمام، فقط لأتفادى النظر إليه.

- أرى أنكِ متزوجة.

لاحظ الخاتم حول إصبعي، بدا من الصعب عدم ملاحظته. تفوق سكوت على نفسه في عيد زواجنا العاشر. في البداية حين تقدم لخطبتي كان شديد الفقر حتى إنه لم يستطع تقديم شيء لي سوى خاتم فضي صغير، ولم يضايقني هذا -ما زال لا يضايقني- لكنه تسبب في ضيقه دائمًا، لذا اشترى لي الخاتم الذي أردته وقتها. أومأت وأنا لا أزال أتظاهر بأننيَ مستغرقة في ملاحظاتي، فسأل: «لكَم من الوقت؟».

لوهلة شعرت بالرغبة في الكذب لأتفادى رد الفعل، لكنني وعدت سكوت منذ عدة سنوات مضت أن أتوقف عن الكذب بشأن كم من الوقت أمضينا معًا. اعتدت الكذب لأتفادى التعليقات التي سأتلقاها إن بُحت بالحقيقة. لكن سكوت غضب حين سمعني بالمصادفة. وتشاجرنا أحد أعنف شجاراتنا، لأنه

أخذ الموضوع بصورة شخصية أكثر من اللازم، قائلًا إنه شعر بالألم لأنني محرجة من علاقتنا. لطالما فخر بأننا معًا منذ مراهقتنا، وبأن هذه هي أكثر سِمة مميزة لعلاقتنا. لم يقلها علانية في البداية، لكنه بدأ في نوبة الغضب الطفولية غير الناضجة التي يقع فيها منذ أن كان في الرابعة عشرة، ليصرخ ويتجول غاضبًا في المنزل، ناعتًا إياي بالعنيدة. استغرق الأمر حديثًا متواصلًا لأكثر من ساعتين قبل أن يخبرني ما يؤرقه فعلًا.

- نحن متزوجان منذ سبعة عشر عامًا.

قلتها، متوقعة أي رد فعل عليها. على مدار السنوات سمعت كل ما يمكن أن يقال، بعض الناس اعتقدوا أن هذا ألطف شيء على الإطلاق. آخرون سألوا لو أننا واعدنا أي أشخاص آخرين. وكأن الناس يتحدثون طوال الوقت عن تاريخ علاقاتهم مع غرباء. من وقت لآخر، صادفت من يعتقد أن الموضوع مقرف ما إن علموا أننا بتنا في بيوت بعضنا بعضًا منذ أن كنا أطفالًا.

- كيف كان هذا بالنسبة إليكِ؟

سألني راي. وتحركت بعدم راحة في الكرسي، ساحبة تنورتي نحو الأسفل أكثر: «كان رائعًا، رائعًا حقًّا. أشعر بأنني ممتنة لأنني قابلت توأم روحي وصديقي المقرب منذ أن كنت في التاسعة».

انفجر ضاحكًا مرة أخرى فانكمشت في مقعدي وأنا أسأل: «ماذا؟».

- أعتذر، بدت كلماتك كأحد إعلانات بطاقات المعايدة، لم أستطع منع نفسي.

حملت عيناه تعبيرات مستمتعة فعجزت عن منع ابتسامة من الارتسام على شفتيَّ، قلت: «الكلمات تبعث على الضحك فعلًا».

حدق إليَّ على الجهة الأخرى من مكتبه، على الرغم من أن دوره قد حان للتحدث. لم يستغرق الأمر أكثر من بضع لحظات حتى أدركت أنه رضي بالجلوس في صمت محدقين إلى بعضنا بعضًا. بعكسي أنا. نظرت من النافذة خلفه محاولة التركيز. عليَّ أن أمسك بزمام المقابلة. لا يمكنني السماح له بالتحكم بها.

- لِم أركاتا؟

رفع كفيه: «ولِم لا؟».

- كم من الوقت تمضي في المعتاد في مكان واحد؟

طريقتي المُحترِمة في السؤال عما إذا قرر البقاء هنا للأبد. في الوقت الذي امتن فيه عدد لا بأس به من الناس للخدمات التي قدموها لمجتمعنا، إلا أن عددًا آخر لم يتقبل الكيفية التي اخترقوا مجتمعنا الصغير بها. مدينة صغيرة مُنغلقة داخل صندوق تقاليدها كهذه لم تتقبل التغيير بسهولة، وبخاصة لو انطوت التغييرات على أفكار لم يألفوها، أو غرباء يساعدون الآخرين بلا مقابل كهؤلاء.

- لا نعرف أبدًا.

- ما أطول مدة أمضيتها في مكان واحد؟

- عامان.

- وأقصرها؟

- ثلاثة أيام.

ابتسم ومد يده لكومة الأوراق على جانب مكتبه، قلَّب بينها حتى وصل إلى مبتغاه أخيرًا، وسلمني منشورًا وهو يتابع: «هذه قائمة بمواعيد اجتماعاتنا، لن تفهمي ما تنطوي عليه منظمة الحب الدولي حتى تحضري أحد تلك اللقاءات. لِم لا تأتين إلى أحدها؟».

مضيت بعيني عبر الورقة متفاجئة من عدد الاجتماعات في القائمة. كل يوم ضم على الأقل ثلاثة، وأيام نهاية الأسبوع حملت عددًا هائلًا من مواعيد مختلفة لهذه الاجتماعات. وقف مشيرًا إلى أنَّ وقت مقابلتنا قد انتهى. موجهًا إياي مرة أخرى إلى الممر بالخارج: «من فضلك فكري في حضور أحد تلك الاجتماعات، أعتقد أنك ستجدينها ممتعة، وسأسعد بلقائك من جديد».

ختم كلماته وأغلق الباب بسرعة قبل أن يتسنى لي وقت للرد.

حدقت إلى الباب المغلق. لن يسعد ليو بما حدث، لم أكتشف أي شيء عن منظمة الحب الدولي، لا شيء أكثر مما كنت أعرفه بالفعل قبل المقابلة.

ربما العودة إلى العمل ليست بالسهولة التي توقعتها رغم كل شيء.

***

ثمانية

ميريدث

الآن

- أمي! لا بد أنكِ تمزحين!

قاطعته: «أخفض صوتك يا ثاد».

لم أرغب في أن ينصت أحد لمحادثتنا الهاتفية، وجدران الفندق كانت رقيقة. لم يشكِّل خروجي لأتحدث بينما أتكئ على السور في نهاية الردهة أي فارق. اعتاد الغرباء القول إن ثاد يمتلك صوت رجل بالغ محتجَز في جسد طفل صغير، وإن هذا يؤهله ليصير واعظًا عظيمًا. لكن أيًّا من أبنائي لم يمتلك هذا القدر من التدين، على الرغم من اعتيادهم الذهاب لقداس الآحاد بصورة مستمرة طوال فترة طفولتهم. فقد فقدوا عنصر الإيمان وأداروا ظهرهم للتعبد بعد أن صلوا من أجل شفاء والدهم، ليفقدوه في نهاية الأمر.

خفض ثاد صوته حد الهمس وهو يتابع: «أنتِ تفكرين حقًّا في اصطحابها إلى كاليفورنيا لتعيش معكم؟».

عجزتُ عن التصديق بدوري، والساعات الثماني والأربعون الماضية مرت كعاصفة من الأحداث. قلت: «الشرطة الفيدرالية على وشك نقل قضيتها إلى كاليفورنيا بما أن لديهم سلطة قضائية هناك، ولديهم مكان مؤمَّن يمكنها البقاء فيه».

قاطعني: «أمي!».

صرخ، غير مهتم حتى بإبقاء صوته منخفضًا: «هل تنصتين لنفسك؟ لديهم مكان مؤمَّن!».

ضغط على الكلمتين متابعًا: «لن يخصصوا لكِ مكانًا مؤمَّنًا إلا لو رأوا أنك تواجهين نوعًا من الخطر، وها أنتِ تفكرين في اصطحابها إلى منزلك!».

أجبت محاولةً أن أبدو متفائلة: «لوقت قليل فقط، حتى يتمكنوا من معرفة ما يحدث».

- وكيف يتوقعون إبقاءها آمنة وأنتم لا تعلمون حتى ماهية الخطر الذي تحاولون حمايتها منه؟

نظرت إلى ضابط الشرطة الذي عسكر خارج غرفة الفندق، الذي تظاهر بأنه لا يراقبني في أثناء إجراء المكالمة الهاتفية كلها. ما زلت غير معتادة متابعتهم لنا في كل مكان.

- سيتمركز أفراد أمن خارج المنزل، يتخذون هذه الخطوة بالفعل بينما نتحدث. حتى الآن لا يبدو أن أحدًا يعلم حتى أين نحن.

صدر عن ثاد صوت ساخر وهو يجيب: «لأنكم لستم في المنزل، سيتغير هذا في اللحظة التي تصلون فيها إلى البيت وتنتشر المعلومة، ما هي إلا مسألة وقت».

عرفت هذا دون أن ينطق به. كان هذا أحد الأسباب التي جعلتني مترددة في الانتقال للعيش مع سكوت، بسبب سمعة المنزل السيئة والمتابعين الغريبين. تلقى سكوت نصيبه من تهديدات ورسائل الكراهية، ولكن على الأقل اختفت تلك الرسائل بحلول الوقت الذي التقينا فيه. لكن، كل بضعة أشهر اعتدنا ملاحظة شخص يتجول ببطء بجوار المنزل، ويحاول التظاهر بأنه لم يلتقط صورة لمنزلنا توًّا.

قلت لثاد متابِعةً: «الوضع ليس دائمًا، فقط طوال الفترة التي يحتاجون فيها إلى استكمال التحقيق. بجانب أن سكوت لن يسمح حتى بالتفكير في

إبقائها في المكان المؤمَّن الآن. بدأ يتحدث عن فكرة إقامتها معنا في المنزل من اللحظة التي رحلنا فيها للقائها».

- وكيت؟ هل هناك فرصة أن نحظى بمعرفة رأيها بشأن هذا؟

- لا، لكن بالله عليك يا ثاد! لا يمكنك أن تتوقع منها اتخاذ أي قرارات في حالتها هذه!

لم تكن لدينا فكرة عما شعرت بشأن كل ما يحدث حولها، لم تتحدث كثيرًا منذ تفاعلها الأولي مع سكوت. على الأقل لم توجه حديثًا لنا أو في أثناء وجودنا في الغرفة. واصلت استلقاءها في فراش غرفتها في المستشفى وشايلو مضمومة إلى صدرها، تنتقل نظراتها بين جنبات الغرفة. وعلى الرغم من أن جسدها بقي مستقرًّا فإن وضعيتها بدت كمن يستعد للركض في أي لحظة. وانتفضت من مكانها مع أقل ضوضاء.

بدأ ثاد بالحديث من جديد: «لا يمكنني حتى البدء في حصر عدد الأخطاء في هذه الخطة».

بعين عقلي، استطعت رؤية أصابعه ترتفع مع كل خطأ جديد يضيفه للقائمة خاصته. لطالما كان المنطقي والعملي بين ابنيَّ. تابع: «ليس لديكم فكرة عن أين كانت وما فعلت طوال أحد عشر عامًا، لا فكرة. لا أحد يعلم لِم غادرت، ومن الواضح أنها لم تقضِ طوال تلك الأعوام وحدها».

كدت أسمع نبرة السخرية وحركة عينيه في اللحظة التي تفوه فيها بتلك الجملة: «ثم فجأة تعود لتظهر من اللامكان مع طفل، لكن ما إن تُنقَذ تتوقف عن الكلام؟ هيا يا أمي، عليك أن تعترفي أن هناك شيئًا غريبًا في كل هذا».

تنهدت: «كل شيء بخصوص هذا غريب».

- ماذا عن عائلتها؟ لِم ليسوا هنا؟ لِم لا يحتفلون بعودتها ولِم لم يأتوا لاصطحابها؟ دعيها تبقى معهم.

أجبته: «شرحت لك هذا سابقًا، كيت طفلة وحيدة، مات أبواها في حادث سيارة في أثناء مراهقتها. أغلب عائلتها البعيدة تعيش في السويد، ولم تكن قط مقربة لأيٍّ منهم، لأنهم غريبو الأطوار ومجانين».

زفر تنهيدة: «ما زلت عند رأيي، هذه فكرة بشعة».

لامتلكت الرأي ذاته لو أن الوضع معكوس، لكنني وثقت برأي سكوت، سكوت لن يفعل ما يعرِّضنا للخطر.

***

كيت

في الماضي

أسرعتُ في السير كي أصل في الوقت المحدد إلى الجلسة الثانية مع راي. ظل ليو منزعجًا بشأن الطريقة التي سارت بها الأمور من قبل، لكن انزعاجه لم يتفاقم، لأنني نجحت في القصة الكبيرة الأخرى التي كلفني بها- مدرب كرة القدم للفتيات الذي طُرد توًّا من مدرسة ميدلتون الثانوية لإرساله صورًا غير لائقة إلى فتاة في فريقه. كشفتُ عن قائمة بالجرائم السابقة التي ارتكبها قبل أي شخص آخر، وسرعان ما ذاع صيت المقالة في الأخبار الوطنية. لكن ذلك لم يعوض مدى سوء النتيجة التي سارت هذه القصة باتجاهها، وعزمت على الخروج بنتائج أفضل.

مضيت إلى الأبواب الأمامية، عابرة دون طرق الباب، وسرعان ما واصلت طريقي مارة باجتماع جارٍ، باذلة قصارى جهدي كي لا أتسبب لهم بإزعاج. أسرعت عبر صفوف الغرف حتى وصلت إلى راي في النهاية. استقر بابه مفتوحًا على مصراعيه، ونهض من خلف مكتبه عندما رآني. اندفع نحوي وألقى ذراعيه حولي قبل أن تتاح لي فرصة للاحتجاج.

- مرحبًا كيت، من الرائع أن أراكِ مجددًا.

سرعان ما ابتعد وأشار إلى الكرسي أمام مكتبه، الكرسي ذاته الذي جلست عليه سابقًا وتابع: «تفضلي بالجلوس، ودعينا نبدأ».

ترك الباب مفتوحًا خلفنا، ليغمرني شعور غريب. لا يُفترض بالباب المفتوح أن يُشعرني بهذه الطريقة لكنني أحسست أن هناك شيئًا ما خطأ.

سأل ملاحظًا توتري على الفور: «هل يشعِرك الباب المفتوح بالضيق؟».

هذه المرة عزمت على عدم ترك فرصة له ليتولى زمام الحديث فبادرت بالإجابة: «لا مشكلة لدي معه، ما دامت لا مشكلة لديك».

رفع كفيه كساحر استعراضي يُري جمهوره أنه لا يُخبِّئ شيئًا في أكمامه: «ليس لدي ما أخفيه».

- عظيم، إذن دعنا نبدأ؟

سألت، مُجرِّدةً إياه من أي فرصة ليتولى زمام الحديث، أخرجت المسجل من حقيبتي ووضعته على المكتب متابعة: «هل تمانع في أن أسجل المحادثة؟».

أومأ، موضحًا أن لا مشكلة فواصلت: «ما ردك على منتقديك الذين يعتقدون أنك تساعد الناس في الشفاء من الإدمان، فقط بغاية أن يعملوا لحسابك من دون مقابل؟».

أجفل متفاجئًا، لكنه استعاد سيطرته بسرعة بابتسامة: «أوه، أرى إلى أين تتجهين بحديثك الآن، لا، ليس لدي رد على منتقديَّ».

- ليس حتى أولئك الذين يزعمون أنكم طائفة؟

انفجر ضاحكًا: «لسنا طائفة».

سألت: «كيف تصفون أنفسكم إذن؟».

ثم أضفت بسرعة: «في جملة واحدة».

فرك ذقنه في أثناء استغراقه في التفكير قبل أن يجيب: «نحن حركة عدالة اجتماعية ملتزمة بنشر تعاليم محبة المسيح للجميع».

مال عبر المكتب: «هل لديكِ فكرة عن متَّى، المقطع الخامس والعشرون؟».

أجبت: «لا، آسفة، ليست لدي فكرة».

- متى 25، الآيات 35 و36، تلخص فلسفتنا بأكملها. قال يسوع: «لأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيبًا فَآوَيْتُمُونِي. عُرْيَانًا فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضًا فَزُرْتُمُونِي. مَحْبُوسًا فَأَتَيْتُمْ إِلَيَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ» هذه هي الطريقة التي نعيش بها حياتنا، وهي أقرب ما لدينا إلى العقيدة.

واجهت صعوبة في العثور على مشكلة في كلامه، وبدا أن القصة ليست مثيرة للاهتمام بقدر ما توقعنا أنا وليو. سألت: «إذن كيف تطبقون هذا بصورة عملية؟».

بدت كلماته كقصيدة جميلة، لكنني رغبت في معرفة كيف يطبقها في حياته اليومية. عقد ذراعيه أمامه على المكتب ليجيب: «نحن نعيش حياتنا كخدم لمبادئ المسيح».

ما زال هذا لا يوفر إجابة ذات أهمية، لا شيء يختلف عن كلمات قد أراها على منشور دعوي قبل أن ألقيه مع كومة الرسائل المهمَلة جوار الباب، حولت مسار الحديث: «وهل امتلكت دائمًا شغفًا لمساعدة الناس؟».

- بالتأكيد لا، ما قادني إلى هذا سوى مصادفة بحتة وترتيبات القدر.

قضيت الساعة التالية أستمع إليه وهو يصف كيف نشأ في فقر مدقع في مزرعة صغيرة في ريف نيوجيرسي. بدأ العمل في التاسعة من عمره ولم يتوقف قط، أصبح وسيطًا ناجحًا في البورصة عندما صار بالغًا. وصف كيف واصل حياة الحلم الأمريكي إلى أن بدأ في أحد الأيام في أثناء عودته إلى منزله يتساءل عن مدى سعادته. دفعه هذا إلى البحث عن معنى أكبر. بدا الأمر مبتذلًا بعض الشيء بالنسبة لي، وتشتتت أفكاري عندما واصل شرح كيف تبرع بأمواله لمختلف الجمعيات الخيرية. كيف بدأ بإعطاء الممتلكات للمشرَّدين في الشوارع وانتهى بالسماح للعائلات من ملاجئ العنف المنزلي بالانتقال إلى المنازل الثلاثة التي يملكها في أنحاء متفرقة من البلاد.

قال بعد أن انتهى من روايته: «ولم أنظر إلى الخلف قط».

- ولا لمرة واحدة؟

حرك رأسه نفيًا: «امتلكت دائمًا قدرًا من الاضطراب والفراغ في روحي. قضيت حياتي أتجاهله وأتظاهر بأنه غير موجود. لم تنزع طريقة الحياة هذه تلك المشاعر فحسب، بل سمحت لي بالتوقف عن الحياة داخل الكذبة والعيش حقًّا. أعظم الثروات في العالم لم تعطِني ذلك قط».

بذلت قصارى جهدي للحفاظ على وجهي مستقيمًا والامتناع عن إظهار انزعاجي. الوحيدون الذين اشتكوا من امتلاك كل أنواع الثروات والمعاناة مع عدم الشعور بالسعادة هم الأشخاص الذين يملكون هذا القدر من الثروات بالفعل. أحد الأسباب التي جعلتني غاية في السعادة بالعودة إلى العمل هو أنني وسكوت تمكنا من التوقف عن الاقتتال بشأن المال. جادلنا بخصوص المال منذ ولادة آبي، على الرغم من أننا لم نتشاجر مطلقًا قبلًا بشأن مواردنا المالية. تغير كل ذلك عندما صرنا عائلة ذات مصدر دخل واحد تقريبًا، لكن سكوت رفض الاعتراف بأن هذا هو السبب وراء معاناتنا الشديدة. كانت ضربة كبيرة لكبريائه لأنه لم يتمكن من دعمنا بدخله وحده، بالطريقة التي اعتدناها سابقًا.

اقتلعني صوت راي من دُوار أفكاري: «بدأت أصيبك بالملل، أليس كذلك؟».

أجبت: «بالتأكيد لا».

كوني مراسلة يعني أنني تعلمت فن التظاهر بالاهتمام والتظاهر بالاستماع عندما لم أهتم كثيرًا، وسرعان ما فقدت اهتمامي بقصة راي. لم يختلف الأمر عن الكثير من القادة الروحيين الآخرين الذين نصبوا أنفسهم مرشدين في جميع أنحاء كاليفورنيا. أشرت إلى جدران الغرفة حولنا، والمنشأة المحيطة بنا: «من دفع تكاليف كل هذه؟».

أجاب: «يتبرع الناس بسخاء لنقاء قلوبهم على الدوام، والله يرزق دائمًا».

في الغد، سأجري مقابلة مع أبوين لشاب في التاسعة عشرة، يدعى شون. أحد أول الشُّبان الذين ساعدتهم المنظمة للإقلاع عن التعاطي. وأحد أول من انضم إلى حركتهم. قدَّم الأبوان منحة لمنظمة الحب الدولية قبل ثلاثة أسابيع

قدرها مائتا ألف دولار. ما قيل هو إنهما فعلاها ليظهِرا دعمهما للحركة ولإبقاء سقف فوق رأس ابنهما في أثناء بقائه معهم.

- هل سمعتِ ما يكفي؟

قالها مفاجئًا إياي حقًّا هذه المرة. سألت: «ماذا تعني؟».

ابتسم: «هيا يا كيت، يمكنني أن أرى بوضوح أنني أثير مللك حد الموت».

حركت رأسي نفيًا: «بالتأكيد لا، أجد كل ما تقول مثيرًا للاهتمام».

تمنيت أن أبدو مقنِعة لكنه قال فجأة: «أنت لا تكذبين على زوجك بالطريقة ذاتها، أليس كذلك؟».

انتصبتُ في كرسيي: «معذرة!».

- أنا أعتذر، لم أقصد الضغط على أي وتر حساس.

- أنت لم تضغط على وتر حساس!

صحت، فأمال رأسه ناظرًا إليَّ بفضول: «لم أفعل؟».

ثم تابع: «من موقعي هذا، بدا لي أنني فعلت».

هل تحدث بهذه الطريقة مع الجميع؟ أم يعزي الأمر لكوني امرأة؟ قلت: «لست كاذبة».

أجاب معارضًا كلماتي: «كلنا كاذبون».

بدت كلماته مماثلة بطريقة غريبة لكلمات أساتذة الفلسفة في جامعتي. سألت: «ما الذي تكذب بشأنه؟».

ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه لتضيء وجهه بالكامل: «الآن بدأنا نصل إلى مبتغانا».

***

كان هذا هو الاجتماع الثاني الذي أحضره في المركز، وشعرت براحة أكبر هذه المرة على الرغم من أنني لا أزال أشعر بالانزعاج لأن سكوت رفض الحضور. حين سألته قال: «أنتِ تعرفين كيف أشعر حيال التجمعات الدينية».

لكن هذه ليست الفكرة. التجمعات الدينية ليست شغفي أنا الأخرى، لم يصطحبني أبواي إلى الكنيسة حتى في الأعياد. فقط اعتقدت أن هذا سيكون شيئًا مختلفًا مثيرًا للاهتمام، نشاطًا يمكنني أنا وسكوت المشاركة فيه. لكنه لم يهتم، وأحيانًا تساءلت لِم بقيت أحاول حتى، لطالما كان سكوت شخصًا محبًّا للروتين.

سكبت لنفسي فنجانًا من القهوة وأخذت قطعتين من بسكويت السكر من الطبق قبل أن أجلس على أحد الكراسي المصنوعة من الألومنيوم. عندما كنت طفلة، أحببت مدى اهتمام سكوت بالروتين، لأنه وضع اختلفَ تمامًا عن الفوضى التي تندلع باستمرار في منزلي. نظامه أسَّس لي قواعد أساسية. ساعدني على الاحتفاظ بعقلي عبر كل تلك السنوات الصعبة، وبخاصة بعد وفاة والديَّ، لكن في الآونة الأخيرة شعرت بالاختناق، ولم أعرف ماذا أفعل حيال ذلك. كان الذنب ينخر في داخلي، كما هو الحال كلما سمحت لتلك الأفكار بالتسلل إلى عقلي، أنا محظوظة لأنني أمتلك سكوت، وهذا هو الحال فقط.

أجبرت نفسي على الانتباه لما يحدث حولي. سيكون الاجتماع بمنزلة إلهاء مرحَّب به.

رُتبت الكراسي الألومنيوم على هيئة دائرة هذه الليلة، في المرة الأخيرة التي حضرت فيها في هذه الغرفة وُجِّهت باتجاه المنصة من أجل المحاضرة. لا يمكنك حضور أيٍّ من الفصول، المحاضرات، أو الخلوات قبل أن تنتهي من حضور المحاضرات التعريفية.

لم يُسمح لك بولوج المبنى إلا إذا كنت مسجلًا، وارتدى الجميع أسماءهم مربوطة بحبل حول أعناقهم طوال الوقت بالداخل، حتى لا يشك أحد بهويتك.

لم يكن هناك أي رجال أمن بصورة رسمية، لكن من الصعب عدم ملاحظة الرجال ذوي الأجساد الضخمة الذين بدا مظهرهم كالحراس، الذين واصلوا تجوالهم في الممرات، مختلسين النظر داخل القاعات الدراسية. اضطروا إلى

التشديد على سياسة الباب المفتوح دائمًا بعد أن بدؤوا في تلقي تهديدات بالقتل من شخص ما في البلدة.

حين سمع سكوت بتلك التهديدات في الأخبار قال: «لست واثقًا من أنني أرغب في أن تعودي إلى هناك».

ورفضت الاستماع له، غير راغبة حتى في التفكير في خيار عدم عودتي إلى حرمهم. لم تحمل أيٌّ من التهديدات خطرًا حقيقيًّا، كلها مجرد كلام.

- هذه التهديدات مجرد اعتراضات من مجتمع ينطوي على أشخاص ذوي عقل صغير غير قابلين للتغير، الذين يحاولون جاهدين معارضة أي شيء لا يقع داخل نطاق أفكارهم الروتينية.

حينها، أمسك بخصري وجذبني إليه لتقبيلي قائلًا: «أحبك حين تتحدثين معي بتلك الطريقة الفلسفية».

لم أمتلك الشجاعة حينها لأخبره بأنني أحيانًا شعرت وكأنني أصفه هو، رغم أن كلينا نشأ في المدينة الصغيرة ذاتها في إلينوي-كاسل روك، في مجتمع ينطوي على ثلاثة آلاف فرد فقط. أمضيت طفولتي شاعرة بأنني لا أنتمي إلى هناك، مخطِّطة للهرب. تظاهر سكوت بأنه يكره المكان مثلي، لكنه لولا إصراري على الانتقال إلى شيكاغو بعد التخرج، لسعد بالعودة إلى هناك.

أخرجت جهازي اللوحي من حقيبتي في اللحظة التي توقفت شاحنة فيها في المقدمة وخرجت منها مجموعة من المراهقين. بدوا مثل الطاقم الذي تجول في المدينة لجمع التبرعات من منازل الناس، وأولئك المنبوذين مرتادي متاجر البضائع المستعملة. كانت هناك أطقم مختلفة مسؤولة عن إتمام المهام في جميع أنحاء المجتمع، وتوجب على الجميع اختيار طاقمهم بناءً على الأشخاص الذين يريدون خدمتهم والطريقة التي يودون اتباعها لأداء الخدمة. الجميع قام بدوره. هكذا سارت الأمور.

سألت راي قبلًا في أحد لقاءاتنا: «إذن من ينظِّف الحمامات؟».

وأجاب ردًّا على سؤالي: «سيثير هذا دهشتك، ولكن دائمًا ما يختار شخص ما مهمة الحمام. هذه ليست حتى الأسوأ. يتعين على شخص ما تنظيف وعاء

الشحوم الموجود أسفل الموقد الصناعي في مطبخنا. تخيلي كم هذا مثير للاشمئزاز، لكن الناس يفعلون ذلك، والعديد منهم يفعلونها بابتسامة تعلو وجوههم».

التقينا أربع مرات بالفعل، وبدأت أحب محادثاتنا. بإمكانك إدمان شخصيته، واعتدت الخروج من اللقاء معه شاعرة بالخدر وكأنني تناولت توًّا كأسين من النبيذ.

تدفق الشباب اليافعون عبر الغرف، مصابين بحروق الشمس، ومتسخين، ومتعَبين، ولكن وجوههم مُشرقة بابتسامة. بدا بعضهم صغارًا حقًّا. وشعرت بحاجتنا إلى إشراك آبي في الخدمة. كانت تبلغ من العمر ما يكفي لفعل شيء ما. سجلت في ذهني ملحوظة للتحدث مع سكوت حول هذا الموضوع عندما أصل إلى المنزل.

امتلأت غرفتنا بسرعة بالناس، ولم يمضِ وقت طويل حتى امتلأت المقاعد. ارتدى التابعون زيهم البيج، مما ميزهم عن الآخرين. بينما ارتدت النساء التنانير حتى الكاحلين، وارتدى الرجال السراويل الكاكي، تعلوها قمصان بسيطة متطابقة للجنسين، ارتدى الآخرون ثياب الخروج العادية مثلي.

في إحدى المرات أرسلت رسالة إلكترونية لراي أسأله: «لِم اللون البيج؟».

لسبب ما وبطريقة أثارت تعجبي جاءت ردوده على بريده الإلكتروني سريعة، بل واعتدت أن تصل إليَّ ردوده قبل مضي أربع وعشرين ساعة، رغم أنه ادَّعى أنهم تفادوا استخدام التكنولوجيا إلا إذا اضطرتهم الحاجة.

أوضح أن أحد معتقداتهم الأساسية هو القضاء على جميع عوامل التشتيت وتجنب أي حافز قد يخلق تجربة روحية مصطنعة. كان عليَّ أن أعترف أن هناك شيئًا مهدئًا في طبيعة ذلك اللون. شيء من العدم هدَّأ ذهني.

تحققت للتأكد من أن هاتفي مغلق للمرة الثالثة، لأنهم امتلكوا قواعد صارمة بخصوص الهواتف. لم يُسمح لك باصطحاب هاتفك في أي تجمعات، وسيُطلب منك المغادرة إذا رن الهاتف في اجتماع أو جلسة. ما زلت غير معتادة حمل هذا الشيء الغبي. من أراد أن يتمكن الناس من التواصل معك

طوال الوقت؟ بالتأكيد لست أنا، لكن سكوت أصر على ذلك، ولم يكن الأمر يستحق الجدال.

انغلق الباب وهدأت الأصوات كافة فورًا، بدأ أحد الرجال في الطرف البعيد من الدائرة في الحديث: «مرحبًا بكم جميعًا، أُدعى سول، وأنا سعيد بحضوركم جميعًا الليلة».

امتلك بلا أي شك تلك الهالة الخاصة بالمنضمين حديثًا.

- قبل أن نبدأ، دعونا نحظى ببضع دقائق من الصمت، لنُرسِّخ وجودنا في هذه اللحظة، عبر التنفس بعمق.

أغمض عينيه، متنفسًا بعمق، تاركًا زفيره يخرج بطريقة درامية قبل أن يفتح عينيه من جديد: «هاك، حسنًا، دعونا نبدأ».

مسحت عيناه الغرفة.

- هل يحضر أحد للمرة الأولى اليوم؟

ارتفعت بعض الأيدي المترددة عبر الغرفة، وشعرت بالسعادة لأن هذا السؤال لم يُسأل في المرة الأولى التي حضرت فيها هنا، لأن آخر ما رغبت فيه هو تمييز وجودي، رغبت في الاندماج مع الحضور. قال سول: «سواء هذا هو اجتماعك الأول أو الأخير، آمل أن تستفيد شيئًا من وقتنا معًا يمكنك استخدامه لمساعدتك خلال أسبوعك. تذكر، عندما تغير نفسك، فإنك تغير العالم من حولك».

ردد بصحبته أولئك الذين استطاعوا إكمال جملته: «تغيير نفسك، تغيير العالم حولك».

عن يمينه جلس مجموعة من الأشخاص الذين لم يبدُ أيٌّ منهم في حالة جيدة. استلقى اثنان منهم على جانبيهما على كرسيهما، وأرجلهما ملتصقة بصدريهما. تجتمع حبات العرق على جبين المرأة الشقراء لتسيل، بينما يرتجف الرجل جوارها ويئن كل بضع ثوانٍ. لم أعلم أن أولئك الذين هم في مرحلة التخلص من سموم الإدمان سُمح لهم بحضور الاجتماعات. اعتقدت

أنه عليك أن تتعافى بالكامل أولًا، لكنهم كانوا هناك، يتعرقون بشدة. وزُوِّد كل واحد منهم بدلو عند قدميه. لن يتقيؤوا فعليًّا في الاجتماع، أليس كذلك؟

ثم هناك آخرون مثلي، جلسوا بتعبيرات خاوية تشابه فراغ الجدران. ماذا يفعلون هنا؟ هل هم جدد؟ قدماء؟ يحاولون أن يصيروا أعضاء؟ توقعت حضور الآخرين، لكنني لم أتوقع هذا العدد الكبير من الأشخاص ذوي المظهر الطبيعي. لدى معظمهم وظائف أيضًا. وظائف حقيقية في المجتمع.

تحدثت بالأمس مع محامين وأحد المهندسين الكيميائيين في شركة «سمنر». حضروا دروسًا واجتماعات لعدة أشهر مضت، ومؤخرًا بدأت عائلاتهم تأتي بصحبتهم وأحبوا الحضور هنا هم الآخرون. عليَّ تذكر أن أطلب منهم التوقيع على إذن بالنشر اليوم. ليو سيقتلني إذا لم أفعل. أراد استخدام أحد تصريحات المحامين أمس. ماذا قال؟

أوه نعم.

«نحن مجتمع يغذي كلٌّ منه روح الآخر».

عبارة عظيمة، عجزت عن معارضتها، لكنها لن تفيد ما لم يصرح لي باستخدامها. على الأرجح سيفعل، أغلب الناس أحبوا رؤية أسمائهم منشورة. سعل أحد الجالسين جواري، رجل بوجه مغطى بالوشوم. بدا مستاء، وكأنه أمضى بعض الوقت محاولًا الحصول على انتباهي، سلمني مجموعة من الأوراق وقال: «خذي واحدة ومرِّري الباقي للآخرين».

لا يبدو أن الجميع ودودون ومهذبون رغم كل شيء، بدأت بأخذ واحدة لأكتشف أنها مجموعة من الأوراق مثبتة معًا بدبابيس، أخذت خاصتي ومررت الباقي، ووضعتها على دفتر ملحوظاتي. ثم بدأت بقراءة المقدمة.

«هل تشعر بالسعادة؟».

تسعة

آبي

الآن

أسرعت أمي إلى السيارة، وهي تحني رأسها وتحاول إبقاء شايلو مغطاة ببطانية في حالة تسللت أي وسيلة إعلامية إلى المدخل الخاص في الجزء الخلفي من المستشفى. فتحتُ الباب الخلفي وقفزتُ إلى الداخل، بينما تبعتني ضامةً شايلو إلى صدرها. أسرع أبي خلفها وأشار إلى مقعد السيارة الذي اشتراه الليلة الماضية.

- هل تتذكرين كيفية استخدامهم؟

تصرفتْ وكأنها لم تسمعه، كانت تتصرف على ذلك النحو الذي يبدو وكأنها ذهبت بذهنها بعيدًا إلى مكان ما حتى لم تعد قادرة على سماعك ولا تعرف حتى ما يدور حولها. في الأمس، أخطأت إحدى الممرضات في تحديد مكان وريدها في أثناء تركيب المحلول الوريدي، مما أدى إلى تدفق الدم من ذراع أمي، لكنها لم تجفل حتى.

قال أبي بلطف: «كيت، عليكِ وضع الطفلة في مقعد الأطفال في السيارة».

ثم تابع: «هيا دعيني أساعدك، يصعب تركيب هذه الأشياء دائمًا، هل تتذكرين كيف أصابتك بالإحباط حين حاولتِ وضع آبي فيها؟».

تحرك تجاهها لكنها قفزت فجأة للخلف، ناظرة إلى المقعد وكأنه على وشك مهاجمة شايلو. تحركت كيفما اتفق للجهة الأخرى متفادية المقعد في المنتصف، مما دفعها للطم رأسها بالسقف. ارتج جسدها بالكامل، وتحركت شايلو بين ذراعيها. حبستُ أنفاسي متمنية ألا تكون استيقظت. حاولنا دفعها لتغفو لأطول وقت ممكن، لم يرغب أي منا في التعامل مع طفلة صارخة في السيارة.

نظر أبي إلى أمي مدهوشًا من رد فعلها تجاه مقعد الأطفال، لكن الأمر لم يتعلق بالمقعد، تعلق بترك شايلو، وأمي لم تتركها من بين يديها قط، حتى وهي نائمة. سلمتها للممرضات رغمًا عنها لأنها اضطرت إلى فعلها، لكنني رأيت التعبيرات على وجهها في كل مرة اضطرت فيها إلى تركها.

تحركتُ للجهة الأخرى من السيارة وفتحتُ الباب لأسحب حزام الأمان حول أمي وشايلو: «أنا واثقة أن لا مشكلة هناك، في زمن ما اعتاد الناس القيادة دون كرسي أطفال ونجا الجميع».

اجتاح الارتياح جسد أبي وتحرك إلى مقعد السائق ليجلس جوار ميريدث، أصر على القيادة هذه المرة. على الأقل شعرت بأن هذا الجزء طبيعي. دلفت إلى السيارة وأخذت مكاني جوار أمي.

شكرتني بهدوء: «شكرًا لك».

- عفوًا؟

حاولت النظر إليها دون النظر إلى عينيها مباشرة، لأنني كلما فعلت تبدأ في البكاء. لم أر في حياتي شخصًا يبدو مهزومًا وحزينًا بهذه الطريقة، وكأن الحزن حفر كل أخدود وخط في وجهها. بدت على الدوام وكأنها مستعدة للقفز خارج جسدها نفسه، تساءلتُ إن اختبروا دمها للتأكد من أنها لم تتعاطَ أي نوع من المخدرات.

المخدرات أحد الاحتمالات التي ناقشناها على الدوام في المنتدى الخاص بالمفقودين. عثرتُ على الموقع وأنا في المدرسة الإعدادية، ووجدته ممتلئًا

بحالات اختفى فيها أفراد -مثل أمي- فجأة وكأنهم تبخروا في الهواء، بلا علامة على وجود جريمة أو أي شيء خطأ. اختفوا هكذا فقط. مثلها.

ضم الموقع مئات المواضيع، وأحيانًا تصفحتها لقراءة قصص الآخرين، لكن في الغالب ركزت على أمي. كُوِّن نادي معجبين ضخم ضم الأشخاص الذين كرسوا جهودهم لحل قضيتها. احتقرهم أبي جميعًا، وقال إنهم جميعًا دجالون، لكني أحببت منشوراتهم. عرفوها حقًّا. اكتشفوا أشياء عنها لم يخبرني بها أبي، مثل كيف أنها ارتكبت جنحة سرقة متجر عندما كانت في العشرين من عمرها، أو أنها كادت أن تتأخر لتعيد الصف الدراسي العاشر، لأنها فشلت في اجتياز مادة الجبر المتقدم.

تساءلت دومًا لِم كنت سيئة في الرياضيات رغم أن أبي جيد جدًّا فيها، ويأمل سرًّا أنها صفة ورثتها منه، لما عرفت قط لو لم أجد الموقع.

أعطاني الأعضاء وجهات نظر جديدة وسلكوا طرقًا لم يكن أبي مستعدًّا للمضي فيها. البعض أجمع على أنها تورطت في علاقة غرامية وهربت لتُكمل حياتها مع حبيبها، ولهذا السبب شعر أبي بتلك الطريقة التي شعر بها تجاههم. رجحت أنه سيُفضل فكرة أن كائنات فضائية اختطفتها عوضًا عن تورطها في علاقة غرامية. أصر على أنها سعيدة وأن زواجهما كان مستقرًّا وأن الحياة مضت بصورة جيدة. كرر الكلمات نفسها دائمًا كلما استجوبوه. قصته لم تتزعزع قط. أشفق عليه معظم الناس واعتبروا إيمانه بسعادتها يُعَد الدليل الرئيسي الذي يثبت أنها كانت في علاقة غرامية، لأنه لا أحد صدق أن أي شخص يمكن أن يشعر بمثل هذا القدر من السعادة، بصحبة شريك أمضى كل هذه الفترة متزوجًا به.

أطلقت شايلو أنينًا، لترفع أمي قميصها وتلقمها صدرها. لم ترتدِ حمالة صدر. حاولت ألا أخجل أو أتصرف بإحراج، لكن الأمر كان صعبًا. لم يسبق لي أن رأيت صدر امرأة مكشوفًا هكذا، مكشوفًا إلى هذا الحد. المرة الوحيدة التي رأيت فيها نساء أخريات عاريات كانت في غرف تبديل الملابس، وحتى في ذلك الوقت حاول الجميع تغطية أنفسهن. لا يعني ذلك أنني ضد الرضاعة

الطبيعية، فهي الأفضل للطفل بالطبع والجميع يعرف ذلك، لكن الوضع غريب.

مدت يدها وأمسكت بيدي في أثناء إرضاع شايلو، لتجعل غرابة الوضع تتفاقم. نحن الثلاثة متصلون في هذه اللحظة الحميمة في المقعد الخلفي للسيارة. هل هذا غريب بقدر ما شعرت؟ حاولت أن ألقي نظرة على انعكاس أبي في المرآة الخلفية، لكنه ركز أكثر من اللازم على القيادة. على الأقل سيجد ما يفعله خلال الساعات الأربع عشرة الممتدة أمامنا. تمنيت لو أنه ركَّب أجهزة تلفزيون في الجزء الخلفي من المقاعد مثلما فعل والد ميغان. على الأقل حينها سيتاح لدينا ما نراقبه. كان هاتفي عديم الفائدة، لأنني أصاب بدوار السيارة إذا قرأت في السيارة. كرهت الصمت المُكلل بالحرج، وحتى الآن هذا هو الوضع في أثناء بقائنا نحن الخمسة معًا في المكان ذاته.

وعد أبي بأن الأمور ستصبح أسهل بعد عودتنا إلى المنزل، مقتنعًا بأن البيئة المألوفة ستساعد أمي على الشعور بالأمان، لكن هذا هو الأمر- لم يعد منزلنا مألوفًا بعد الآن. قبل ثلاثة أعوام؟ نعم، لاستطاعت دخول المنزل ليبدو أمام عينيها وكأنها لم تغادر قط، لأننا احتفظنا بمنزلنا باعتباره مزارًا لها. لكن ميريدث غيرت الأوضاع بشكل جذري. المنزل لم يعد لها بعد الآن.

ماذا لو زاد البقاء في المنزل صدمتها؟ حاولت أن أخبر المحققين عن خوفي، لكن لم يكن أيٌّ منهم مهتمًا بما أقوله. سأشعر بالسعادة عندما نعود إلى المنزل ويعود دين جزءًا من القضية. كان خارج البلاد يعتني بقضية أخرى لكنه من المتوقع أن يعود إلى وطنه ليلتقينا غدًا.

دين هو المحقق الرئيسي في قضية أمي من مكتب التحقيقات الفيدرالي. مكث في منزلنا خلال الأسابيع التي تلت اختفاء أمي، وعمل معنا لفترة طويلة حتى صار كفرد في العائلة. حتى دعوتُه مازحة بـ«عمي» أحيانًا. على الأقل يعرف كيف يبتسم. على عكس ماركوس الذي ظل خانقًا ومتوترًا للغاية، مما دفعني لأشعر بالتوتر دون ارتكاب أي خطأ حتى. لا عجب أن أمي امتنعت عن الكلام.

رن هاتفي، وأجفلت أمي لتئن جواري. فركت ظهرها بيدي الأخرى. تدفقت الدموع على خديها. أردت مساعدتها لكني لم أعرف كيف، ويبدو أن الوقت الذي قضته في المستشفى لم يساهم بالكثير في تحسين حالتها. أشارت جميع فحوصات الدم بأنها تعود ببطء إلى وضعها الطبيعي، وتوقع أطباؤها أن يستمر تحسنها، لكنها ما زالت تبدو خائفة طوال الوقت، وكلما دفعوها إلى التحدث، امتنعت عن الكلام أكثر. بدا الأمر كما لو أنها لا تعرف كيف تعيش بعيدًا عن المكان الذي كانت فيه.

سيحضِر دين شخصًا متخصصًا في مساعدة الأشخاص في وضع أمي على الحديث. تمنيت أن يتمكنوا من مساعدتها، لأنني كرهت رؤيتها بهذه الطريقة ولم أكن واثقة مثل أبي من أن العودة إلى المنزل ستحسن الأمور.

***

عشرة

ميريدث

الآن

أسرعتُ عبر المنزل محاولة إصلاح الفوضى التي أحدثناها قبل مغادرتنا. تركنا كل شيء في حالة من الفوضى لأننا رحلنا بسرعة كبيرة. ونحن بالتأكيد لم نكن مستعدين لاستقبال ضيوف. امتلأت غرفة الضيوف بالأشياء التي أردنا بيعها في مزاد بالمرأب الخاص بنا، لكنها بقيت مكدسة في الزاوية طوال العامين الماضيين. بينما حملها سكوت الآن إلى المرأب عملتُ على ترتيب السرير. تركت آبي وكيت تجلسان بصورة غريبة على الأريكة بجانب بعضهما بعضًا في الطابق السفلي. بدأت كيت في البكاء في كل مرة حاولت فيها التحدث إلى آبي تقريبًا، وشعرتُ بالألم لمشاهدتها على هذا الحال.

أين وضعت الوسائد الجديدة التي اشتريتها قبل بضعة أشهر؟ حصلت على اثنتين في أثناء موسم الخصومات في متجر تارجت. أين كانوا؟ شعرت بأنني مشتتة. لم يحصل أيٌّ منا على أي قدر من النوم منذ الأمس. أصر سكوت على القيادة طوال الليل، مقتنعًا بأن الوصول إلى كاليفورنيا والعودة إلى المنزل هو المفتاح لجعل كيت مستقرة. لم يتوصل ماركوس والضباط الآخرون معها إلى أي نتيجة خلال الأيام الثلاثة الأخيرة التي قضيناها في مونتانا. شخَّص الأطباء حالتها باضطراب ما بعد الصدمة الحاد مع الاكتئاب.

عنى هذا بصورة أساسية أنها تأرجحت بين نوبات من الانزعاج، إلى نوبات من الخوف والبكاء بصورة لا تُطاق. صار الهدف هو مساعدتها على الشعور بالأمان عن طريق إحاطتها بأشياء مألوفة.

لكنني لم أعرف كيف كان من المفترض أن يشعر أيٌّ منا بالأمان في وجود سيارتَي شرطة بلا علامات أمام منزلنا، وفي أثناء ما نصب فريق من عملاء وضباط مكتب التحقيقات الفيدرالي مكتبهم في غرفة الطعام لدينا. هل يخططون للبقاء مستيقظين طوال الليل؟ لو لم يفعلوا فأين سينامون؟

تخليت عن مهمة العثور على الوسائد المفقودة وتوجهت إلى غرفة نومنا للحصول على الوسائد الإضافية في خزانة ملابسي بدلًا من ذلك. تغيرت غرفة النوم الرئيسية مثل بقية المنزل. لم أرغب في محو كيت من المنزل، لكن لم يكن من الممكن أن أذهب إلى النوم كل ليلة لتقابلني الصورة المؤطرة لها مع سكوت وهما يتبادلان الخواتم في يوم زفافهما وهما يحدقان إليَّ، أو لتواجهني الصورة الموضوعة فوق خزانة الملابس. مع جسد كيت العاري الممتلئ في أثناء الحمل وسكوت خلفها وذراعاه تحيطان بها. هذه الصور هي أول ما أُزيل، لتتبعها بقية صور زفافهم الاحترافية المنتشرة في جميع أنحاء المنزل. أخليت خزانة ملابسها بعد ذلك لأنني احتجت إلى مكان لملابسي. جمعنا أغراضها في صناديق من القماش مبطنة، تمامًا كما ملأنا نعشها بالكمان الخاص بها ورسائلها وصورها عندما دفناها. نُقل كل هذا إلى المرأب ولم نقترب منهم منذ سنوات.

تبع ذلك التغيير تغيرات أخرى، حدَّثنا المطبخ فورًا تقريبًا بعد انتقالي إلى المنزل. خططوا للقيام بذلك قبل اختفاء كيت أصلًا لذا بحلول الوقت الذي جئت فيه صار في حاجة ماسة إلى التغيير. أقنعت سكوت بتفكيك كل شيء، وحصلت على مطبخ أحلامي. ولكن ماذا ستفكر كيت في ذلك؟ بتصميمه البعيد كل البعد عن مطبخها التقليدي المصمم على الطراز الكلاسيكي؟

راقبناها جميعًا عندما دخلنا من الباب الأمامي على الرغم من أننا حاولنا التظاهر بأننا لم نفعل؛ على الأقل آبي وأنا. التصقت نظرات سكوت بها. لم يكلف نفسه عناء إخفاء حماسته لرد فعلها على منزلهم. امتلأت عيناه بيأس

واضح بسبب رغبته في حدوث شيء ما يعيدها إلى الحياة، وكذلك بدا الألم الذي أعقب ذلك واضحًا، عندما تفاعلت مع الأمر كما تفعل مع كل شيء آخر من حولها – برعب تام.

شعرت بالسعادة من العودة إلى المنزل والخروج من السيارة. لم أستطع تحمل لحظة صمت أخرى. لم يتحدث سكوت كثيرًا في أثناء رحلات القيادة لذا عوضنا الصمت بالاستماع إلى الموسيقى أو الكتب الصوتية. لكنه قال إن شيئًا ما قد يثير كيت، ولم نكن مستعدين للتعامل معها إذا تعرضت لنوبة في السيارة. ماذا يعني ذلك حتى؟ وإذا لم نتمكن من التعامل مع نوباتها في السيارة، فكيف سنتعامل معها في المنزل؟ ظل أطباؤها النفسيون يشيرون إلى النوبات تلك، لكنهم لم يتحدثوا بصراحة عمَّا يعنيه ذلك، وحتى الآن لم أرَ أيًّا منها. هل شكَّلت خطرًا؟ أكد لي سكوت أنها ليست كذلك، ولكن إلى أي درجة كان يعرفها حقًّا؟

عودة كيت إلى المنزل غيرت كل شيء بالطبع. لكنها على الأخص غيرت وجهة نظري بالكامل عنها كشخص أيضًا. تيقنت سابقًا من أنها ميتة. لم يصدق أي جزء مني أنها على قيد الحياة، بغض النظر عما قاله سكوت عنها أو ما يشعر به. أبدًا. رأيته فقط كرجل حزين يرفض قبول وفاة زوجته منذ اللحظة الأولى التي شارك فيها قصته مع المجموعة. ومع ذلك، لم أخبره بهذا قط، لأن ذلك سيؤذيه، ومع مضي الوقت صار ذلك إحدى الصفات التي جذبتني إليه. لم يسبق لي أن رأيت رجلًا يحب امرأة بشكل كامل حتى بعد فترة طويلة من رحيلها. لم يحبني جيمس بهذه الطريقة، ولم ينظر إليَّ قط بالطريقة التي بدت في عينَي سكوت عندما تفوه باسم كيت.

كيف كانت على قيد الحياة كل هذا الوقت؟ شاركت يقين سكوت في حبها وإخلاصها، لكن هل من الممكن أنه كان مخطئًا؟ ربما هناك شخص آخر. ماذا لو ذهبت عن طيب خاطر؟

لا تكوني سخيفة، حذرت نفسي.

نادى سكوت من الطابق السفلي مقاطعًا أفكاري: «ميريدث؟ أين وضعتِ البطاريات الإضافية؟».

أسرعت إلى الطابق السفلي لإحضارها بنفسي، لأن هذا أسهل من محاولة توجيهه إليها. بحثت في الجزء الخلفي من درج الخزين في خزانة الشراشف حتى وجدتها. وضعها في المصباح اليدوي وسلمه لي: «أعطيه لها كي تتمكن من إيجاد طريقها عبر المنزل في الليل لو احتاجت».

قالها وتابع: «سأحضر علبة من اللمبات الليلية غدًا للطرقة والحمام، لكن الوقت تأخر على الذهاب لشرائهم الآن ولا بد أن المحلات أغلقت أبوابها بالفعل».

وجدت كلًّا من آبي وكيت في مكانهما ذاته في غرفة المعيشة حيث تركتهما، وانشغلت آبي بدغدغة قدم شايلو الصغيرة الظاهرة من أسفل بطانيتها الصفراء.

- أصابعها صغيرة للغاية.

قالتها آبي، وشعرها الأسود المتموج مجموع على هيئة ذيل حصان أسفل قبعة البيسبول التي اعتمرتها طوال هذه الأيام السابقة. تابعت آبي: «لم أر سابقًا شيئًا بهذا الصِّغر».

ابتسمت كيت مترددة، غير واثقة. سعلتُ لأعلن وجودي قبل أن تتفاجأ بمجيئي، مُسجلةً في عقلي حاجتي إلى أن أفتعل أي ضوضاء على الدوام قبل دخول أي غرفة، لأنها أجفلت بسهولة. قلت: «آبي، لِم لا تذهبين لغسل أسنانك وتستعدين للنوم؟ سأُري كيت غرفة الضيوف والحمام بالأعلى».

فور أن قلتها شعرت بالغباء، بالطبع تعرف كيت مكان الغرف. لكنها نهضت وتبعتني في صمت للأعلى. أشرت إلى الحمام: «ما زال هنا».

حاولت صبغ كلماتي بنبرة عادية قدر المستطاع، مشيرة إلى غرفة الضيوف جواره مباشرة. نظرت كيت إلى باب الغرفة الرئيسية، ومرت عبر قسماتها تعبيرات، ربما وشت بتعرُّف؟ حزن؟ ذكرى ما؟ أيًّا كانت فقد مضت

بسرعة كما ظهرت ولتتحرك كيت إلى داخل غرفة الضيوف. جلستْ على طرف الفراش، مقبِّلةً رأس شايلو وبدأت تهتز بتوتر للأمام والخلف.

أشرت إلى المصباح وزجاجة الماء اللتين وضعتهما على المنضدة المجاورة للفراش: «هناك ماء، لكن لو احتجتِ إلى شيء آخر يمكنني إحضاره لكِ».

خفضت رأسها: «الماء يكفي».

أعطيتها المصباح.

- سكوت ظن أنك ربما ستحتاجين إلى هذا، سيسهِّل عليك الأمور لو نهضتِ ليلًا.

أجابت بهدوء: «شكرًا لك».

أبقت رأسها منخفضًا وهي تأخذ المصباح مني، فحاولتُ الكلام: «أتمنى لو أن لدي المزيد من أجل الطفلة لكن...».

عُلِّقت باقي جملتي المبتورة في الهواء بغرابة، وبدا أنها تبحث عما ترد به لكنها قالت في النهاية مكررة:

- شكرًا لك.

- على الرحب والسعة. هل أنتِ واثقة أنك لا ترغبين في أن أحضر شيئًا إضافيًّا؟

عرضتُ عليها إحدى بيجاماتي لكنها رفضت، ارتدت ثيابًا من تلك التي تُبُرِّع بها للمستشفى، أحد تلك الثياب التي يعيدون تدويرها من مرضى سابقين أو الثياب في قسم المفقودات. سروالها الرمادي كان أكبر من مقاسها بمقاسين، وارتدت فوقه تيشيرتًا بلون باهت ورسم لشطيرة على مقدمته. حركت رأسها نفيًا.

رغبتُ في معانقتها، لا يمكنني منع نفسي أمام مظهرها الهش التائه. ماذا فعلوا بها؟ كان عليَّ الذهاب وترك الغرفة لأنني لو بقيت دقيقة أخرى فسأعانقها فعلًا. وعرفتُ أن هذا آخر ما ترغب فيه.

قلت وأنا أنهض: «تصبحين على خير، أرجوك أيقظيني لو احتجتِ إلى أي شيء».

***

كيت

في الماضي

- هل أنتِ جادة؟ ستذهبين إلى رحلة استشفائية أخرى؟

أعادت كريستين رأسها للخلف وهي تضحك، انساب شعرها الأسود على ظهرها في أثناء ضحكها. كنا قد شربنا بالفعل أكثر من كأس، وسأندم على هذا غدًا لكنني لم أهتم. لم أحظَ بفرصة رؤيتها سوى مرتين منذ أن انتقلت عائدة إلى تكساس.

- ألم تذهبي إلى واحد بالفعل؟

شربت ما تبقى من الموهيتو خاصتي وأشرت ليُؤتى لنا بآخر.

- ذهبت إلى ثلاثة، لكن هذا مختلف.

سألتْ: «ما مدى الاختلاف بين كل هؤلاء؟».

- كل واحد يركز على هدف معين، الأخير هدف إلى التركيز على الغفران.

سخرت مني، محاوِلةً ألا تحول كلماتي إلى نكتة: «قضيتِ ثلاثة أيام في الصحراء تغفرين؟».

- اخرسي.

قلتها بتلاعب وأنا أتظاهر بصفع ذراعها على الطاولة: «الأمر ليس هكذا حتى، الهدف هو الحصول على منظور جديد حول مسألة الغفران نفسها، لم أدرك حتى كم من الناس أنا بحاجة إلى أن أغفر لهم».

ذهبنا إلى منزل مهجور وكتبنا أسماء كل من كرهناهم على الجدران، ثم تناوبنا على ضربهم بالمضرب. دمرنا كل جدار في المنزل، وختمنا الطقوس بإشعال النار في المنزل بينما نردد أغاني التحرر. جاءت هذه كواحدة من أقوى التجارب التي مررت بها في حياتي، لكنها لم تفهمها قط لأن التجربة بالكامل غير عقلانية للغاية بالنسبة إلى عقلها المنطقي والعملي. هذا أحد الأسباب التي جعلتها وسكوت صديقين مقربين وأحد أسباب تفوقهما في وظائفهما. التقيا في صف اللغة الإنجليزية خلال سنتنا الأولى في الكلية. أعادها إلى شقتنا للدراسة ذات ليلة، وأصبحنا نحن الثلاثة أصدقاء منذ ذلك الحين.

سألت: «هل تعملين على قصة جديدة إضافية؟».

هززت كتفيَّ، وصلت قصتي إلى الصحف منذ أسبوعين، وعندما عدت للتحدث إلى راي عن ردود الفعل العنيفة التي تلقيتها منها وما ظن بشأنها، دعاني لأصبح عضوًا في منظمة الحب الدولي. كنت أفكر في دعوته لكنني لم أتخذ قرارًا بعد. وكتابة مقال آخر سيأتي بمنزلة رفض.

- إذن لِم ما زلتِ تذهبين إلى هناك؟

- أحب كوني هناك فقط، وستفعلين أنتِ أيضًا لو أعطيتِهم فرصة. فقط تعالي معي في نهاية هذا الأسبوع.

حركت رأسها نفيًا وهي تشرب ما تبقى في كأسها: «مستحيل، سيأتي جيري إلى هنا بنهاية الأسبوع ويستحيل أن أفوت فرصة لقائه».

مضى أقل من عام منذ طلاقها هي وزوجها السابق ريك، ولم تفوت أي فرصة لتعود إلى عالم المواعدات. اشتكت من أنهما لم يقيما علاقة طوال العامين السابقين وعليها تعويض الوقت الضائع. لم يسبق لي معرفة رجل بإمكانه البقاء طوال تلك المدة دون إقامة أي علاقة لكنها أقسمت إنها لا تبالغ.

- فقط عديني أنك لن تتحولي إلى ريتا أخرى وتخبرينا أنك وُلدتِ من جديد. حسنًا؟

أخذتُ أولى قضماتي من كعكة الشوكولاتة أمامنا: «هذا يمكنني أن أعدك به، الأمر مختلف تمامًا».

كانت ريتا أقدم صديقاتي في المدرسة الثانوية، تعرفت إليها منذ أكثر من عقد من الزمن. أحبت ريتا الاحتفال، وبعد أن أنجبت طفلها الثاني، بدأت بتناول الحبوب بفظاعة، إلى جانب زجاجات النبيذ التي تشربها كل يوم، حتى إنها بدأت تظهر لتصطحب أطفالها من الحضانة تفوح منها رائحة الخمر. ولم يمض وقت طويل قبل أن ترسلها عائلتها إلى مركز إعادة التأهيل. ثم بدأت في حضور تجمعات في كنيسة الميلاد الجديد بعد خروجها لتنخرط بينهم بشدة لدرجة أنه لم يعد من الممكن التعرف على شخصيتها السابقة تقريبًا.

- مؤسف أنك لا تستطيعين اصطحاب سكوت وحسب.

فقدتُ الأمل في سؤاله ليأتي بصحبتي، وهو ما يحدث تقريبًا في كل مرة أسأله للقيام بأمر جديد. تحمل ذهابي لكنه لم يرغب في المشاركة. سألتْ كريستين من جديد: «هل تتحسن الأمور بينكما؟».

أمضيت مقابلتينا الأخيرتين وأنا أتحدث معها عن مدى معاناتي في زواجي. نادرًا ما أتحدث عن علاقتنا مع أي شخص، لكنني لم أتمكن من الاحتفاظ بالأسرار تلك كلها لفترة أطول، والتحدث مع سكوت حول أي شيء لم يوصلني إلى أي مكان. قال الشيء نفسه كلما تحدثت عن مدى شعوري بالركود: «أنا أحبك، أحب كل شيء بك، وأرغب في أن تتقدمي وتتغيري وتجربي أشياء جديدة، أنا أدعمك في كل هذا».

لكنني رغبت في أن يتقدم ويتغير ويجرب أشياء جديدة هو الآخر. تمسكه بالروتين بدأ يصبح لا يطاق كلما تقدمت في العمر، كيف يمكننا المضي في حياتنا بناء على قرارات اتخذناها حين كنا في السابعة عشرة من العمر؟

ليس الأمر وكأنه لم يحاول أن يفهم شعوري، لكن تلك المناقشات انتهت بمقولته المفضلة الأخرى: «لا أفهم، حياتنا مثالية!».

هذه هي المشكلة، أن حياتنا مثالية بالفعل، مثالية حد الاختناق. شرحت هذا لكريستين وتفهمت، ولم أفهم لِم لَم يستوعب هو.

ظلت تنظر إليَّ بعينين ممتلئتين بالأمل عبر الطاولة، رغم أنها حاولت أن تخفي هذا، وتظاهرت بأنها ليست مهتمة بإجابتي في كل الأحوال. المشكلة في الحصول على نهاية مثالية كما في الحكايات الخيالية، هو كم الأشخاص الآخرين المهتمين بإبقاء الحكاية مستمرة. لم تعد حكايتنا أنا وسكوت فقط، بل قصة تخص الجميع.

أبعدتُ نظري عنها: «الأشياء تتحسن، العودة إلى العمل أصلحت الكثير. وسأجري مقابلة مع إحدى الفتيات بشأن قصة المدرب تلك خاصتي في الأسبوع المقبل، أنا متحمسة بشأن هذا. لم تعد حياتنا متوترة».

- أرأيتِ؟ كل شيء سيكون على ما يرام، دائمًا ما تجدان حلولًا.

أضاءت ابتسامتها وجهها: «دائمًا ما تجدان حلولًا، هذا ما يحدث حين تكونان مقدرين لبعضكما».

***

هذه كانت أول جلسة استشفاء لي مع راي، وشعرت بتوتر أكبر مما كنت عليه عندما التقيته للمرة الأولى. رفض أن يقوم بجلسة استشفاء معي بينما أعمل على مقالتي -قال إننا سنفتقر إلى مستوى الصدق اللازم لنجاح المقال- ولكن لم يعد هناك ما يدعو للقلق بشأن ذلك بعد الآن. لن أكتب أي مقالات أخرى عنهم. ليس بعد آخر رسالة غاضبة تلقيناها معارضةً لدفاعي عن حركتهم. ليو لن يفكر في ذلك حتى. توقعنا بعض المعارضة لتغطية مثل هذه القصة المثيرة للجدل، ولكن لم نتوقع حجم الاعتراض الذي تلقيناه قط. أيًا كان الشخص الذي كان يراسلنا، أوصل رسائل كراهية لراي أيضًا.

تغيرت محادثاتنا لأنها لم تعد مسجلة، وأصبح قادرًا على التحدث معي بحرية. لكن لم يتحدث هو ولا أي شخص آخر عما حدث في عمليات الاستشفاء. سار الكثير من العمل الداخلي في منظمة الحب الدولي بهذه الطريقة، شيء شخصي وخاص للغاية. شارك الجميع الأفكار والدروس التي تعلموها من

جلسات الاستشفاء، ولكن لم يكن هناك أي ذكر لهذه العملية على الإطلاق. هل سار الأمر بالطريقة نفسها مع الجميع، أم أنه غيَّر أسلوبه حسب الفرد؟ ماذا عن خطته بالنسبة لي؟ تحدث الناس بحماس عن إنجازاتهم الروحية بعد ذلك، ولكن لم تنتهِ جميع الجلسات بشكل إيجابي. وخرج بعض الناس من عملية الاستشفاء محطَّمين عاطفيًّا. تمنيت ألا أكون من النوع الأخير.

أُجريَت عمليات الاستشفاء في إحدى غرف التخلص من السموم، التي افتقرت إلى الراحة التي وفَّرها مكتبه لكنني علمت أن هذا هو الهدف. فقدت تتبع عدد المرات التي التقينا فيها معًا. ومع ذلك، لم يكن الأمر مهمًّا، لأن أعصابي لا تزال تقفز في كل مرة أراه فيها. شعرت بالسعادة لأنني لم أعانِ هذا وحدي ولأن له التأثير ذاته على الجميع. لا يعزي ذلك فقط للطريقة التي اخترقت بها عيناه روحك، بل تعلق الأمر أكثر بالطريقة التي يتعامل بها مباشرة مع مشكلاتك الأساسية، حيث يجردك لتصير عاريًا نفسيًّا في غضون دقائق.

حين دلفت للغرفة، نهض من موقعه على الأرض محييًا إياي: «مرحبًا كيت».

عانقني قبل أن يجلس من جديد على الأرض، وجلست في مقابلته. منعت نفسي من القهقهة حيث جلسنا متربعين أرضًا في مواجهة بعضنا بعضًا، بدا الأمر وكأننا جالسان في المدرسة الابتدائية مستعدين لسباق عقد رباط الأحذية.

- لا مشكلة من الضحك، أطلقي أي مشاعر تجابهك حاليًّا.

احمرت وجنتاي: «أعتذر، لا أظن أن الأمر مضحك، أنا فقط...».

رفع يده مقاطعًا: «توقفي، لا تكملي هذه العبارة، في أثناء جلسات الاستشفاء نحن لا نبرر ولا نشرح أي تجربة عاطفية نمر بها».

نظر إليَّ بحدة، لم أرَه قط جادًّا هكذا. أومأت: «فهمت».

- الهدف من جلسة الاستشفاء هو أن تتواصلي مع كل تلك المشاعر التي كبتِّها داخلك وتجاهلتِها، تلك الأشياء تملأ قلبك وروحك كالسرطان.

اختفت لمعة عينيه لتحل محلها نظرات ثاقبة كالصقر في أثناء تحديقه إليَّ، إرادتي فقط هي ما منعتني من الإشاحة بنظري بعيدًا عنه.

- لِم أنتِ هنا؟

كررت: «أرغب في التخلص من السرطان داخلي».

كررتها كما سمعتها من الآخرين سواء في الرحلات الاستشفائية أو اللقاءات. لكنه حرك رأسه متقززًا: «هراء».

لم أسمعه يتحدث بهذه اللهجة قبلًا، وأجفلت، متراجعةً قليلًا بعيدًا عنه. سأل: «لِم أنتِ هنا فعلًا؟».

توقف عقلي عن العمل، متفاجئًا بالتغيير الجذري فيه، قال: «هل ترغبين في أن أساعدك؟».

- أوَتعرف ماذا؟ لا تعجبني اللهجة التي تتحدث معي بها الآن.

قلتها وأنا أفرد ظهري، فأجاب بسخرية: «أوه أعتذر، هل تفضلين لو حاذرت في كل كلمة أقولها في وجودك؟».

- ما مشكلتك اليوم؟!

لم أرَه يفعل هذا قبلًا، تحدث بنبرة هجومية سابقًا لكن ليس بهذه الطريقة قط! لم يتحدث بوضاعة قبلًا، امتلأت عيناه بنظرات التحدي وهو يقول: «هل توقعتِ أن يكون الأمر سهلًا؟».

- لا، لكن لم أتوقع أن تتصرف بمثل هذه الطريقة.

- كل ما أرغب فيه هو أن تكوني صريحة.

- أنا صريحة.

حرك رأسه نفيًا: «هيا أرجوكِ، كلانا يعلم أنكِ تكذبين».

تراجعت بأقصى ما يمكنني حتى التصق ظهري بالباب: «عمَّ تتحدث؟ أنا أحب حياتي».

كرر: «هراء».

بدأ الغضب ينال مني: «أوَتعلم ماذا؟».

نهضتُ: «لم آتِ هنا من أجل هذا».

استدرت مادة يدي لمقبض الباب، لكن صوته الثابت الهادئ جاء من خلفي: «لو خرجتِ من هذا الباب الآن، لا تفكري في العودة».

التفتُّ لمواجهته: «ماذا حدث لــ«يمكنك الذهاب والمجيء كما ترغبين»؟ اعتقدت أنك لست آمِرًا فوق أي شخص».

بقي جالسًا: «كل فرد يعبر هذا الباب هو حالة خاصة».

حدقت إليه: «وأنا الشخص الذي اخترت أن تصبح متحكمًا وضيعًا معها؟ شكرًا لك، أشعر بالإطراء».

- الخوف هو المتحكم بقلبك الآن، لو غادرتِ ستتركينه يكسب، ولا يمكننا السماح لهذا بالحدوث هنا.

كانت تعبيرات وجهه جامدة، فقلت: «لست خائفة».

لكنني لم أعد أصدق نفسي بقدر ما لم يصدقني هو، سأل: «هل أنتِ واثقة أنكِ راغبة في الذهاب؟».

ترددت يدي على الباب، وقفز مباشرة ليستغل ترددي: «أنتِ هنا لأنك تشعرين بالملل من حياتك وترغبين في المزيد، الأشياء التي اعتدتِ أن تحبيها بدأت تخنقك حتى إنك صرتِ عاجزة عن التنفس».

تهاويت ببطء إلى الأرض مستندة إلى الجدار، عاقدة ذراعيَّ أمام صدري لأحمي نفسي من الحقيقة التي تفوه بها.

- بدأتِ تشعرين بالسأم من الحياة التي بنيتِها لنفسك في أثناء مراهقتك لتنجَي، لكن هذه الحياة لم تعد توائمك، وفي الوقت ذاته لا تستطيعين تركها. هل اقتربتُ من الحقيقة؟

رفعت ذقني كطفل عنيد: «أنت لا تعرفني».

حرك رأسه نفيًا: «المشكلة فيكِ أنتِ كيت، أنتِ من يرفض معرفة نفسه».

بدأت الدموع تتجمع في مقلتي، فمسحتها رافضة أن أبكي كي لا يعرف أنه محق، وبدأ جلدي يتحسس معارضًا الحقيقة. سأل: «ما الذي جعلك تشعرين بأنك محاصَرة في حياتك الخاصة؟».

لم تكن مشكلة الحياة، بل الرجل. مرت بعقلي صور لحياتي على هيئة قصاصات، كيف اعتنى سكوت بي بعد وفاة والدي عندما كنت في السابعة عشرة من عمري، الساعات التي قضاها جالسًا معي في المستشفى بعد فترة طويلة من إعلان وفاتهما. أبعد الجميع عني حتى صرت على أتم استعداد للمغادرة. ثم أصبح حاويتي العاطفية، مستقبلًا نوبات الغضب التي أطلقتها لسنوات بينما أواجه صعوبة في استيعاب كيف سُرق مني الكثير.

ابتلعتُ الحشرجة العالقة في حلقي، قبل أن أتذكر أن راي نصحني بعدم كتمان مشاعري: «أنقذ حياتي».

تركت مشاعري تخرج، وفجأة وجدتني أبكي بطريقة لم أفعلها منذ أن كنت طفلة، لم يتحرك راي من مكانه، لم يمد يده ليخفف عني أو يحاول دفعي لأشعر بالتحسن. غرابة الموقف قللت من انفجاري العاطفي.

- لا أعرف من أنا من دونه، لطالما تساءلت من أنا لو لم يكن موجودًا، لكنني أشعر بأنني أسوأ شخص في الكون لمجرد التفكير في هذا.

لم أعترف بهذا لأي شخص قبلًا، لا كريستين، وبالتأكيد ليس لسكوت، بالكاد اعترفت بهذا أمام نفسي حتى.

وتساءلت ماذا سأعترف له به، مما لم أخبر به أحدًا قبلًا؟

***

أحد عشر

آبي

الآن

أحرقتني عيناي. حدقت إلى إبريق القهوة، وتمنيت أن أتناول فنجانًا مثل أي شخص آخر، لكن أبي كره شربي القهوة، مقتنعًا بتلك الحكايات القديمة بأن الكافيين سيعوق نموِّي. لم يهتم بشرب جميع أصدقائي للقهوة حين ارتدنا ستاربكس في فترة الراحة في أثناء اليوم الدراسي. تناولت بعضها أحيانًا على أي حال، لكن هذا اليوم لم أكن لأتمكن من اجتيازه دون بعض الكافيين، لأن بكاء شايلو أبقاني مستيقظة معظم الليل.

كانت غرفة نومي مجاورة لغرفة نومهما، وحاولت أمي تهدئتها طوال الليل، لكن لم ينجح أي شيء. لم تتوقف عن البكاء لمدة تزيد على بضع دقائق. رغبت في مساعدة أمي، لكنني لم أفقه شيئًا عن الأطفال، ولم أرغب في الإتيان بأي فعل من شأنه دفع البكاء ليسوء أو يتسبب في شعور أمي بالحرج. لذا انتهى بي الأمر مستلقية على سريري، متمنية لهما النوم، ومتصفحة المواضيع القديمة في المنتديات بحثًا عن أي شيء ربما فاتني. آملة أن أبي وميريدث حصلا على قسط من النوم خلال نوبة البكاء. نال منهما الإرهاق الليلة الماضية حتى كادت ميريدث أن تغفو وهي تتناول البيتزا الخاصة بها، وبالكاد تمكنت من تناول شريحة واحدة. لكن أمي عوضت عن قلة شهية

ميريدث. لم أرَ قط شخصًا يأكل بالطريقة التي فعلت بها. تناولت بيتزا كبيرة وحدها. استمرت في التهامها لتلقي بها داخل فمها، قطعة تلي القطعة، حتى أصبحتْ فجأة أمام القطعة الأخيرة وبدت مذعورة.

كانت لا تزال في الطابق العلوي تستعد. حاولت ميريدث أن تعطيها شيئًا خاصًّا بها لترتديه مرة أخرى ورفضت. تمنيتُ أن تتوقف ميريدث عن عرض ملابسها، لأنها من الواضح أنها لا تريدها. هل أرغب في ارتداء ملابس زوجة زوجي الجديدة؟ على الأغلب لا. لكن والدي قرر إخراج مجموعة من صناديق ثيابها القديمة من المرأب اليوم، حتى يصبح لديها ما ترتديه على الأقل إلى أن نتمكن من الذهاب للتسوق.

من المتوقع أيضًا أن دين وفريقه من المحققين سيصلون هنا خلال ساعة لإجراء مقابلة معها. وأولئك المحققون الذين بقوا الليلة الماضية كانوا في غرفة الطعام يشربون قهوتهم. همساتهم الخافتة انتشرت في الغرف في الطابق السفلي. لم أعرف كيف خطط أي منهم للحصول على أي معلومة من أمي حين اقتصرت إجاباتها في الغالب على عبارة مكونة من كلمة واحدة، نعم، لا، من فضلك، شكرًا لك. بالكاد سمعت صوتها يتفوه بأكثر من جملتين معًا. الأرق لن يساعد أيضًا. نامت في وقت ما الليلة الماضية، لأنني ألقيت نظرة خاطفة عليهما عندما استيقظتُ في السادسة لاستخدام الحمام. لم يُمَس أي شيء على السرير، بل التفَّت حول نفسها على الأرضية الخشبية الباردة، على الرغم من وجود سجادة في وسط الغرفة. لم تأخذ حتى وسادة لتنام عليها. أغلقتُ الباب بهدوء ورجعتُ إلى السرير على أطراف أصابعي، لكنني لم أتمكن من العودة إلى النوم مرة أخرى لأنني لم أتمكن من إخراج صورتهما وهما تتوسدان الأرض من رأسي. لماذا تنام على الأرض هكذا؟

انطلق منبه أبي في الساعة السابعة والنصف، وركضت ميريدث حول المنزل طوال الصباح. مصممة على تحضير وجبة الإفطار للجميع بحلول الساعة التاسعة، رغم أنني واتاني شعور بأن لا أحد سيأكل كثيرًا. لكن هكذا كان طبعها، في أي وقت يحضر رفاق وبغض النظر عن المناسبة أو مدة

إقامتهم، تأكدتْ من إطعام كل الأفواه، الآن كانت في متجر البقالة تلتقط بعض المكونات لصناعة العجة.

تساءلتُ مستندةً إلى المنضدة: «أبي، هل يمكنني تناول القليل من القهوة؟».

نظر بعيدًا عن هاتفه الذي ظل ناظرًا إليه منذ أن أتيت حتى إنه بالكاد رفع عينيه، لاحظ ذهاب ميريدث: «أنتِ تعرفين».

بدأ بالكلام، لكنه صمت فجأة ثم غيَّر كلامه: «بالتأكيد».

تساءلت مدهوشة: «ماذا!».

كانت المزحة السارية هي أنني دائمًا سأسأل ودائمًا سيرفض، وأنني سأتوسل حتى يعدني بشيء حلو في المقابل.

هز كتفيه قبل أن يعود لينظر في هاتفه. وقفت ببطء وسرت إلى الثلاجة. جزء مني أراد البكاء. لم يكن الأمر يتعلق بالقهوة؛ لم أهتم بالقهوة. لم يكن الأمر كما لو كان أول فنجان قهوة أتناوله في هذا المنزل. أبي توقف عن لعب لعبتنا. الآن وقد عادت أمي، كل شيء سيتغير، حتى أجزاء حياتنا التي أحببتها.

بعض التقاليد المفضلة لدي كانت عندما احتفلنا بأمي. عيد ميلادها شكَّل أحد الأيام المفضلة لدي في السنة، لأنه وقع بعد أعياد الميلاد مباشرة. أعددناه يوم إجازة سواء كانت لدينا التزامات أم لا، وقضينا معظم العام في التخطيط له. في أحد الأعوام ذهبنا في رحلة بمنطاد الهواء الساخن وأطلقنا بالونات تحمل رسائل كتبناها لها بعد أن أصبحنا في السماء. ظل أبي يقول إننا بالفعل في منتصف الطريق إلى الجنة، لذلك كان متأكدًا من أنها ستصل إلى مبتغاها. في سنة أخرى ذهبنا إلى ديزني لاند. لكن الاحتفال لم يشتمل دائمًا على كل تلك الأحداث الضخمة، في بعض الأوقات انطوى على احتفال أصغر، ذات مرة بقينا في السرير مرتديين ملابس النوم طوال اليوم نشاهد مقاطع فيديو لها بينما نأكل آيس كريم الشوكولاتة. اخترنا لها هدايا في عيد

الميلاد وأدرجنا اسمها في قوائم ليلة رأس السنة الجديدة. دار جزء هائل من عالمنا حول التعرف عليها وتذكرها.

الآن ماذا سنفعل بعد أن عادت؟

سألتْ ميريدث وهي تدخل المطبخ: «آبي هل تشربين القهوة؟».

لم تعطِ لي الفرصة للإجابة قبل أن تتابع: «كل شيء في غرفة المعيشة مرتب، لكنني أرغب في تفقد الحمام هنا بالأسفل مرة أخيرة».

التفتت إلى والدي: «هل يمكنك التأكد من إفراغ صناديق القمامة؟».

سألها: «هل تظنين أنهم سيهتمون حقًّا لو أن صناديق القمامة نظيفة؟».

دار الجدال ذاته بينهما منذ أن انتقلتْ للعيش معنا. لم يتغير شيء على الإطلاق. عرف أبي أن ميريدث تريد إفراغ صناديق القمامة في جميع الغرف قبل وصول أي ضيوف. وواصلت السؤال مرارًا وتكرارًا، ودون كلل، اعتاد أن يدلي ببعض التعليقات ردًّا عليها. لماذا لا تُفرغ فقط صناديق القمامة وتتجنب الدراما؟ ولكن قبل أن ينخرطا في الجدال القديم ذاته، سمعنا طرقات على الباب الأمامي. تجمدنا جميعًا على الرغم من أننا توقعنا ذلك.

حدق إلينا أبي بنظرة مشجعة قبل أن ينهض ويتجه إلى الباب. تبعناه متراصين خلفه عندما فتحه. وقف دين على الشرفة مع امرأة افترضتُ أنها خبيرة مكتب التحقيقات الفيدرالي التي أخبرني عنها والدي الليلة الماضية، التي كانت بحجمه ذاته تقريبًا، وخلفهما وقف ثلاثة رجال يحملون معدات وحقائب مختلفة الأحجام. لو أن الوضع معتاد، لاندفع دين إلى المنزل معانقًا إياي عناقًا هائلًا، لكنه ظل في مكانه، منتظرًا أن يوجهه أبي إلى الداخل.

أشار أبي إلى الداخل: «تفضل بالدخول، كيف حالك».

- أنا بخير شكرًا لك.

أجاب دين وهو يصافح أبي، فقلت: «مرحبًا عمي دين».

الموقف برمته بدا غريبًا، عبث بشعري مجيبًا: «مرحبًا، بعد الانتهاء من كل هذا سأصطحبك لتناول الآيس كريم، اتفقنا؟».

ابتسمتُ. بدأت علاقتنا بسبب الآيس كريم. كان على أبي أن يوفق بين كونه زوجًا حزينًا، وأبًا، ومشتبَهًا به في الوقت نفسه، لذلك جرني معه إلى الاجتماعات والمقابلات المهمة. ليس لقلة من تطوعوا لمجالستي. لأن الكثيرين استطاعوا المساعدة. ولكن أحد عيوب اختفاء أحد الوالدين هو أنك لن تدع الآخر بعيدًا عن ناظريك. ولم يدفعني أبي قط لفعل أي شيء لم أكن مستعدة له. لذا سمح لي بالبقاء معه لأنه فهم مدى أهمية ذلك بالنسبة لي، لكن قراري صعَّب عليه حياته الصعبة بالفعل بالتأكيد.

بدأت معرفتي بدين في أحد تلك الأيام التي حدث فيها شيء مهم في هذه القضية، وصاروا بحاجة إلى أبي وحده. أخيرًا أقنعني دين بمغادرة مركز الشرطة والحصول على الآيس كريم، لكنني رفضت الذهاب إلا إذا اصطحبني هو. وضعه لم يعنِ شيئًا بالنسبة لي. أحببت حين حكى لي قصة كيف سرت جواره على الرصيف في طريقي للحصول على الآيس كريم وأمرته بالعثور على أمي وإلا سأخبر والدته أنه محقق سيئ.

عانقته بسرعة: «اتفقنا، لكنني أرغب في آيس كريم حقيقي هذه المرة، ليست تلك المثلجات الغريبة التي حاولت إقناعي بأنها جيدة المرة الماضية».

ضحك، لكن ضحكاته قوطعت بصوت خطوات أمي تهبط السلالم. توقف كل شيء وشعرت كما لو أن لا أحد تنفس. أبقت أمي رأسها منخفضًا متفادية النظر مباشرة إلى أعين الموجودين كما فعلت دائمًا. وتقدم أبي لمساعدتها على هبوط السلالم الأخيرة والتوجه إلى المدخل حيث اجتمع الجميع.

- كيت، هذا دين ثومبسون.

أشار إلى دين الذي تقدم خطوة مادًّا يده لمصافحة أمي.

- ساعدني طوال تلك السنوات في البحث عنك، ولا بد أنه تقريبًا يشعر بالارتياح ذاته مثلي لأنك معنا في البيت.

ابتسم دين، وصافحته أمي بخفة قبل أن تعيد ذراعها حول شايلو، تقدمت السيدة خلف دين، جُمع شعرها في ذيل حصان خلف ظهرها، ليعطي جبهتها العريضة مظهرًا أعرض. وارتدت قميصًا أزرق ضيقًا مغلق الأزرار حتى عنقها.

- أُدعى كاميل، ولا أظن أنني تعرفت إلى الجميع.

قالتها وهي تصافح أبي أولًا ثم أمي، ثم التفتت لي: «لا بد أنكِ آبي».

أومأتُ، فأشارت إلى الرجال خلفها: «أولئك هم جون، وكارل، وفرناندو، وهم جزء من الفريق».

أومأ جميعهم وتفوهوا بالتحيات معًا، والتفتت كاميل لتنظر إلى المنزل.

- لِم لا ننتقل جميعًا إلى مكان أكثر راحة لنجلس ونبدأ؟

تقدمت ميريدث للأمام متسائلة: «هل ترغبون في تناول بعض العجة؟».

رفضت كاميل بأدب: «لا، شكرًا».

وتحركت باتجاه غرفة المعيشة، نتبعها جميعًا، لتتساءل: «لِم لا نجلس هنا يا كيت؟».

أشارت إلى الأريكة أمام الجدار المقابل، اتخذت كاميل موقعها على أحد الكراسي، جالسة على الحافة لتكون أقرب ما يمكن لأمي وفي الوقت ذاته لتبقي على مساحة ملائمة بينهما كي تتمكن أمي من الاعتناء بشايلو. انطلق كلٌّ من كارل وجون وفرناندو للعمل فورًا، مخرِجين معدات كهربية غريبة الشكل من حقائبهم.

بينما جلس دين في المقعد المقابل وقفنا أنا وأبي وميريدث بغرابة خلفهم. هدهدت أمي شايلو بهدوء بين ذراعيها محاولة إبقاءها نائمة. سبق لنا أن استضفنا أناسًا أكثر في غرفة معيشتنا لكنني لم أشعر بأن المكان مزدحم بهذه الطريقة قبلًا. انقبض صدري، وأبقت أمي عينيها مركزتيْن على السجادة وكأنها معجبة بالتفاصيل. سألت كاميل: «هل أنتِ مستعدة للبدء؟».

أومأت أمي.

أخرجت كاميل جهاز تسجيل من جيبها ووضعته على طاولة القهوة: «هل تمانعين لو سجلنا هذه المقابلة؟».

***

اثنا عشر

ميريدث

الآن

سألتُ سكوت متفاجئة: «كنتم هناك بالداخل لأكثر من ثلاث ساعات، ماذا تعني بأنها لم تخبركم؟».

أرادت منا كاميل أن نبقى كشهود حين أعطتها كيت موافقتها على تسجيل المقابلة بالفيديو، لكنها طلبت منا المغادرة بعدها. طلبتها من سكوت كذلك لكن كيت أمسكت بذراعه حين عبر جوارها حيث جلست على الأريكة، وتوسلت: «أرجوك، هل بوسعه البقاء؟».

قالتهِا وتمسكت بذراعه برعب حتى وافقوا. توجهنا أنا وآبي إلى الدور العلوي، توقفت عند قمة السلالم، منتظرة أن تلحق بي آبي لأنها مشيت ببطء حتى يتسنى لها إبقاء نظرها على كيت لأطول وقت ممكن. راقبتها آبي على الدوام وكأنها قد تختفي في أي لحظة لو رفعت عينيها عنها. سألتُها: «هل ترغبين في الانتظار معي بغرفتي؟».

حركت رأسها نفيًا فمددتُ يدي وأمسكتُ بذقنها لأقول: «ستكون الأمور على ما يرام».

أجبرت نفسها على الابتسام من أجلي قبل أن تتجه إلى غرفتها، وتغلق الباب خلفها. عجزت عن التركيز بعدها، استسلمت متوقفة عن قراءة الرواية

بين يديَّ، بعد أن أدركت أنني واصلت قراءة المقطع نفسه مرارًا وتكرارًا لأكثر من عشرين دقيقة. أرسلت رسائل لكلٍّ من كايلب وثاد، لكن كليهما كان في عمله ولم يردا. في النهاية، تمددت ورحت في النوم، ليوقظني سكوت قبل عشر دقائق فقط.

لم تخبرهم كيت بعدُ ما حدث في اليوم الذي اختفت فيه. مضت خمسة أيام ولم يكن لديهم فكرة بعد أين كانت أو ما حدث لها طوال ذلك الوقت.

- عليكِ رؤية مستوى صدمتها يا ميريدث. حتى أسئلة من قبيل كيف كنتِ تأكلين، تدفعها للبكاء بلا تحكم منها. لو تحرك أحد بسرعة تجفل، وكل صوت عالٍ يدفعها للقفز، لظننت أننا نعيش وسط نيويورك من مدى حساسيتها للأصوات. أمضينا أغلب الوقت منتظرين أن تستجمع شجاعتها بين السؤال والآخر.

- هذا مريع.

أجبته وتابعت: «هل سمحوا لك بمحاولة التحدث معها؟».

رد ساخرًا: «هل تمزحين؟ لم تترك لي كاميل الفرصة لأتفوه بأي شيء، لم تسمح لي حتى بمواساتها حين حزنت. اضطررت إلى البقاء ساكنًا لأنها لم ترغب لي في التأثير على كيت بأي طريقة. كان هذا بمنزلة تعذيب في الواقع».

تحركتُ تجاهه وضممته، مريحة رأسي على صدره. توالت ضربات قلبه بسرعة رهيبة رغم أنه وقف ساكنًا. في اللحظات التي ضمني فيها مسدت ظهره محاولة دفعه ليهدأ. هامسة: «لا أعرف ماذا أقول، لا يسعني تخيل ما تشعر به الآن».

أحد أسوأ التصرفات التي يمكنك القيام بها وسط مأساة هو التصريح لمن أمامك بعبارة مبتذلة كهذه لأن استيعاب خسارتهم في تلك اللحظات يدلي بحمل أكبر عليهم. سمعت مثل هذه العبارة بعد موت جيمس، وظننت أن أحيانًا الصمت التام خيار أفضل.

انسحب مبتعدًا عني ليغوص في كرسيه الجلدي ممررًا يده بين خصلات شعره وهو يقول: «لو حاولوا الضغط عليها بأي طريقة تبدأ في تكرار جملة «لا يمكنكم الفهم» مرارًا، أو تتفوه بهراء غريب لا يعني أي شيء على الإطلاق. تكرر الكلام أيضًا، وتهمس كأنها تتحدث لأحد ما، رؤيتها على هذه الشاكلة صعبة».

احتبس صوته في حلقه. رأيتها تتمتم في وقت سابق من هذا الصباح في الردهة في الطابق العلوي، كما لو أنها تتحدث إلى شخص غير موجود. لم أعرف ماذا عساي أفعل ولم أرغب في إحراجها، لذلك استدرت ونزلت إلى الطابق السفلي متظاهرة بأنني نسيت شيئًا وبأنني لم أرها.

- لا أعرف ماذا أفعل، كيف بوسعنا مساعدتها لو لم تتحدث؟ وليس الأمر حتى متعلقًا بمساعدتها فقط.

واصل الحديث بسرعة: «عليَّ إبقاء الجميع في أمان، ولا يمكنني فعل هذا ما لم أعرف ما الذي يحدث، أنا لا...».

قاطعته قبل أن يوقظ صوته أحدًا: «عزيزي، إبقاء الجميع في أمان ليست مهمتك».

أشار إلى الأسفل: «هل تظنين أنهم سيبقون إلى الأبد؟».

وضعت يدي على ذراعه: «وصلنا إلى المنزل توًّا، ولن يذهبوا إلى أي مكان في الوقت الحاضر. لن يتركونا ما دمنا في خطر، هذا مستحيل».

تنهد بإحباط، فأكملت: «ماذا لو تواصلت مع صديقتها المفضلة؟ ماذا كان اسمها؟ كريستينا. ماذا لو حددت موعدًا لها لتأتي وترى كيت؟».

عجزت عن إبعاد صديقتي المفضلة عن ذهني وأنا أقول هذا، لويس، التي حملت كل أسراري، هناك أشياء تخبر بها صديقتك المقربة، لا يمكنك إخبار الآخرين عنها. لكن سكوت أجاب: «ترفض الحديث معي».

سألت: «لِم؟».

- لنقل فقط إنها ليست مع الفريق الداعم لسكوت؟

- أحد هؤلاء؟

أخبرني عن جميع الأصدقاء الذين فقدهم بعد اختفاء كيت. شكك بعض أصدقائه المقربين في براءته وتخلوا عنه، في حين وقف آخرون بالكاد يعرفهم إلى جانبه وأصبحوا أقرب حلفائه. سألت من جديد: «ألا تظن أنها ستستثني هذه المكالمة من قرار مقاطعتها بعد كل هذه السنوات؟ خصوصًا وأن كيت عادت؟ بجانب أنها لو ظننت بالفعل أن لك يدًا فيما حدث لكيت، ستأتي هذه الفرصة في مصلحتها لتدفع كيت لتدينك كي يتمكنوا من الإمساك بك.

حرك كتفيه: «أعتقد أنه يمكنني المحاولة».

ساعدتُه على النهوض من الكرسي.

- هذا جيد.

- دعنا نذهب ونعد الطعام لكل أولئك الأشخاص الذين يتجولون في منزلنا.

ابتسم ابتسامة ضعيفة، فأكملت: «ثم إنهم سيبقون لإجراء مقابلات معها طوال اليوم، من يعرف ماذا ستقول بحلول نهاية اليوم».

***

كيت مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

في الماضي

ألقيت حقيبة أدوات الزينة الخاصة بي في حقيبتي القماشية الخشنة وأغلقتها، ثم مسحت الغرفة بنظراتي للمرة الأخيرة قبل مغادرتي. تلك كانت خامس خلوة استشفائية أحضرها وأقواهم حتى الآن، حتى مع إهانة راي لنصف الحاضرين تقريبًا الليلة الماضية.

ألقيت نظرة سريعة على سرير زميلتي في الغرفة الذي لم يمسه أحد. لم تعد ميليسا إلى المنزل الليلة الماضية بعد الاحتفال حول نار المخيم الذي ختم

كل خلوة. رأيتها قرب النهر آخر مرة تغازل أحد الأعضاء الجدد. ضحكت حين تذكرت مدى شعوري بالإحراج والخجل في أول احتفال حول النار أحضره، حين تجردت بعض العضوات من ثيابهن ورقصن حول النار. عجزت عن رفع عيني عنهن، ليس بسبب عريهن، لكن بسبب عدم الاكتراث والتحرر المطلق الذي يتمتعن به، لم يسبق لي مطلقًا رؤية شخص على هذا القدر من التحرر من القيود. لم أخلع ملابسي. لم أصل إلى تلك المرحلة بعد. أردت أن أفعل. ربما بالتجمع في الخلوة التالية.

صُمت خلال الساعات الأربع والعشرين الأولى، ومر الأمر فظيعًا للغاية، لكنني دفعت نفسي إلى ما بعد النقطة التي أردت فيها الإقلاع ليصير كل شيء بعدها رائعًا، تمامًا كما قالت معلمتي مارجو، صُمت من قبل بالطبع، لكنه ذاك النوع من صيام التطهر الذي تطلب أن نقلع عن تناول الطعام ونستبدل به مسحوقًا غريبًا. لم تعتبر منظمة الحب الدولي هذا صومًا، الصوم الحقيقي عنى التخلي عن كل شيء حتى الماء. أخبرت سكوت بأنني خططت للقيام بهذا في نهاية الأسبوع. لم يعجبه أنني لم أشرب شيئًا سوى العصير الخام في فترة التطهر لمدة ثلاثين يومًا، لذلك كان من المؤكد أنه سيشعر بالفزع بشأن هذا الصوم.

استلقيت من جديد في الفراش الذي نهضت عنه ورتبته بالفعل، لست في عجالة من أمري للعودة إلى البيت وملاقاته، ازدادت صعوبة الأمر في كل مرة. الليلة الماضية بالذات كانت أكثر تأثيرًا ما صعَّب فكرة المغادرة أكثر. ألقى راي واحدة من أفضل خُطبه حتى الآن. اعتاد مخاطبتنا بنهاية كل يوم، اجتمعنا حوله على العشب، جالسين على البطانيات، ليخترق صوته الحشد.

- دعوني أسألكم.

تجول بعينيه فاحصًا الحشد: «هل أنتم مستعدون للموت في سبيل ما تؤمنون به؟».

لم يتحرك أحد.

- هل ستفعلون؟

ازدادت نبرة الغضب في صوته، ازدادت حدة صوته ذاته، لكن لا أحد تكلم. نما الصمت ورحبتُ به، تاركة إياه يجتاح محيطي. صببت تركيزي على أنفاسي تاركة إياها تغادر جسدي قبل أن أعب الهواء من جديد. ومن جديد سأل: «أأنتم على استعداد للموت في سبيل ما تؤمنون به؟».

بدأ الناس يتململون في أماكنهم بعدم راحة. وانتبهت حواسي كافة. شعرت بالذبذبات المنبعثة من كل شخص على جانبيَّ. كلنا جلسنا هناك منتظرين ما سيحدث بعد ذلك، إلامَ ستقود هذه الكلمات؟ كرر راي: «هذا ليس سؤالًا بلاغيًّا. هل يمتلك أحد منكم هذا النوع من الإيمان؟».

أخيرًا صاح رجل من الخلف: «نعم!».

استدرت لأرى ذلك الرجل الذي شارك في الاجتماع الافتتاحي قصة طلاقه القاسية، متحمسًا لأن يدعمه الآخرون في أثناء التخلص من آلامه. لهذا في الأساس حضر الخلوة الاستشفائية. فحص راي الجمع بعينيه حتى وجده. فأشار إليه: «أنت؟».

أومأ الرجل وأخبره راي أن يتقدم. افترق الجمع مُفسحًا عن طريق ليسلكه الرجل إلى المقدمة. وضع راي ذراعيه حول كتفَي الرجل ما إن وصل إليه. كان أشقر وافترقت خصلات شعره في المنتصف لتجتمع خلف أذنيه على هيئة سوالف مشذبة بعناية. سأل: «ما اسمك أيها الشاب؟».

قالها رغم أن الرجل أكبر منه سنًّا، فأجاب: «كيفن».

انتفخ صدر كيفن بفخر في أثناء وقوفه جوار راي، الذي قال مربتًا على ظهره: «مرحبًا كيفن، يسعدني لقاؤك. ما نوع الإيمان الذي أنت مستعد للتضحية بنفسك في سبيله؟».

أشار الرجل إلى الحشد: «هذا».

- أخبرني كم تجمُّعًا حضرت مع منظمة الحب الدولي؟

أشرقت ابتسامة الرجل: «هذا هو أولهم».

- الأول؟ حقًّا؟ هذا يعني أنك أمضيت معنا نحو ست وثلاثين ساعة وأنت مستعد للموت في سبيلنا؟

- أعلم أن هذا يبدوا سخيفًا. لكن كل ما في الأمر هو، أنا أشعر وكأنني أمضيت حياتي كلها معكم، وكأن هذا بيتي، وكأنني بحثت عن هذا المكان طوال حياتي ولم أدرك هذا. لم أشعر بهذه الطريقة نحو أي شيء سابقًا قبل أن أخطو إلى حرمكم.

انتقلت نظراته من راي إلى الجمع: «أغلبكم لا يعرف من أنا، لكن حياتي دُمرت العام الماضي بعد أن تركتني زوجتي، هدمت ذاتي وكل شيء أمتلكه. عجزت عن تحمل فكرة بناء كل هذا لأراه يتهاوى من جديد في لحظات. هذه هي الحياة التي حملت كل سعادتي، وأنا رفضت إعادة بنائها مرة أخرى».

بدأ في البكاء مع ختامه لكلماته، قبل أن يقول راي: «ما زال يصعب عليَّ فهم شعورك بالانتماء إلينا في مثل هذه الفترة القليلة».

لن يترك راي الأمر يمر، هذه هي طبيعته حين يركز عقله على شيء ما. جواره حرك الرجل كتفيه: «ماذا يسعني القول؟ كنت مستعدًّا لاستقبال الرسالة، والرسالة ملأت قلبي».

حرك راي يده على ذقنه متابعًا: «أوه هذا رائع!».

- هل تظن أن بوسعك الانتظار هنا لدقيقة؟

أومأ كيفن، وأسرع راي لأحد الأكواخ. وفي الحال نهض البعض محيطين بكيفن، مندفعين في سؤاله أكثر عن وضعه، عن الكيفية التي وجد بها منظمة الحب الدولي، في اللحظات التي انتظر فيها عودة راي، التي لم تطُل قبل أن يعود قائلًا: «من فضلكم اجلسوا».

أمسك بذراع الرجل مانعًا إياه من التوجه للجلوس كما فعل الجميع، قائلًا: «ليس أنت، لم ننتهِ من حديثنا».

- أوه حسنًا.

قالها كيفن، غير قادر على إخفاء حماسته لأنه تسنى له البقاء مع راي لفترة أطول.

- تعتمد فلسفتنا بأكملها على وضع معتقداتنا موضع التنفيذ. علينا أن نفعل أكثر من مجرد القول بأننا نؤمن بشيء ما. يجب أن تدعم أفعالنا

أقوالنا. ونحن نطلب من أنفسنا أن نثبت التزامنا بمعتقداتنا بالطريقة نفسها التي يطلب منا الله أن نثبت بها أنفسنا.

قالها راي، محيطًا وسط كيفن بذراعيه، مقربًا إياه منه أكثر. ليتابع: «وهذا ما سأطلبه الليلة».

أخرج زجاجة حبوب من جيبه وحركها في الهواء أمام الجميع ليروها.

- قلت إن بوسعك الموت من أجل منظمة الحب الدولي، هذه الحبوب ستجعل أعضاءك الباطنة تتوقف عن العمل.

فتح راي الزجاجة: «افتح يدك».

فعل كيفن ما قيل له، وأسقط راي الحبوب في كف يده قائلًا: «أثبِت كلامك».

احمر وجه كيفن. ضحك بعصبية وفتش الحشد وعيناه واسعتان، على أمل أن يعرف أحد ما يجب فعله. لم يكن لدي أي فكرة عما كان من المفترض أن يفعل. لم تكن أساليب التدريس التي اتبعها راي تقليدية على الإطلاق. أطلق راي ضحكة ساخرة وأدار عينيه قائلًا: «هاك الحقيقة جميعًا. هذا الرجل كَذَب، ما يقوله محض هراء».

- لكن راي، أعني...

أغلق يده حول الحبوب: «بالطبع لن أقتل نفسي أمامكم جميعًا؟».

- أوه خصوصيتك هي ما تقلق بشأنه؟ أنت ذو قلب كبير فعلًا.

ظننت أنني رأيت كل جوانب راي، لكنني لم أر هذا الجانب قبلًا، لم يعجبني ما أراه، ولا حتى استسغته قليلًا. جاء صوت كيفن متوترًا: «لا بد أنك تمزح».

- أنت من قلتها بجدية يا صديقي، أنت الوحيد من وسط الحشد الذي رفع يده وأكد أنه مستعد ليموت في سبيل ما نؤمن به. جميعكم سمعتموه، أليس كذلك؟

حوَّل راي انتباهه نحونا، كما فعل دائمًا حين تحدث مع أحدهم، اعتمد علينا لنصير مرآة تعكس كلماته. لكن ما يحدث الآن لم يحدث قبلًا.

- هيا الآن، ماذا ستفعل؟ هل عنيت ما قلته؟ أم أنك تتفوه بمحض هراء لتثير إعجابي؟

وقف كيفن في مكانه ساكنًا، وعيناه على الأرض.

قال راي: «لن تفعلها، أليس كذلك؟ لست مستعدًّا للموت في سبيل ما تؤمن به حقًّا».

دفعه بهدوء: «اذهب واجلس».

خفض كيفن رأسه وهو يعود إلى مقعده. تحركنا جانبًا كما فعلنا من قبل، لكن كلمات التشجيع اختفت، وملأ الصمت المكان.

- أغلبكم لم يختبر التعلق بشيء بقوة، حتى ولو قال العكس، ربما تعلقتم بحبيب أو طفل، لكن الإيمان بشيء ما؟

حرك راي رأسه نفيًا: «مستحيل. خمنوا ماذا؟ هناك البعض ممن هم مستعدون للتضحية بأنفسهم من أجل إيمانهم. أولئك يرتدون سترات انتحارية، ويضغطون على الزر لينفجروا إلى أشلاء. ونحن ننظر إليهم كما لو أنهم مجانين، كما يفعل الجميع في مجتمعنا. لكن في الواقع، في حقيقة الأمر، إيمانهم بالهدف الذي يمليه عليهم إلههم قوي حتى إنهم مستعدون للموت في سبيله».

اندلع صوته كهزيم الرعد حوله، وبدا وكأن ألوانًا براقة تتراقص مندفعة من جسده: «هل التزمتم بإيمان بهذا القدر قبلًا؟ هل صدقتم في شيء ما بهذه القوة سابقًا؟ تخيلوا لو فعلتم وكيف سيغير هذا حياتكم. هذا هو النوع من الإيمان الذي من شأنه تحريك جبال، شق البحر».

لم أقابل من يملك مثل هذا الإيمان سابقًا، لم أمتلكه أنا نفسي بكل تأكيد. واصل راي: «لا أعرف رأيكم لكنني أرغب في أن أمتلك مثل هذا النوع من الإيمان، أرغب في أن أصير مستعدًّا لتفجير نفسي من أجل إيماني بشيء ما».

بدأت حركة تندلع في الحشد، نهض البعض في طريقهم للمغادرة. قال راي مناديًا إياهم: «أراكم وأنتم تغادرون. كل واحد منكم. أنت، وأنت أيضًا».

وأشار إلى الرجل الذي تعهد بالتبرع بالميراث الذي تلقاه لجمعية خيرية تعمل مع الأطفال المصابين بسرطان الغدد الصماء. بعد ذلك، أشار إلى مجموعة مدربي اليوجا وهم يدعمون بعضهم بعضًا محاولين ألا يخطوا على أحد في أثناء مغادرتهم.

- وأنت هناك، وأخيرًا أنت.

أشار وتوقفت أصابعه أخيرًا مشيرة إلى عائلة واحدة حضرت الخلوة. تُرك معظم الأطفال في المنزل.

- هذه الرسالة ليست للجميع، لو لم يرغب أحد في سماعها، من فضلكم.

حرك يديه مشيرًا: «انهضوا، لا تبقوا، غادروا معهم».

لوح بيده: «اذهبوا، رجاء اذهبوا، لستم ممن يبحث عنهم إيماننا».

جلست في صمت مفعم بالذهول. لم يطلب من الناس المغادرة من قبل. بالتأكيد علموا أنه لا يؤيد الإرهاب بالمعنى الحرفي بالكلمة، لكنه يُفسر نقطة ما لا أكثر، وهي نقطة مهمة بالفعل. أجبرت نفسي على إبقاء عيني للأمام على الرغم من أنني تحرقت شوقًا لمعرفة من سيغادر أيضًا. أين سيذهبون؟ لن تصل الحافلات حتى الغد. وذلك جزء من الصفقة. بمجرد أن جئت إلى هنا، لم يعد هناك أي وسيلة للمغادرة. وافقت على هذه الشروط عندما وقَّعت على اتفاقية السرية والشروط الأخرى كافة الخاصة بالخلوة. ومع ذلك، لا بد أن لديهم وسيلة مواصلات للطوارئ. ولكن إلى أي مدى سيشكل هذا انزعاجًا للجميع؟ بدا أن اللحظة ستستمر إلى الأبد وسيواصل المزيد من الناس الخروج إلى أن حوَّل راي انتباهه وتركيزه مرة أخرى إلى أولئك الذين بقوا منا.

- أيتها العائلة، الآن شهدتم شيئًا مهمًا للغاية. الإيمان الحقيقي ليس للضعفاء أو الخائفين، وأريد أن أشكركم على التحلي بالشجاعة. لدي سؤال قد يخيفكم أكثر. هل أنتم جاهزون؟

ترك لنا فرصة لاستجماع أنفسنا والعودة للجلوس في أماكننا بعد كل ما حدث.

- ماذا لو عشنا وكأن مصير العالم يعتمد على حبنا؟ ماذا لو كنا نحن؟ ركزوا معي. هل يمكنكم جميعًا التركيز معي؟ أعلم أنه كان يومًا طويلًا.

توقف لحظيًّا، متنفسًا بعمق لوهلة، وفعلنا جميعًا مثله: «هل بوسعكم أنتم أن تصبحوا حاملي راية الحب الحقيقي للعالم بطريقة ليس لها مثيل، ليست كأي شيء رأيناه قبلًا؟».

- نعم!

صاحت بعض الأصوات، وسرعان ما انضمت إليهم أصوات أخرى، أنا من بينهم: «نعم!».

- هل تظنون أن لديكم القوة لفعل هذا؟

- نعم!

نهضنا في لحظات واقفين، نشجع ونركل الأرض بأرجلنا، متحمسين لكوننا المختارين للتحدي، شاعرين بأننا مميزون لأننا نجحنا في اختبار اليوم.

استعدت تلك اللحظة المثيرة من جديد، وفكرت للحظة في إلقاء حقيبتي على السرير وإعادة أغراضي إلى الأدراج. عندما تذوقت الحياة الطيبة، وكيف كان من المفترض أن تكون الأشياء حقًّا، وكيف كان من المفترض أن تشعر بها، كان من المستحيل العودة إلى الوراء والتظاهر بأنك لا تعرف كم يمكن أن تكون الحياة رائعة. صرت مستيقظة الآن بطريقة لم أكن عليها من قبل. بعد أن بقيت غافلة لفترة طويلة، وكلما صرت أكثر استيقاظًا، أصبحت غير متأكدة مما رأيته حولي. حسدت التابعين لأنهم قادرون على عيش حياة تركز فقط على خدمة الله. هذه هي الطريقة الوحيدة للاقتراب من تحقيق ما تحدث عنه راي الليلة الماضية.

انتابني الفضول تجاه حياتهم، لكن كل شيء يتعلق بكيفية وصولك لتصير تابعًا، بما في ذلك الطريقة التي يعيشون بها حياتهم اليومية، ظل سرًّا محفوظًا تحت حراسة شديدة. لا تزال شريحة كبيرة من مجتمعنا تعتبرهم طائفة، على الرغم من مقالتي، لكنهم الطائفة الوحيدة التي أعرفها التي لا

تحاول تجنيد تابعين جدد أو ضم المزيد لصفوفهم، ولم يلمح أحد حتى إلى أن هذا احتمال. سألت مارجو عن ذلك ذات مرة، فقالت: «لا نرغب في أن ينضم الناس إلينا».

ضحكت بعدها لكنها كانت جادة، لم يرغبوا في مشاركة ما لديهم. لأن ما لديهم مميز. ورغبوا في أن يبقى مميزًا. لم أستطع لومهم لكن أحيانًا شعرت كما لو أنني متروكة في أثناء عشاء رسمي، لأجلس إلى طاولة الأطفال.

تركت ملحوظة شكر على الطاولة جوار الفراش، كما فعلت دائمًا بعد كل خلوة، وأغلقت الباب خلفي. لم أمتلك مفاتيح بما أنهم لم يؤمنوا بإغلاق الأبواب. أمضيت وقتًا أواجه صعوبة في التعود على الأبواب المفتوحة. الفكرة أصعب حتى من فكرة التعري حول النار ليلًا. ابتلعت مشهد الأشجار والسماء الخلابة مرة أخرى قبل أن أتوجه إلى الطريق الرئيسي لمقابلة الآخرين العائدين معي على متن الحافلات.

ثلاثة عشر

آبي

الآن

أسفل الطاولة في غرفة الطعام خاصتنا، سرت رجفة في ساقي، ظلت على هذا الحال منذ أن دعت كاميل الجميع إلى الاجتماع في الطابق السفلي، إلا أنها لم تسمِّه اجتماعًا. وصفته بجلسة لتبادل المعلومات وقالت إننا سنختم معظم الأيام بتلك الاجتماعات لفترة من الوقت. جلست ميريدث وأبي مجاورين لي على كلا الجانبين، وفي أي حالة طبيعية لغمرتني الراحة لذلك الوضع، لكن الآن شعرت بأنني عالقة. ربما عزا ذلك لوجود أولئك المحققين المصطفين أمام الجدار خلفنا، كالأشباح في منزلنا، ينتقلون في الأرجاء دون قول أي شيء، داخلين ومغادرين الغرف في أثناء قيامهم بعملهم. إحدى وظائفهم كانت إبقاء وسائل الإعلام خارج فناء منزلنا واحترام المحيط الذي أقاموه حولنا. والمسؤول عن هذا الجزء ظل أكثر انشغالًا منهم جميعًا، حيث واظب الغرباء على محاولة كسر الحدود والوصول إلى باب بيتنا عن طريق تقمص هوية أشخاص آخرين. سأصير سعيدة عندما يتركنا الجميع وحدنا.

وقفت كاميل إلى رأس الطاولة، تنقر بأصابعها بفارغ الصبر على الخشب بينما تنتظر دين وأحد المتخصصين الآخرين في مكتب التحقيقات الفيدرالي حتى يستقرّا في المقاعد على الجانب الآخر منا. أرسلت والدتي إلى الطابق

العلوي لتستريح مع شايلو قبل العشاء، واجتاح الارتياح قسمات أمي. قالت كاميل ما إن استقر الجميع فورًا: «حصلنا على أول النجاحات في القضية اليوم».

مددت يدي إلى يد أبي، متعلقةً به، كانت قبضته متعرقة.

سألت كاميل: «هل تعرفون منظمة تُدعى منظمة الحب الدولي؟».

التفتُّ مسرعة لأرى التعبيرات على وجه والدي، أول رد فعل سيبديه هو الدليل الحقيقي على شعوره الداخلي، بما أنه نجح طوال أعوام مضت في الإبقاء على قسمات وجهه حيادية.

- نعم، كتبتْ عنهم مقالًا رائعًا في العام السابق لاختفائها، والتحقتْ بالمنظمة. هل لهم يد في كل هذا؟

بدت الحيرة على قسماته وهو يجيب قبل أن تومئ كاميل: «يبدو أنها ظلت معهم طوال تلك الفترة التي اختفت فيها».

هذه المرة لا شيء تمكن من محو الصدمة عن وجهه: «ماذا! هذا مستحيل».

حرك رأسه نفيًا بسرعة: «كيف تعرفين؟ هل أخبرَتْكم بهذا؟».

لم يتغير تعبير وجه كاميل وهي تجيب: «نعم فعلت».

على مدار السنوات، تعرفتُ إلى كل شخص قيل إنه ربما ارتبط بقضيتها، ولم يُدرج اسم منظمة الحب الدولي في القائمة مطلقًا رغم دقة بحث أبي، كيف فاته هذا؟

- لكن، لكني، هذا لا...

ترك أبي يدي وفرك جبهته وكأن المعلومة أصابته بالصداع.

- لكنهم ساعدونا في البحث عنها، كوَّنوا فرقة في مقرهم وقاموا ببحث منظم. وزعوا المنشورات في المراكز التجارية ومحطات البنزين، أعتقد أنهم حتى نظموا سهرات على أضواء الشموع في حرمهم على شرفها..

قاطعته كاميل: «يمكن أن يُفعل كل هذا كنوع من إبعاد الشبهات عنهم، ربما هذا هو السبب. الجميع سيفكر فيهم كأشخاص طيبين ولن يتوقف أحد ليتساءل لو أنهم مصدر الشر فعلًا».

تجعدت قسمات وجه أبي: «لا أفهم، هل اعترفتْ بأنها كانت معهم؟».

- ليس في البداية، لأنه كما تعلم، التواصل معها صعب. بالنظر إلى ما مرت به.

أشارت إلى الجدران حولنا: «إحدى الطرق التي تهدئ بها نفسها هي تمتمة عبارات همسًا في أثناء سيرها، وغرفة المعيشة مُراقَبة، لذلك حلَّلنا كل الأصوات بحثًا عن عبارات مكتملة. ظلت تتفوه بعبارة الحب الدولي مرارًا وتكرارًا كلما تحدثتْ، لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا للبدء في تجميع الأدلة معًا بمجرد حصولنا على الاسم. يمكنك أن تشكر رجالي على مدى سرعتهم في إتمام مهامهم».

حدقتْ إليهم بنظرة تشجيعية: «هل تعرف قائدهم؟».

سأل أبي: «راي فيشر؟».

أومأت كاميل.

- سألتُها لو أنها تعرفه، في اللحظة التي تفوهتُ فيها باسمه بدا الأمر وكأنني كسرت تعويذة. واعترفتْ بأنها كانت مع راي ومنظمة الحب الدولي.

- لكن هذا ليس منطقيًّا، لِم يختطفونها؟ كلهم أحبُّوها بسبب المقال الذي كتبته عنهم، أقسموا إنها الوحيدة من خارج المنظمة التي فهمتهم. الجميع قال أشياء لطيفة عنها.

حرك رأسه نفيًا، مستنكرًا: «الشرطة قلقت بشأن معارضيها أكثر منهم».

رفعت كاميل حاجبيها: «معارضيها؟».

- نعم.

قالها أبي بحماس، سعيدًا بتقديم معلومة لا تعرفها بالفعل: «أعقب نشر مقالها سيل من رسائل غاضبة أُرسلت إلى محررها وأعمدة مقالية نُشرت، كتبها آباء غاضبون يعبِّرون فيها عن معارضتهم لها. قال البعض منهم أشياء بغيضة حقًّا عنها. ولفترة من الوقت اشتبهت الشرطة في مجموعة من أشد منتقديها. حتى إنهم تحدثوا إلى راي عن رسائل الكراهية التي تلقاها أيضًا، وسلَّمها لهم بكل سرور لإجراء تحقيقهم. كان عونًا حقيقيًّا».

هدأ صوته حتى أوشك على التحول إلى همس، قبل أن تسأل كاميل مجددًا: «ماذا عن شخص يُدعى آبنر؟ هل يبدو لك الاسم مألوفًا؟».

- آبنر؟

لم أر هذا القدر من الدهشة على وجه والدي سابقًا. أوضحت كاميل بهدوء: «نعم، آبنر».

وكأن أبي لم يستوعب ما قالته قبلًا، واصلتْ: «هذا اسم آخر من الأسماء التي رددتها مرارًا وتكرارًا، أحيانًا بدا وكأنها تتحدث معه مباشرة وكأنه يجيبها».

لم تكن كاميل في حاجة إلى أن توضح أكثر أن هناك شيئًا خطأ في هذا كله، ماذا فعلوا بأمي؟ لا بد أن ميريدث شعرت بألمي، لأنها مدت يدها لتقربني منها، قفزتُ للالتحاق بالحديث فور أن أُتيحت الفرصة لي: «كيف اختطفوها؟».

لم أترك لها الوقت لتجيب قبل أن يخرج السؤال التالي من فمي: «أين وضعوها؟ هل حاولت الهرب في أي لحظة؟».

انتبهت كاميل لي: «لا نعرف كل شيء بعد، لكن يمكنني أن أخبرك أن ما حصلنا عليه هو دليل عظيم لتضييق نطاق بحثنا، وأعتقد أن إجابات أخرى ستخرج للنور في الساعات الثماني والأربعين القادمة. اتصلتُ بأحد المتخصصين في تحرير الأشخاص من البرمجة العقلية التي تعرضوا لها في أثناء بقائهم مع طوائف لتنضم إلى قضيتها، من المفترض أنه...».

قاطعها أبي رافعًا يده: «إذًا منظمة الحب الدولي طائفة؟».

- تظهر عليها كل الإشارات التي تبدو على أولئك الذين تُغسَل عقولهم في أثناء بقائهم مع طوائف.

أعلنت كاميل تلك الحقيقة وكأنها تقدم لنا تقريرًا طبيًّا.

***

كيت

في الماضي

أمضينا أنا وسكوت أمسية جميلة مع آبي حيث لعبنا جميع ألعابها المفضلة -السلم والثعبان، وأحدث ألعابها المفضلة، أونو- صارت مرهقة عندما انتهينا ونامت بينما أقرأ لها. شغَّلنا أنا وسكوت فيلمًا واسترخينا أمامه على الأريكة. كنا في ليلة السبت، مما يعني أنه في منتصف الفيلم سيضع سكوت ذراعه حول كتفي ويقترب مني على الأريكة. لن يمر وقت طويل قبل أن يبدأ في فرك فخذي بطريقة لا تعني سوى شيء واحد. ثم نتجه إلى غرفة النوم ونستغرق في النوم بجانب بعضنا بعضًا بعد أن مارسنا الحب.

هاجمني رهاب الأماكن المغلقة حتى كاد يصيبني بالشلل. كل شيء دار حولي وانقبض صدري وكأن شيئًا بشعًا على وشك الوقوع، لكن لا شيء خطأ يحدث! على الرغم من هذا أصابتني القشعريرة وأنا أفكر في قضاء ليلة سبت أخرى والاضطرار إلى رؤية التعبير المُتألم على وجه سكوت إذا أخبرته ما شعرت به حقًّا.

سأل سكوت: «هل أنتِ بخير؟».

نهضت مسرعة: «أنا بخير، سأذهب لأحضر بعض الماء، هل ترغب في أي شيء؟».

أمسك بجهاز التحكم ووضع الفيلم في وضعية الانتظار حتى لأعود، مجيبًا: «لا، شكرًا».

حاولت أن أتصرف بشكل طبيعي وأنا أسير إلى المطبخ. جسدي مغطى بالعرق، وقلبي يتسارع. شغلت الصنبور ورششت الماء على وجهي. هذه هي اللحظة، تحدث راي بشأن هذه اللحظة.

رفعت رأسي ببطء وأمسكت بالمنشفة لتجفيف وجهي. شعر بهذا أيضًا. وهذا ما دفعه إلى البحث عن معنى أعلى. شاركني القصة خلال لقائنا الأول. ابتسمت متذكرة كم من الوقت مضى منذ ذلك الحين. كنت شخصًا مختلفًا.

أخذت كوبًا من الماء من الخزانة وملأته عن آخره، ثم تناولت جرعة كبيرة، على أمل أن يساعدني ذلك على التوقف عن الشعور وكأن حلقي ينغلق. هذه هي اللحظة، أليس كذلك؟ اللحظة التي تحدثوا عنها جميعًا- النداء. سلام مفاجئ ملأ دواخلي. سطع الضوء في كل مكان، مما كلل المطبخ بالكامل بهالة من السطوع لم أر مثيلتها قبلًا. وضعت الماء على المنضدة وسقطت على ركبتي، ويداي مطويتان على صدري. همست: «أنا هنا، استخدمني».

فتحت مجالي لاستقبال النور حولي، ملأني. جاء صوت سكوت مناديًا من غرفة المعيشة: «كيت؟ هل أنتِ بخير هناك؟».

- أنا آتية، قررت اختلاس بسكويتة بينما أنا هنا.

كذبتي الثانية الليلة. هذا هو الخطأ في الحياة الأمريكية المثالية التي أعيش. لم أستطع قول الحقيقة، في حين أن روحي تتوق لقول الحقيقة. وقفت ببطء، مستمتعة بالمعرفة والسلام قبل أن أعود إلى غرفة المعيشة للانضمام إلى سكوت. بدت الأصوات الصادرة من التلفاز بلا معنى. ذهبت بذهني إلى حيث يمكنني الرقص كما أردت. أذهلتني يد سكوت التي تفرك فخذي جالبة إياي لأعود إلى الحاضر. أخذتُ يده وأعدتها إلى حضنه قائلة: «أعتذر يا حبيبي، أعاني صداعًا سيئًا الليلة».

***

أربعة عشر

ميريدث

الآن

ذكَّرني سكوت بكيت وهو يسير في غرفة نومنا. غادرت كاميل والتزمنا جميعًا غرف نومنا طوال الليل: «ما زلت لا أستطيع أن أصدق هذا. أتمنى لو أنك قابلت راي. بدا الرجل عاديًّا جدًّا. أؤكد لكِ. عادي تمامًا. وكيت؟ أعني أنها أحبت الذهاب إلى اجتماعاتهم، واعتادت على الدوام الذهاب إلى تلك الخلوات الحمقاء، لكن تلك كانت طبيعة كيت فقط. شعرتْ بالملل بسهولة. أحبت تجربة أشياء جديدة. انتقلت دائمًا من شيء إلى آخر وتحمست على الدوام بالقدر ذاته تجاه أي شيء تفعله. هل كان من المفترض أن أعرف أن هناك شيئًا ما خبيثًا في هذا؟».

امتنعتُ عن الكلام، لم يرغب في الحصول على إجابة حقًّا على أي حال. حاولت التدخل عندما بدأ شكواه وسرعان ما تخليت عن الفكرة بعد أن هاجمني في الحديث. سأنتظر حتى يتعب نفسه وأحاول مرة أخرى. بينما دلفت إلى داخل حوض الاستحمام في غرفتنا الرئيسية جلس يتكئ على المنضدة. واستمعت إلى كلامه بنصف تركيز فقط بينما شغلت الماء أخيرًا. كان اليوم واحدًا من أصعب الأيام حتى الآن. على الأقل بالنسبة لي. ظل رأسي يدور في حلقة لا نهاية لها من السيناريوهات، كل معلومة جديدة تعيدني إلى

البداية، لأحاول اكتشاف الأمور من جديد. صرت منهَكة ولم أصل إلى أي شيء رسميًّا. دفعت رأسي خارج ستارة الحمام: «هل تعتقد أنه يمكننا التحدث عن شيء آخر؟».

توقف في منتصف عبارة أوشك على التفوه بها، ورمش وكأنني رششت الماء في وجهه: «ماذا؟».

- أعني، أنا فقط، أعتذر يا عزيزي لا أرغب في أن أثير غضبك أو أن أظهر بمظهر معدومة المشاعر لكن هل يمكننا الحصول على قسط من الراحة من كل تلك الدراما المتعلقة بكيت؟ لدقائق فقط، لا أقول حتى أن نفعلها لما تبقى من الليلة.

ضم شفتيه معًا وضاقت عيناه: «بالطبع يا عزيزتي، ما الذي ترغبين في الحديث عنه؟ فريق البيسبول؟».

- بربك يا سكوت! لا تتصرف بهذه الطريقة. هذا الأمر استهلك كل دقيقة طوال أسبوع مضى، سنستفيد كلانا من الراحة قليلًا.

همس بشيء ما لم أسمعه قبل أن يخرج من الحمام، لم يعتقد أنني سمعته، لكنني سمعت كل شيء، قال: «لمَا قلتِ هذا لو أن جيمس هو من عاد من الموت».

لكن هذه هي المشكلة، لسنا في الوضع ذاته. ولا حتى في وضع قريب منه. جيمس لم يكن قط زوجي القادم من الحكايات الخيالية، بل سكوت. ومع ذلك، لم أخبره ذلك قط، لأنه كيف يتسنى لك قول شيء كهذا؟ «مهلًا، بالمناسبة، أنا أحبك أكثر مما أحببت زوجي الأول»؟ لم أتمكن قط من الاعتراف بذلك له لأنه لن يتمكن من الرد عليه، وكنت دائمًا على ما يرام مع هذه الحقيقة، ولكن ماذا سيحدث الآن؟

انتهيت من الاغتسال على عجل، نشفت نفسي، لففت جسدي بالروب متمنية أن يكون سكوت قد ذهب إلى الفراش، لكنه كان جالسًا إلى مكتبه، يحدق إلى جهاز الكمبيوتر الخاص به. انزلقت في حضنه ووضعت ذراعي حول رقبته.

- عزيزي، أرجوك لا تغضب مني وتعال إلى الفراش، دع الأمر يمضي واحصل على قسط من الراحة، سيفيدك هذا في النظر إلى الأمور بصورة مختلفة في الصباح.

- لا، لا لن يفعل.

تجعدت قسمات وجهه كاشفة عن ألم: «تخيلت هذه اللحظة أكثر من مرة، كيف سأتصرف حين تعود، جهزت نفسي لهذا، كنت واثقًا من أنني سأتمكن من التعامل مع كل شيء ما دامت هي حية وبخير، جسديًّا هي كذلك، لكنها ليست الشخص نفسه يا ميريدث. ماذا لو لم تعُد كما كانت قط؟».

بالكاد أنهى العبارة قبل أن ينفجر في نوبة بكاء تتمزق لها نياط القلوب. أحطته بذراعيَّ وتمسك بي وكتفاه ترتجان. مسدت ظهره وهمست: «كل شيء سيكون على ما يرام، كل شيء سيكون على ما يرام».

الحزن والألم حُفرة بلا قاع، إن سقطت فيها، فهو سقوط حر كما لو أنك في الفضاء، شعور لن تتخيله ما لم تجربه قبلًا، تمسك سكوت بي حتى مضت اللحظة ثم ابتعد وهو يمسح وجهه بكمه، مقاومًا نوبة أخرى: «هذا كله خطئي».

أمسكت يده بيديَّ محدقة إليه: «استمع لي الآن، هلا فعلت؟ لن تخطو في هذا الطريق مرة أخرى، لا شيء من هذا هو خطؤك. لم تفعل أي شيء لتقود الأمور إلى هذا النحو ولم يكن بوسعك فعل أي شيء لمنعها».

أمضى سنوات في الجلسات العلاجية يغرِق نفسه بنفسه في إحساس المسؤولية الذي أكل روحه، مضى وقت طويل قبل أن أرى هذه النوبات تعود. أمسك بيديَّ ووضعهما في حضنه: «ربما، ما كُنتِ لتقولي هذا لو عرفتِ القصة كاملة».

التوت أحشائي وأنا أسأل: «ماذا تعني بالقصة كاملة؟».

تفوه سكوت بالنسخة ذاتها من ذلك اليوم في كل مرة سُئِل فيها- كان سعيدًا تمامًا، وزواجهما رائعًا، ويحبان حياتهما. قبَّلها مودعًا في الحمام قبل

أن يغادر إلى العمل وكانت تلك آخر مرة رآها فيها. ربت على فخذي: «لا عليك، أنا أتصرف بغباء».

أبعدني عن حضنه ليتمكن من الوقوف: «أنتِ محقة، أنا متعَب فقط. لنذهب إلى الفراش».

***

كيت

في الماضي

ألقيت ورق التواليت في عربتي ومسحت الممر بعيني بحثًا عن العلامة التجارية للمناشف الورقية المعتادة لدينا. أردت أن أتجه إلى مكبر الصوت وأعلن أنني قد دُعيت لأصير من الأتباع. استيقظت كطفل متحمس في صباح عيد الميلاد ولم أتوقف عن الابتسام. حتى جدالي مع سكوت هذا الصباح ونوبات غضب آبي السخيفة بشأن قميصها لم تزعجني.

هذا هو الحال مع النداء، وصدَق جميع الأتباع، عندما تعرف أنك اختِرت، تعرف. شعور لا يمكن تفسيره. ولكن ماذا سأفعل بعد ذلك؟ ذكَّرت نفسي بسرعة أنه ليس عليَّ أن أفعل أي شيء. سيستمر الله في الكشف عن نفسه لي بالطريقة نفسها التي فعلها الليلة الماضية. تمامًا كما كشف عن نفسه لراي والجميع. أردت أن أصفق. صرت رسميًّا جزءًا منهم. بصورة كاملة الآن.

اصطفت طوابير الخروج طويلة، لكنني لم أهتم. كان عليَّ جمع ملاحظاتي كافة من مصادري معًا طوال اليوم لأن الموعد النهائي لتسليم مقالي يوم الجمعة، وسيستغرق عملي اليوم كاملًا. لا أعرف كيف سأتمكن من الانتظار حتى الساعة الخامسة، حتى أتمكن من رؤية راي. ماذا سيقول عندما أخبره؟ كان عليه أن يتوقع ذلك. كم مرة قال إنه يشعر بأنني مميزة؟

ماذا سأقول لليو؟ لم يعمل أيٌّ من الأتباع، لأن التبعية وظيفتك بدوام كامل. ذلك أمر مفروغ منه. كيف سيكون رد فعل سكوت؟ وآبي؟ انقبضت معدتي في أثناء التفكير فيها. كيف سيتحول كل شيء؟ لا بد من وجود فترة انتقالية من نوع ما حيث يساعدونك في ترتيب جميع شؤونك. سأتعرف على كل الأسرار الداخلية. لم أستطع الانتظار حتى اليوم الذي يمكننا فيه العيش معهم في الحرم الداخلي.

التقطي نفسًا عميقًا، فكري في كل خطوة في وقتها.

قالت الموظفة في أثناء تسجيل مشترياتي: «شخص ما يبدو سعيدًا اليوم».

ابتسمتُ نحوها ابتسامة مشرقة: «حظيت بنهار رائع، ماذا عنكِ؟».

ابتسمت بدورها: «كل شيء عظيم حتى الآن».

مشيت إلى موقف السيارات، وأنَّبت نفسي لكوني قلقة ومتوترة للغاية. أين إيماني؟ الهدف كله هو قفزة الثقة، ولن تكون قفزة ثقة عمياء لو أنني عرفت بالفعل كل ما سيحدث بعد ذلك. الروابط العائلية جعلت الأمر أكثر صعوبة. سيسمحون لي بالعودة إلى المنزل ليلًا لأبيت معهم، أليس كذلك؟ على الأقل حتى ينضموا؟ ماذا سأفعل إذا لم أتمكن من التأثير على سكوت؟ قالت مارجو إنها تعرف الكثير من العائلات التي كافحت مع هذه المفاهيم قبل الانضمام إلى منظمة الحب الدولي، سيتفهم سكوت في النهاية.

لكن ماذا لو لم يفعل؟

هل سأتمكن من الذهاب إليهم وقتها؟

إلى أين أنا ذاهبة أصلًا فعلًا؟

رأسي يدور بالنقاش الذي خضته طوال الصباح. والآن بعد أن تلقيت النداء، صارت روحي تشجعني على اتخاذ الخطوة التالية. جلست في غرفة المعيشة حتى الثالثة صباحًا، لأنني لم أستطع النوم الليلة الماضية، قبل أن أعود إلى غرفة النوم على رؤوس أصابعي، حريصة على عدم إيقاظ سكوت.

هل من المفترض بي أن أذهب فقط هكذا؟

أنتقل؟

ماذا قال راي حين سألته في المرة الأخيرة؟ ألقيت بالحقائب في مؤخرة السيارة وتوجهت إلى مقعد القيادة. قبل أن أتذكر الاقتباس من متى «قال يسوع دع الموتى يدفنون موتاهم وأما أنت فاذهب ونادِ بملكوت الله».

تجمدتُ، وانزلقت المفاتيح من بين أصابعي لتسقط على المقعد. علت ضربات قلبي لتتأجج كصداع نابض في رأسي. وتساقط العرق على ظهري. عبارات من الإنجيل بدأت تعتمل في أحشائي.

لا تأخذوا شيئًا للطريق: لا عصا، ولا حقيبة، ولا خبزًا، ولا ثوبًا ثانيًا.

أسقطت حقيبتي عن ذراعي وتركتها على المقعد المجاور للسائق. ضربني الإدراك وكأنه الجزء الأخير من اللغز.

قلت بصوت عالٍ: «فهمت».

رغم أنني وحدي، رغم أن لا أحد ينصت لي. لم يبقَ شيء لأفعل سوى الذهاب. نزلت من السيارة، وأغلقت الباب خلفي. احترق جسدي بالطاقة كما لو أنني أشتعل. مشيت بسرعة، واتخذت طريقي يمينًا أولًا للخروج من موقف السيارات ثم انعطفت في اليسار التالي. عجزت عن احتواء حماستي وبدأت في الركض. لم أمارس الركض منذ المدرسة الثانوية، لكنني شعرت أنني أستطيع الركض لعدة أيام. لم يمضِ وقت طويل حتى انطلقت في سباق سريع ولم أتوقف حتى وصلت إلى حرم منظمة الحب الدولي. دخلت من الباب، مبتهجة ولاهثة، ولم أزعج نفسي بإلقاء التحية أو التحدث إلى أي شخص بينما انطلقت في طريقي إلى مكتب راي. لم أستطع الانتظار لأخبره. سيشعر بالفخر الشديد. طرقت على بابه. فجاء صوته من الداخل: «تفضلوا بالدخول».

دفعت نفسي للداخل فرفع عينيه عن المكتب محدقًا إليَّ بدهشة: «كيت؟ ظننت أننا لن نلتقي حتى وقت متأخر من اليوم؟».

لن أحتاج أبدًا إلى تحديد موعد آخر لرؤيته من جديد، أستطيع رؤيته كل يوم لو أردت. اتسعت الابتسامة المرسومة على وجهي.

- فعلتُها.

قلت وما زالت أنفاسي متقطعة: «رحلتُ، ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟».

***

خمسة عشر

ميريدث

الآن

في اليوم التالي، وصل المستشار المسؤول عن معاونة مَن غادروا الطوائف حديثًا. براين أودونيل. وقضى فترة ما بعد الظهر مع كيت. طلب التحدث معي ومع آبي وسكوت بعد أن أنهى جلسته معها. دخلنا إلى غرفة الطعام، التي سرعان ما أصبحت المكان المناسب لجميع الاجتماعات. كان متواضعًا وقصيرًا، أطول مني قليلًا، ومظهره لم يشِ بالكثير. في أوائل الأربعينيات من عمره، يميل الى السمنة، ويرتدي سترة معقودة فوق كتفيه، على الرغم من حرارة الغرفة. دار حول الطاولة وصافح الجميع قبل أن يجلس في المنتصف. عرضتُ عليه الجلوس إلى رأس الطاولة، لكنه رفض بسرعة.

جالت عينا براين في الغرفة بينما تحدث، متفحصًا كلًّا منا في أثناء حديثه: «مباشرة بعد أن اختفت كيت، لا بد أن هذه كانت من أكثر الأسابيع إرهاقًا نفسيًّا في حياتكم، أرغب في استقطاع دقيقة للتأمل والاعتراف بمدى ما مررتم به».

نظرت إلى سكوت بطرف عيني، لأنه في المعتاد كره كل ما يتعلق بالتأمل، لكنه صب انتباهه على كل كلمة تفوه بها براين.

- من خلال إدراك كل ما مررتم به، نحتاج أيضًا إلى التعرف على كل ما مرت به كيت. العالم يتحرك بشكل أسرع بكثير مما اعتادته. يبدو الأمر كما لو أنها قفزت بالزمن، لذا يمكنك أن تتخيل مدى ارتباكها. الآن ضع في اعتبارك أنها أمضت العقد الماضي منغمسة في طائفة مع زعيم يتمتع بشخصية كاريزمية للغاية وكونت مشاعر قوية جدًّا تجاهه، لتُعاقب كلما فكرت في نفسها أو فعلت أي شيء يعتبره خطأ، ومعزولة عن أي وجهات نظر أو أفكار أخرى قد تخبرها بطريق مختلف عما اعتادت.

سألتُ متفاجئة: «هل أخبرتْك بهذا؟».

لم أصدق أنه جعلها تخبره بكل ذلك في غضون ساعات قليلة، ولم يتمكن أحد من انتزاع أي شيء منها لمدة أسبوع. لا بد أنه رائع في وظيفته.

أجاب براين: «ليس بالتفصيل، لكن حصلتُ على ما يكفي من الأدلة لأبدأ بتجميع الصورة كاملة. بجانب أن الطوائف جميعها تقريبًا متماثلة».

- بمجرد أن تبدأ في الانفتاح، أنا متأكد من أن قضيتها ستتبع تطورًا مشابهًا مثل معظم الناجين من الطوائف، وهناك بعض الأشياء التي أريد التحدث عنها معكم قبل أن نمضي قدمًا.

حركنا رؤوسنا متفهمين فأكمل: «من المهم ألا نتعامل مع كيت بأي مستوى من العداء، سواء تجاهها أو تجاه أفكارها. إذا فعلنا ذلك، فسيعزز ذلك ما حفره راي والأعضاء الآخرون في رأسها لسنوات، وهو أنه لا يمكنك الوثوق بالغرباء لأنهم لا يفهمون معتقداتك أو موقفك. إذا اقتربنا منها وكأننا العدو، فكل ما سننجح فيه هو تعزيز كل ما علموها إياه. سيجعلها هذا تفكر في المغادرة إذا حدث ذلك. صدقوني، تعلمنا هذا بالطريقة الصعبة».

وشى الجد في تعبيرات وجهه بأنه صادق في كل كلمة.

- يروي الضحايا قصتهم في الوقت الذي يناسبهم وبالسرعة التي تناسبهم. في نهاية المطاف، يخبرونك كلَّ شيء، ولكن في بعض الأحيان تخرج المعلومة ببطء شديد. عادة ما يستغرق الأمر نحو عامين

لإلغاء برمجة الشخص الذي غُسل دماغه في طائفة دينية، ومن خلال ما رأيته وسمعته اليوم، أتوقع أن تتبع قضيتها جدولًا زمنيًا مماثلًا.

سأل سكوت السؤال الذي تاق لمعرفة إجابته: «كيف اختطفوها؟».

- لم يفعلوا، الطوائف في المعتاد لا تحتاج إلى اختطاف الأشخاص. المنضمون يغادرون عائلاتهم للانضمام إلى الطوائف بمحض إرادتهم.

بدت تعبيرات حزن على وجهه وهو يتابع: «أنا آسف».

قفز سكوت من مقعده أمام الطاولة: «مستحيل».

حرك رأسه نفيًا بسرعة: «هل أخبرتك بهذا؟».

- لا، لكن يا سكوت، احتمالية أن أحدًا من الطائفة اختطفها شديدة الضعف.

أبقى براين صوته حياديًا وهو يجيب لكن سكوت حرك رأسه نفيًا من جديد: «إذن فالإجابة هي لا، لست مقتنعًا بنظريتك، ولست مهتمًا بالكيفية التي تسير بها الأمور «في المعتاد». يستحيل أن كيت تركت عائلتها بمحض إرادتها، لا!».

نظر إلى آبي، حريصًا على أن تسمعه، ثم أشار إلى السلالم حيث تراجعت كيت عائدة إلى غرفة الضيوف بعد المقابلة وهو يقول: «الآن عد إلى هناك واعرف كيف اختطفوها».

بقي براين جالسًا، وجهه متجمد، بتعبيرات ساكنة رغم الغضب الذي تأجج من سكوت تجاهه.

- أنا آسف يا سكوت، آسف حقًا، وأعرف أنه يصعب سماع هذا، هكذا هو الحال دائمًا. لكن في لحظة ما ستضطر إلى تقبل أنك ربما لم تعرف كيت بالقدر الذي ظننتَه.

***

مضت أكثر من ساعتين منذ أن غادر براين، وكان سكوت لا يزال غاضبًا من اقتراحه بأن كيت ذهبت مع منظمة الحب الدولي عن طيب خاطر. اختلقتُ

عذرًا بعدم وجود الحليب للخروج من المنزل بعيدًا عن كل التوتر. بينما مضغت الجزء الداخلي من خدي بأسناني، سرت في ممر منتجات الألبان في متجر البقالة، وهي عادة عصبية لم أفعلها منذ سنوات، ولكن صعب عليَّ ألا أشعر بالقلق وسط تحديق الجميع إليَّ. حاول الناس التصرف كما لو أنهم لم يفعلوا، لكنني شعرت بأعينهم تحفر ثقوبًا في ظهري في أثناء التسوق. الآن فهمت لماذا قاد سكوت السيارة لمسافة خمس وأربعين دقيقة للقيام بمهامه بعد اختفاء كيت.

إذا صح أن كيت غادرت بمحض إرادتها، فستأتي هذه كضربة مدمرة لسكوت. لكن بمجرد تغلبه على الصدمة الأولى، ربما سيفيده معرفة هذا. لو أنهم لم يختطفوها فربما ليس علينا القلق من عودتهم لإعادتها أو محاولة إيذائنا. ربما كانت قادرة على المجيء والذهاب كما يحلو لها طوال الوقت. لكن هذا لن يفسر جسدها المشوه. وليس هناك أي لَبس في حقيقة أنها تعرضت للتعذيب. هذا شيء اتفق عليه الجميع بالفعل. لا شيء في كل هذا منطقي. رغبتُ في الحصول على وقت مستقطع لي، وشعرت بعدم الراحة لأنني مراقَبة طوال الوقت بهذه الطريقة، لذا ألقيت الحليب والبيض على عجل في عربتي وتوجهت إلى الخارج.

توقفت في طريقي إلى المنزل، على أمل أن نوبة الحراسة الليلية حلت محل نوبة النهار. لأن الأسئلة لم تتوقف حتى انتهت فترة عمل نوبة النهار، لم يعد لدي أي طاقة لمزيد من الأسئلة. فوجئت برؤية سكوت وكيت جالسين على الأريكة عندما دخلت من الباب. في العادة كان يقفز لمساعدتي، على الرغم من أنني لم أحمل سوى حقيبة واحدة، لكنه لم يتحرك من مكانه.

قلت: «مرحبًا جميعًا».

جاء صوتي أعلى قليلًا من المعتاد، بدا أنني قاطعت شيئًا. هل عليَّ البقاء؟ الانطلاق للمطبخ؟ نظرت إلى جدران غرفة المعيشة وكأنني لمحت بقعة غير مرئية فيها. سعل سكوت: «كنا نتحدث فقط».

شعرت بالحرارة تجتاح جسدي بالكامل وأنا أجيب: «حسنًا، حسنًا».

أشار إلى الكراسي أمام الأريكة: «ربما عليك البقاء بينما أنت هنا».

انتظر أن أجلس قبل أن يعيد انتباهه إلى كيت.

- أعرف أنني قلت إن المحادثة ستكون بيننا، لكن صدقيني، بوسعك الثقة بميريدث.

نظر إليَّ وابتسم ابتسامة صغيرة، بادلتُه إياها. لم تكن هناك فرصة للتحدث بخصوصية في غرفة مزودة بأجهزة مراقبة، لكنني لم أكن على وشك إخبارهما هذا. قال سكوت: «كيت، أنا أكره أن أفعل هذا بك، لكن التساؤل يأكلني من الداخل. أريد أن أعرف ماذا حدث في اليوم الذي اختفيتِ فيه. يعتقد براين وكاميل أنك غادرت للانضمام إلى منظمة الحب الدولي عن طيب خاطر. أخبرتهم أن هذا غير ممكن، وأنه لا بد من وجود تفسير آخر، وأنا أعلم أنك لا تريدين التحدث عن الأشياء التي حدثت، يا عزيزتي. أتفهَّم هذا».

نهض عن الأريكة وركع أمامها، وسرعان ما ومضت صور خطوبتهما في ذاكرتي. دفعت الصورة بعيدًا بينما حدق هو إليها واليأس مكتوب على قسماته كافة: «لكن أرجوكِ، أخبريني ماذا حدث ذلك اليوم. لستِ في حاجة إلى الحديث معي عن أي شيء مرة أخرى، أعدكِ، لكن عليَّ أن أعرف، هل اختطفوكِ؟ أم غادرتِ بمحض إرادتكِ؟».

امتلأت الغرفة بثِقل سؤاله. وتحركتُ للأمام في كرسيي، متأهبة لسماع الحقيقة مثل سكوت. أتى صوتها يعلو عن الهمس قليلًا: «غادرت».

- لكنني لا أفهم.

ملأت الحيرة عينيه.

- لِم عساكِ تغادرين؟ لماذا؟

انزلقت قطرات من الدموع على وجنتها في حين ارتعشت شفتها السفلى.

- أنا آسفة سكوت.

رفع يده ومسد وجهها بحنو، واثقة أنها الطريقة ذاتها التي لمس بها آبي حين كانت لا تزال رضيعة: «ذهبتِ بمحض إرادتك؟».

- نعم يا سكوتي فعلت.

جاءت إجابتها متبوعة بنشيج رج جسدها بالكامل. لم تتزحزح عينا سكوت عنها، حدق إليها بالحب ذاته الذي نظر إليها به قبل أن يتفوه بسؤاله: «لماذا كيت؟ أريد فقط أن أعرف السبب».

بدأ يبكي هو الآخر، متناسيًا وجودي في خضم حزنه. ضمت كيت شايلو إلى صدرها وهي تتمايل للأمام والخلف كعادتها حين تصير مضطربة. همست بشيء ما في أثناء حركتها. جاء صوت سكوت كطفل صغير يتوسل: «أرجوكِ يا كيت».

- انتظرتُ أن تأتي.

قالتها حين استطاعت الحديث أخيرًا: «لِم لَم تأتِ قط؟».

وغرق سؤالها في أعماق نوبة جديدة من البكاء.

***

كيت

في الماضي

أدخلني راي بسرعة إلى مكتبه وأغلق الباب خلفنا متسائلًا: «هل أنت متأكدة من أنك مستعدة؟».

باستثناء الزواج بسكوت، لم أكن متأكدة من أي شيء أكثر من أي وقت مضى: «أنا مستعدة».

انتقل إلى مكتبه، وفتح الدرج السفلي، وبحث بين الملفات حتى وجد ما كان يبحث عنه. أمسك به وأغلق الدرج. ليقول وهو يسرع إلى الباب: «انتظري هنا، سأعود حالًا».

تدفق الأدرينالين في عروقي. لم أستطع أن أصدق أنني فعلت ذلك. انتابني الدوار بطريقة لم أشعر بها منذ أن كنت طفلة صغيرة. متى سأبدأ تدريبي؟ لا بد من وجود نوع من التدريب، لأن هناك صفًّا لدراسة كل شيء تقريبًا. هل مضى التدريب بالطريقة ذاتها مع الجميع؟ تساقطت الأسئلة طبقات فوق الأخرى في أثناء انتظاري. لحسن الحظ لم يمضِ وقت طويل قبل أن يعود راي مع مارجو. هرعتْ إلى الغرفة وألقت ذراعيها حولي: «أنا سعيدة للغاية من أجلك».

صاحت مبتهجة، تتقافز للأعلى والأسفل. كان ذلك جانبًا منها لم أره قبلًا. بدت جادة وحادة طوال الوقت، وزوجها، ويل، ميَّزه الطبع ذاته. على الرغم من أنهما في الثلاثينيات فقط من عمرهما فقد بدا كلاهما أكبر من عمرهما بكثير. جمعها لشعرها طوال الوقت على هيئة كعكة كذلك لم يعِنِّي في نفض تلك الصورة التي كونتها عنها. قلت وأنا أضحك معها بينما تديرني في جميع أنحاء الغرفة: «شكرًا لكِ».

سألتني: «هل تشعرين بالتوتر؟».

أومأتُ، معترفة بكم المشاعر المختلفة التي تدور داخلي حتى إنني عاجزة عن التركيز على إحداها.

- كنت خائفة حتى إنني عجزت عن التوقف عن الارتجاف، في الغالب انتابني القلق من كيف ستسير الأمور أو متى سنلتقي أنا وويل مجددًا، بما أن ستة أشهر كاملة مرت.

كان ويل هو التابع الأول لمنظمة الحب الدولي. أحد التابعين القلائل الذين عرفوا راي قبل أن يتخلى عن كل ممتلكاته. وجده راي فاقد الوعي في زقاق في ديترويت، تفوح منه رائحة الخمر والقيء. جرده شخص ما من ثيابه كافة وكأنه يسطو على سيارة، وتركه بملابسه الداخلية وقميصه. أحضره راي إلى شقته ورعاه حتى عاد إلى صحته. رافقه خلال فترة التعافي المبكرة، وصارا رفيقين منذ ذلك الحين. التقت مارجو مع ويل في عامه الثاني من التعافي،

لكنني لم أعرف أكثر من ذلك. أملت أن تخبرني المزيد عن قصتها عندما أصبح تابعة رسمية.

- كيف سارت الأمور؟

- لم أتخيل البقاء بعيدة عن سكوت كل هذه الفترة، أقصى مدة قضاها أحدنا بعيدًا عن الآخر لم تتعدَّ أسبوعًا.

بدا الأمر وكأننا وقعنا في الحب توًّا من جديد، بل أفضل، لأن كلينا صار نسخة أكثر حِكمة من نفسه.

اعتنقت مارجو إيمانًا مختلفًا قبل انضمامها إلى منظمة الحب الدولي، وربما هذا هو السبب وراء استغراقها وقتًا طويلًا قبل الانضمام. على الأقل آمن سكوت بالله، لذلك سيكون أكثر انفتاحًا على أي خطوات أعدوها من أجله. سيتابع كل ما يطلبونه منه، أليس كذلك؟ بدأ عقلي التحليلي في الجموح مرة أخرى. كان عليَّ أن أبقي تركيزي على الجانب الروحي.

قاطع راي المحادثة: «أعرف أنكما متحمستان سيدتيَّ، لكن سيسنح وقت آخر للحديث، الآن علينا مساعدة كيت على الاستقرار بأقصى سرعة ممكنة».

أشار إلى الباب وتبعناه للخارج إلى الممر. تبعنا الطريق يسارًا حتى نهايته ثم انعطفنا بيسار آخر قبل أن نصل إلى أبواب مزدوجة. أدخل راي الشيفرة لتفتح على الخارج. كاشفة عن طريق مفروش بالحصى. قبل أن يقول: «هنا نُبقي شاحناتنا الإضافية».

خلت الساحة من أي شيء عدا شاحنة صغيرة في الجانب البعيد منها. لم تكن كتلك الشاحنات البيضاء المستهلكة التي قادوها إلى أعمالهم التطوعية، يأكل الصدى حواف إطاراتها. هذه سوداء وبلا نوافذ. مريبة كالشاحنات التي يقودها مُختطفو الأطفال. قلت لراي مازحة: «شاحنة لطيفة».

لضحك لو أن الموقف اعتيادي، لكنه تجاهلني وهو يعبث بقفل الباب. أصدر صوت نقر قبل أن ينزلق مفتوحًا ليشير هو إلى الداخل قائلًا: «ادخلي».

ضحكت وتحركت إلى مقدمة الشاحنة لكنه أمسك بذراعي من الخلف ليكرر: «لا، أنا جاد، ادخلي».

- لم أعتقد أنك جاد.

تمتمت شاعرة بالحرج لحظيًا قبل أن أكمل: «إلى أين...؟».

لكنني منعت نفسي قبل أن أستكمل، الإيمان المطلق، هذا ما اعتمدت عليه الآن.

صعدت إلى الخلف واستدرت لمساعدة مارجو في الدخول، لكنها كانت قد اختفت. استطعت التخمين من التعبير على وجه راي أنه لن ينضم إليَّ أيضًا. ابتسمتُ ابتسامة غريبة وهو يغلق الباب، وبذلت قصارى جهدي لأبدو شجاعة. نقر المزلاج خلفه، واجتاحني الذعر. أجبرت نفسي على التنفس وأعطيت عيني ثانية للتأقلم مع الضوء. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، وبينما بدأت عيني تعتاد الضوء رأيت أن جميع مقاعد الشاحنة قد انتُزعت، واصطفت أكياس النوم والوسائد على الأرضية. أُغلقت الأبواب الأمامية بقوة، وفي غضون ثوانٍ أعاد مفتاح التشغيل الحياة إلى الشاحنة. سقطتُ بسرعة على الأرض، محاوِلة ترتيب الوسائد حولي بطريقة مريحة والعثور على شيء أتمسك به. تحركت الشاحنة إلى الأمام، وسارت ببطء في البداية ولكنها زادت سرعتها بسرعة، مما عنى أننا انتقلنا إلى الطريق السريع.

هل اتصل أحد بسكوت بعد؟ لم تكن لدي أي فكرة عن جدول أعماله اليوم لأننا لم نتحدث عنه قبل مغادرته للعمل هذا الصباح. كل ما فعلناه هو خوض ذاك الشجار الغبي. غضب مني بالفعل وسيشعر بالانزعاج أكثر عندما يكتشف ما فعلتُه. أملت أن يجيب على مكالمتهم، لكنه كوَّن عادة فظيعة في تجاهل الأرقام التي لم يتعرف عليها. ماذا لو لم يستمع إلى بريده الصوتي حتى وقت لاحق من بعد ظهر هذا اليوم؟ احتجت إليه ليصطحب آبي من الحضانة التمهيدية. لا يسعني القيام بهذا الآن. كيف ستسير الأمور الآن؟ حجم ما فعلته اجتاحني.

احتجت إلى السيطرة على نفسي وإدراك أنهم فعلوا هذا قبلًا، لسنا العائلة الوحيدة التي عانت وضعًا معقدًا ولست بحاجة إلى معرفة التفاصيل كافة. أخبرني راي مرارًا أنه عليَّ أن أحرر سيطرتي وأسمح للحياة أن تتكشف

بشكل طبيعي أمامي. أجبرت نفسي على الاستلقاء على البطانيات والتركيز على تنفسي. لم أستطع أن أفعل أيًّا من هذا إذا لم أستعِد تركيزي. هدَّأني الاستماع إلى ضجيج الطريق، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يهدِّئني حد النوم. انجرفت بين نوم وصحو، توقظني المطبات والمنعطفات قبل أن أعود إلى النوم. سافرنا بالسيارة لما بدا وكأنه أيام، ولكن ربما هي محض ساعات فقط. بدا كل شيء عالقًا لفترة أطول من اللازم في الظلام. وأخيرًا توقفت الشاحنة، وفتحت عيني. تحركت الأقدام إلى جانب الشاحنة. نقر القفل وفتح راي الباب. أشرق ضوء أعمى عينيَّ، ودفعني لإغلاقها. مد يده، وخرجت إلى الشمس. استغرق الأمر مني بعض الوقت للتأقلم بعد البقاء في الظلام لفترة طويلة.

توقفنا أمام مزرعة قديمة، تحيط بها الأشجار الكبيرة دائمة الخضرة من كل جانب. مال السقف إلى اليسار، وتقشر الطلاء الأصفر الباهت متفتتًا لقطع صغيرة، استقرت سلمتان من سلالم الشرفة مُحطَّمتين، وإحدى النوافذ مغطاة. يحيط بكل هذا عشب طويل غير مشذب. فازت الطبيعة في المعركة ضد الفناء منذ فترة طويلة. مضى راي حول المنزل إلى الخلف، وأسرعتُ خلفه. وسألت: «أين مارجو؟».

محاولةً اللحاق به، ما زلت شاعرة بالضعف من طول رحلة السيارة.

- بقيت للاهتمام ببعض الأمور.

بدأ على الفور في إزالة كومة من الشجيرات المتكئة على الجزء الخلفي من المنزل. تحركت للمساعدة، وعملنا بصمت جنبًا إلى جنب بينما بدأت الشمس تغيب في السماء. أصبحت الكومة أصغر حجمًا، لتكشف عن بابَي القبو الهائلين، مغلقين معًا بقفل قديم. أخرج راي مفاتيحه من جيبه وبحث بينها حتى وجد المفتاح الصحيح. فتح الأبواب، ليملأ الغبار أنفي. قادت السلالم إلى الظلام. أشار راي إليها. خفضتُ رأسي وخطوت في الظلام، ممسكة بالسور على اليسار لتثبيت قدمي بينما أتخذ طريقي إلى الأسفل. وصلت إلى الأسفل واستدرت لأنظر إلى راي، منتظرة أن يتبعني. لكنه لم يفعل. وقف هناك ينظر

إليَّ بتعبير غريب على وجهه. ثم، دون أن ينبس ببنت شفة، مد يده وأغلق أحد الأبواب. لن يأتي معي؟

- راي؟

ناديته، لكنه أغلق الباب الثاني، صرخت بصوت أعلى هذه المرة: «راي!».

تحركت مسرعة إلى أعلى السلالم لأدفع الأبواب، لكنها لم تتحرك. طرقتها بقبضتيَّ صارخة: «ما الذي يحدث؟».

لا شيء.

بدأ الصمت يرن داخل أذنيَّ، ما الذي يحدث؟ مضى الذعر في جسدي فوبخت نفسي.

استرخي.

هذا جزء من الانتقال.

كررتها مرارًا كتهويدة حتى بدأ الخوف يتراجع وبدأ ذهني يهدأ.

أديت تمارين التغلب على الخوف قبلًا، ووقفت عارية أمام المجموعة بأكملها. كلنا كنساء فعلناها للتخلص من تركيزنا غير الصحي على أجسادنا. بكينا جميعًا. وارتجفتُ في معظم الوقت. لكنني اجتزت تلك التجربة والتجربة التالية أيضًا، تمامًا كما سأجتاز هذا. أخرجت نفسًا عميقًا، وانبسطت عضلاتي ببطء. استدرت وعدت إلى القبو.

لم يضم القبو أي نوافذ، اقتصر على أربعة جدران خرسانية فقط. بدأ الطلاء بالتشقق في بعض الأماكن، كاشفًا عن صفوف من الطوب تحتها. اقتُلعت بعض القطع كما لو أن شخصًا ما حاول حفر طريق للخروج. قاومت الأسئلة التي ارتفعت إلى أعلى حلقي وركزت انتباهي على الزاوية الأخرى. هناك استقرت مرتبة عليها بطانية رقيقة. لا وسادة. الشيء الوحيد الآخر في القبو هو دلو. وارتجفت بمجرد التفكير فيما قد يكون هدف وجوده. لطمتني فظاعة كل هذا، لم أتوقع أن يكون الأمر مقرفًا إلى هذا الحد. لا شيء في هذا سار كما تخيلت. لكن هذا هو الهدف، أليس كذلك؟

فجأة كل ما أردت فعله هو النوم. لم أشعر بتعب مماثل لهذا قبلًا. استلقيت على الفراش، وأسندت رأسي على ذراعي. كانت المرتبة غاية في الرقة حتى إن وزن جسدي ضغط عليها لأشعر بالأرض. جعلتني الرائحة الكريهة للبطانية أرغب في التقيؤ، مزيج من رائحة العرق والبول. هل نسوا التنظيف بعد أن استخدم آخر شخص هذا المكان؟

تكومت على جانبي. كيف سارت الأمور مع سكوت؟ هل اعتراه الغضب عندما أخبره راي ما فعلته؟ كيف ساعد راي العائلات خارج المنظمة على فهم أهمية التبعية؟ على الأقل سكوت يفهم الالتزام والتضحية، حتى لو لم يوافق على ما فعلته. على عكس آبي التي لن تفهم أي شيء، لكنني سأجلس معها عندما تكبر وأشرح لها كل شيء، وستفتخر بي بعدها. أسندت رأسي على ذراعي، وأبعدت البطانية عن وجهي، وأغمضت عيني، شاعرة بالتعب الشديد حتى إنني عجزت عن إبقائهما مفتوحتين لفترة أطول.

***

عجزت عن حساب كم مضى من الوقت منذ أن وضعني راي في هذه الغرفة. ربما محض ساعات. أو ربما أيام. لا فكرة لدي. استقر في القبو مصباح كهربائي صغير مُضاء طوال الوقت، لذا افتقدت لوسيلة لمعرفة ما إن كنا ليلًا أو نهارًا أمام ضوئه الخافت. الحرارة الشديدة أيضًا وكأنني أُطهى ببطء داخل ميكروويف لم تساعد، والدلو في الزاوية غرضه هو ما توقعته بالضبط، حتى الآن لم أضطر إلى استخدامه سوى مرة واحدة. ولم يكن هناك أي ورق تواليت. المكان برمته فاح برائحة البول.

اعتصرت معدتي، لم أتناول أي شيء أو أشرب منذ أن تناولت الكرواسون مع قهوتي في الصباح الذي غادرت فيه، ومضى وقت طويل على دخولي مرحلة الجوع المُطلق. حمدت الله أنني كنت على استعداد للصيام. هذا الجزء من الرحلة مألوف، وعدم تناول الطعام سيسهل عدم الاضطرار إلى الذهاب إلى الحمام.

سرت مُحمَّلة بتوتر وطاقة بقيت تتراكم، حتى إنني عجزت عن المشي أكثر من بضعة أمتار قبل أن أضطر إلى الالتفاف في الاتجاه الآخر. سبع خطوات إلى الباب وسبع خطوات إلى الخلف. خمس خطوات فقط عرضًا. مررت بلحظات كاد فيها الذعر أن يسيطر عليَّ، ولكن حتى الآن تمكنت من السيطرة على عقلي.

كنت قد انزلقت للتو مستندة إلى جدار الطوب، لأحط على الأرضية الخرسانية عندما سمعت ذلك الصوت، صوت لم يصدر مني. انتفضت واقفة. هل يأتي من الأبواب؟ تكرر مرة أخرى. وهذه المرة لم يكن هناك أي شك في وجود شخص ما أمام الأبواب. اندفعت نحوها بمجرد أن انفتح أحد جانبيها، وغمرني ضوء الشمس. سحبني راي إلى الخلف. تعثرت إلى الوراء على الدرج، وثبتُّ نفسي على الحائط.

أمرني بحدة: «تراجعي».

أمسك بذراعي وثناها حتى أصير في مواجهة القبو. شيء ما في الطريقة التي أمسكني بها جعلني أدرك أن لا خيار لدي. خرج صوتي كما لو أنني طفلة.

- ما الذي يحدث؟ ماذا يحدث يا راي؟ لا أفهم.

حاولت عدم البكاء وأنا أخطو من جديد للقبو، أردت فقط الشعور بضوء الشمس. تبعني للأسفل متفحصًا المكان بنظرات قليلة قبل أن ينصب تركيزه عليَّ. انتصبتُ فورًا، ماسحة عيني بأطراف أصابعي. سعلت بتوتر وحاولت أن أبدو منتبهة. كان كل شيء مظلمًا لكنني ما زلت قادرة على رؤية خيبة الأمل في عينيه.

- في أي يوم نحن؟

- الأربعاء.

غادرت يوم الاثنين. أردت مد يدي إليه، لكن ذراعيه كانتا مطويتين على صدره. ووجهه جامدًا، غير عاطفي، كما يفعل عندما يتوقع منا أن نمر بمشاعرنا التي تؤرقنا دون أن يواسينا أحد بأي شكل من الأشكال. كان هذا

الوضع مروعًا. انفجرت في البكاء، وانفجرت مني كل المشاعر التي مررت بها في الساعات القليلة الماضية -أو الأيام- التي لم أعرف بمرورها حتى. هذا جزء من المشكلة. كيف كان من المفترض أن أركز على ما أنا به في غياب ما يوجهني إلى الزمان والمكان؟ توسلت: «أرجوك أخبرني بما يحدث».

- ستمرين بتجربة الحياة أربعين يومًا في الصحراء. تمامًا مثل يسوع.
- أربعون يومًا؟ لم يقل أحد أي شيء عن أربعين يومًا. هنا؟

أومأ.

- وحدي؟

جاء صوتي ضعيفًا للغاية.

- قبل أن يبدأ يسوع كهنوته، ذهب وحده إلى الصحراء واختبره الشيطان مدة أربعين يومًا. بذل كل ما في وسعه ضده، لكن يسوع صمد أمام كل هجوم. كان عليه أن يثبت لله أنه سيصمد أمام كل الاختبارات ضده. وقد فعل. ويتوقع الله الشيء نفسه من أيٍّ من تابعيه عندما يستعدون لكهنوتهم.

حركت رأسي: «لا أستطيع فعل هذا، أنا آسفة لا أستطيع».

بكيت، شعرت بأنني فاشلة، لكنني عجزت عن تحمل دقيقة واحدة أخرى.

- سأتفهم إن كنتِ لا تملكين ما يتطلبه الاختبار.

كشف وجهه عن ابتسامة رقيقة.

- كل شيء على ما يرام كيت، الله يحبك كما يحب جميع أبنائه، لا شيء سيغير هذا.

أشار إلى السلالم خلفه: «هناك بابان أعلى السلالم وهما مفتوحان عن اتساعهما. هل تعرفين كم من الأشخاص يتراجعون في هذه المرحلة؟».

- حقًّا؟

تجعد حاجباه مدهوشًا.

- هل تمزحين؟ بالطبع!

أشار إلى الجدران الحجرية حولنا.

- هذه مرآة تعكس ذاتك عارية.

ضحك، ونجحت ضحكاته في فك العقدة التي اعتملت في أحشائي بعض الشيء.

- على الرغم من كل شيء، ظننت حقًّا أنك واحدة منا.

مال ليبعد إحدى الشعرات المجعدة عن وجهي، ليضعها بهدوء خلف أذني. ذبت من لمسته، وكأنني في حماية رحم كوني.

- رأيت فيك روح محارب دائمًا، وفي المعتاد أنا لا أخطئ في هذه الأمور.

- أنا محاربة.

قلتُ شاعرةً بالإهانة فورًا ودفعت يده بعيدًا عن وجهي. ألم يعلم بما فعلته للتو؟ كل ما مررت به؟ ابتعدت عن زوجي وابنتي. لم أبتعد عن أيٍّ منهما لأكثر من بضعة أيام في كل مرة، تركتهما لأنني ملزمة ببذل قصارى جهدي. أي شيء. أحببتهما وكأنهما جزء من جسدي. إذا لم تكن هذه روح محاربة، فأنا لا أعرف ما هي. رفع حاجبيه: «حقًّا؟».

- نعم.

- إذن دعيني أسمعك تقولين ذلك.

قالها، وتقدم نحوي حتى صرنا نقف تمامًا في مواجهة بعضنا بعضًا.

- أنا محاربة.

- أعلى.

- أنا محاربة!

- أريد سماعك، هذا ليس عاليًا بما يكفي.

- أنا محاربة!

صرخت حتى جُرِح حلقي. أمسك بي وأدارني حول نفسي.

- هذا ما أتحدث عنه، اكسري حدودك.

دارت الجدران حولي من دواري، قبل أن يتوقف.

- السلاسل التي تقيدك بدأت تنحل الآن، في هذه اللحظة، هذه اللحظة بالذات. أعرف أنك تشعرين بهذا أيضًا. يؤسفني أن تضطري إلى تركها.

حدق إلى عينيَّ: «ما إن تذهبي، لن تحظي بهذه اللحظة مجددًا، أبدًا. ستختفي».

ابتلعت الذعر العالق في حلقي، رافضة أن أبعد نظري عنه: «غيرت رأيي، سأبقى».

- أملت أن تقولي هذا.

مد يده لحقيبة ظهره ليخرج لي كيسًا ورقيًّا، وألقى بزجاجتَي ماء على الأرض.

- هنا ستقابلين الإله حقًّا.

***

ستة عشر

آبي

الآن

لم أذهب إلى الفراش مبكرًا منذ أن كنت في العاشرة من عمري، لكن الأمور كانت غريبة جدًّا في الطابق السفلي لدرجة أنه بمجرد أن قالت أمي إنها يجب أن تضع شايلو للنوم، تظاهرنا جميعًا بالإرهاق وانطلقنا للطابق العلوي نتبعها. الاسترخاء في غرفة معيشتك في وجود كاميرا فوق المدفأة ومحققين يتجولون هنا وهناك في مطبخك لتسخين الوجبات التي أحضروها إلى المنزل استحال. لكن لم ينم أيٌّ منا. وانتقلت همسات أبي وميريدث الخافتة إلى غرفتي، في حين ترددت أصداء صرخات شايلو في جميع أنحاء المنزل. اعتادت النوم طوال اليوم لتستيقظ ليلًا، كما لو أنها جاءت إلى العالم رأسًا على عقب، مما يعني أن أمي ستبقى مستيقظة معظم الليل مرة أخرى. ازداد سوء الهالات تحت عينيها بدلًا من أن تتحسن. كيف كان من المفترض أن تمر بكل هذا دون أي نوم؟

تصفحت هاتفي، لأتابع ما يقوله الجميع عنا على وسائل التواصل الاجتماعي. وُضعت صورنا في كل مكان. لم تؤرقني تلك التي ظهرت عندما اختفت أمي، لأنني رأيتها مئات المرات، لذلك اعتدتها، وبالإضافة إلى ذلك، كانت الصور لطيفة. اختاروا لي أكثر الصور روعةً لينالوا من قلب المعتدي

على أمي، لكنني كرهت صورتي الحالية، لأنها كانت صورتي المدرسية من العام الماضي، وبدوت فظيعة. ومع ذلك، لم أتمكن من الاعتراض عليها، لأنه لم يفترَض أن أهتم بوسائل الإعلام من الأساس. أخبرني مرور سريع على الأخبار أن لا شيء تغير، ما زال النقاش دائرًا عن اقتناع بأن لأبي علاقة باختفاء أمي، كما فعلوا دائمًا.

أطلقت شايلو نحيبًا آخر، ووضعتُ هاتفي على المنضدة. أمي المسكينة. كان عليَّ أن أساعدها. لم أستطع أن أفعل الكثير بخصوص الطفلة، لكن على الأقل لن تضطر إلى البقاء بمفردها. ثم إنني كرهت أن أبقى وحدي في منتصف الليل، لأن هذا أشعرني بوحدة فظيعة. هذا أكثر ما أكرهه بشأن الأرق. هل عانت الشيء ذاته؟ هناك الكثير مما أردت معرفته عنها. كنت بحاجة إلى التوقف عن الشعور بالخوف الشديد. شجعت نفسي بحديث حماسي أخير قبل أن أنهض وأتجه إلى غرفة نومها على أطراف أصابعي.

طرقت الباب بهدوء، ففتحت أمي الباب وهي تهدهد شايلو على ذراعها الأخرى. همستْ: «أنا آسفة أنا آسفة».

قلت وأنا أبتسم لها: «كل شيء على ما يرام، لم توقظيني، ما زال الوقت باكرًا على موعد نومي».

فتحت أمي الباب أكثر: «هل ترغبين في الدخول؟».

توتر صوتها، فقلت: «أعني لو أنك على ما يرام مع هذا، لو أنني لن أتسبب في إزعاج».

- لا مشكلة.

استقرت نظراتها تجاه الأرض عندما دخلنا غرفتها. السرير لا يزال على حاله. جلست على أطرافه، وانتظرت منها أن تجلس بجواري، لكنها أغلقت الباب خلفنا ووقفت في وسط الغرفة الصغيرة بدلًا من ذلك، تتمايل ذهابًا وإيابًا وشايلو بين ذراعيها. اتسعت عينا الطفلة على مصراعيهما، واعية منتبهة تحدق إلى أمي بعجب.

- هل لا تزالين تنامين على الأرض؟

أومأتْ. كرهتُ سؤالها حين قضت طوال اليوم تعاني مع الإجابة عن أسئلة. لكن هناك الكثير مما رغبت في معرفته عنها. عبثت بأحد الخيوط في البطانية، لألفه حول إصبعي وأنا أسأل.

- هل يمكنني سؤالك عن السبب؟ بإمكانك الامتناع عن إخباري إذا أردتِ، أعني، أعرف أنك على الأرجح ضقتِ ذرعًا بالأسئلة التي يوجهها الجميع لك.

قالت بإقرار: «لا ننام على الأسرَّة».

- لماذا؟

لم أتخيل النوم على الأرض الخشبية، كرهت النوم على الأرض حتى لو أنني مستلقية على فراش التخييم السميك.

- علينا قتل رغبات أجسادنا.

جاء صوتها مريبًا كصوت آلي.

لم أسمعها تتحدث بهذه الطريقة من قبل. لم أرغب في طرح المزيد من الأسئلة حول السرير. نظرت إلى الغرفة، مركزة على لون القهوة الداكن على الجدران التي أقسمت ميريدث وأبي إنهما سيتعاملان معها في خطوتهما التالية في مشروع تحسين المنزل.

- ما لونك المفضل؟

سألتُها فجأة.

- لون؟

قالتها وكأنني فاجأتها، ثم انطلقت منها ضحكة صغيرة قبل أن تضع يدها على فمها. ربما لم يسمحوا لها بالضحك أيضًا، لكنها أجابت: «الأحمر».

ثم وكأن عليها قولها من جديد لتأكيد المعلومة لنفسها، كررت: «الأحمر».

- هو لوني المفضل أنا أيضًا.

أملت سرًّا أن تختار هذا اللون. ربت على الفراش جواري: «اجلسي».

حركت رأسها نفيًا والتفتتْ حتى لا أرى وجهها.

- أنتِ تجلسين على الأريكة في الدور السفلي، ما الفارق؟

حاولت أن أبقي صوتي حياديًّا بقدر المستطاع وأنا أتابع: «أنا فقط فعلًا أرغب في أن أفهم، أريد أن أعرف يا أمي».

تلك المرة الأولى التي أقولها فيها، أمي، وعلقت الكلمة في الهواء بيننا. التفتَت للخلف وعيناها مبتلتان، لتقول وصوتها يرتجف في أثناء حديثها: «لا بد أنك تكرهينني».

أجبت: «لا يمكنني أن أكرهك أبدًا؛ أنتِ أمي».

تساقطت الدموع على وجنتيها: «وأنتِ ابنتي الأخرى».

هل حاولت نسياني كما حاولت نسيان النوم على الفراش؟ أم أن جزءًا منها شعر دائمًا بوجودي أنا أيضًا، بالضبط كما شعرتُ بوجودها طوال تلك السنوات؟ كما لو أنه وشم دائم، رغبة مؤلمة في شيء مجهول. هل فعلت؟ بِم ستجيب لو سألتُ؟ هل ستجيب بنعم؟ لكن ماذا لو رأيت الكذب في عينها؟ بقيتُ صامتة. لكنها سألت بقلق: «هل ترغبين في حمل أختك؟».

- حقًّا؟

لم أصدق أنها وثقت فيَّ لحمل الرضيعة. ابتسمتْ من جديد. لم تبتسم أمي قط مرتين في محادثة واحدة. وحتى الآن لم تبكِ سوى قليلًا، الليلة تؤتي بنتائج عظيمة. وضعت أمي شايلو بين ذراعيَّ والتفَّت الطفلة مستندة إلى صدري مباشرة.

- أوه يا إلهي كم هي صغيرة!

تململت شايلو قليلًا فور أن سمعت صوتي، وذاب قلبي في صدري. لطالما رغبت في الحصول على أخ. لم أحسب ثاد وكايلب، لأنهما كانا بالغين فعليًّا عندما التقينا. أردت شخصًا معي في المنزل، طفلًا آخر يمكنه المساعدة في تحمل المسؤولية مع أبي. في بعض الأحيان شعرت بصعوبة كوني طفلة وحيدة، عندما تقع آمال الأهل كافة عليك. لذا لم أكن لأمانع في مشاركة الاهتمام مع شخص آخر. أشرت من جديد إلى السرير: «لِم لا تجلسين؟».

رأيت التوق في عينيها قبل أن يختفي ليتحول إلى التعبير الجامد الذي كلل وجهها أغلب الوقت.

- لا أطلب منكِ الاستلقاء أو النوم في الفراش لبقية الليلة، تعالي واجلسي جوارنا فقط.

فكرتْ في اقتراحي للحظة. تقليب الفكرة في ذهنها لم يكن منطقيًّا وبدا الأمر لوهلة كما لو أنني عرضت عليها صفقة قانونية مقابل الاعتراف بجريمة ما. لا بد أن شيئًا ما حدث لها في أثناء نومها على فِراش، أو أنهم أخبروها بأن شيئًا فظيعًا سيحدث لها لو استخدمته. في كلتا الحالتين لم يسعني سوى الشعور بالفخر عندما جلست أخيرًا بجانبي ومع شايلو. لم تكد تجلس حتى تحركت شايلو وبدأت في البكاء. قالت أمي: «أوه لا بد أنها جائعة».

سلمتُ الطفلة لها. رفعتْ قميصها، واستقرت شايلو لاقمة صدرها على الفور تقريبًا. بدأتُ بالتحسن بشأن مراقبة الرضاعة الطبيعية تحدث أمامي، لكنني لا أعرف أين أنظر أبدًا عندما تبدأ. هل من المفترض أن أنظر إليها؟ بعيدًا عنها؟ إلى الطفلة؟ هذا أحد أسباب الاحتياج إلى أُم في الصِّغر، لتتعلم منها هذا النوع من الأشياء. سألتها: «هل يؤلمك هذا؟».

نظرتُ إلى الأسفل إلى شايلو متسائلة.

- هذا؟

أومأتُ، فأجابت: «لا، أبدًا».

جلسنا صامتتين دقائقَ قبل أن تتحدث من جديد.

- أحببتِ الرضاعة الطبيعية.

ابتلعتُ لعابي. كان هذا كله ثقيلًا جدًّا. أراد جزء مني العودة إلى غرفتي حتى أتمكن من جمع قواي والتنفس، لكن الجزء الآخر ثبتني في مكاني، غير قادرة على الحركة. هذا يحدث حقًّا. أنا في غرفة واحدة مع أمي، أستمع إليها وهي تحكي لي قصصًا عن طفولتي. ابتلعت دموعي، خوفًا من أنني إذا بكيت ستتوقف عن الكلام أو تبدأ في البكاء.

- كنتِ الرضيعة الأفضل، سعيدة طوال الوقت، بالكاد تبكين. حتى حين بكيتِ جاء بكاؤك كنحيب ضعيف جعلني أشعر أكثر بالأسف نحوك.

بقيت نظرات أمي معلقة بشايلو، لكنها تذكرت وجهي في أثناء حديثها. هل جلبت لها ذكراي الشعور الذي تُرجم في نظراتها المفعمة بالحب المُطلق النقي؟ هل هذه النظرات بسبب تذكر الماضي؟ انفجرتُ باكية فألقت بذراعها حولي.

- أوه أنا آسفة، أنا آسفة جدًّا، لم أقصد إيلامك.

خرجت كلماتها متقطعة ومفعمة بالتوتر. حركت رأسي نفيًا، نالت المشاعر مني حتى عجزت عن الرد. اقتربت مني أكثر، واستقررت بجانبها، وأسندت رأسي على كتفها وهي ترضع شايلو. كنت هنا قبلًا، هذه البقعة مألوفة.

بُقعة يمكنني البقاء فيها للأبد.

***

كيت

في الماضي

- عانقني...

بكيت، وألقيت بنفسي على راي عندما نزل إلى الطابق السفلي، تائقة شوقًا للمسته، لأي اتصال بشري. الجوع للمسة بشرية أسوأ من أي جوع آخر. فرد ذراعيه وأمسك بي بقوة دافعًا إياي خلفًا، فنحبت.

- من فضلك يا راي، لا، من فضلك ليس هذه المرة.

في الزيارة الأخيرة عاملني بلطف شديد، حتى إنه أعطاني حمامًا منظفًا جسدي بإسفنجة، وشعرت بشعور رائع. لكن مضى وقت طويل منذ ذلك

الحين، أطول بكثير من الوقت الذي تركني فيه قبلًا حتى إن الأفكار السلبية كافة نالت مني دافعة إياي لنوبات ذعر. مرعوبة من أن شيئًا فظيعًا حدث له وأنه لم يخبر أحدًا على الإطلاق بمكان وجودي. سألقى حتفي هنا، معزولة ومُختنقة. كدت أقود نفسي إلى الجنون من القلق.

- هل تعرفين ماذا حدث في المرة الأخيرة التي زار فيها الشيطان يسوع؟

عرفتُ القصة عن ظهر قلب. في لحظة ما توسلت إلى راي ليحضر لي شيئًا لأقرأه، لأن الشيء الوحيد الأسوأ من نوبات الهلع هو الملل المخدِّر للعقل الناتج عن الوجود في مكان مغلق دون أي تفاعل. وأعطاني الكتاب المقدس، وكان إغراء يسوع هو أول شيء وجدته. القصة مطبوعة بالداخل بالأبيض والأسود، تمامًا كما أخبرني.

- أخذ يسوع إلى قمة الجبل وأراه كل الأرض تحته. وعده أن يمنحه كل نفَس بالعالم إذا انحنى وسجد له. رفض يسوع، وعندها غادر الشيطان أخيرًا.

ابتسم راي. أحببته عندما افتخر بي.

- هل هذا هو ما تقصد؟ هل إجابتي قريبة؟

أومأ. وشعرت بالإثارة تتأجج داخلي.

- استنكرتِ العالم، مثل يسوع تمامًا. وبالطريقة ذاتها، كبحتِ شهواتك ورغباتك الأرضية. الشيء الوحيد المتبقي هو إدانة الشيطان بقتل النفس.

أعطاني ثانية لأستعيد رباطة جأشي قبل أن يأمرني بالوقوف. وقفت ببطء.

- اخلعي ملابسك.

ملابسي ذاتها التي ارتديتها يوم رحلت عن حياتي السابقة. فقدت الكثير من الوزن حتى صار بنطالي الجينز مهلهلًا على جسدي، وربطته بحزام حول خصري لأبقيه مكانه. خلعتهما وألقيت بهما جانبًا. وقفت مرتدية حمالة صدري الرياضية وملابسي الداخلية، لأنني لم أعد أرتدي قميصي منذ فترة

طويلة. مزقته إلى شرائح، واحدة لعقد شعري والأخرى للاستخدام كخرق تنظيف. تنظيف مساحتي الصغيرة أعطى النظام لأيامي. كان مسح جسدي بقطعة القماش نفسها يومًا بعد يوم أمرًا لا معنى له، لكنه جعلني أشعر وكأنني لا أزال إنسانة. جاء صوته مليئًا بالتهديد: «ثيابك كلها».

عرفت ما يطلب مني، لكنني لم أتمكن من تحريك ذراعي. تجمد جسدي. رغبت في التحرك لكن جسدي أبى الاستجابة. أعادني صوت فك حزامه للشعور بجسدي. تعثرت في ملابسي الداخلية وسحبتها إلى ركبتي. الذعر لم يقل بمرور الوقت.

- استديري.

ابتعدت عنه، في مواجهة الطوب. العار أحرق وجنتيَّ بالاحمرار. وفهمت لِم بكى يسوع في بستان جبل الزيتون.

- يقول الرب إنه علينا إماتة أعمال الجسد الشريرة.

اصطدم حزامه بجلدي العاري، مما دفعني لأقفز.

- وليرتد الذين يعرفون الرب عن كل شر.

صفعة أخرى. وأخرى. كل واحدة أصعب من سابقتها. عضضت خدي من الداخل حتى لا أبكي.

- هل تشعرين بالخطيئة وهي تغادر جسدك؟

تعثرت في النطق بكلماتي، الألم جعلني غبية. الضربة التالية كادت أن تطرحني أرضًا.

- أنا أنتمي إلى الرب...

اختفت الكلمات. لم أستطع أن أتذكر. أين ذهبت؟

- ماذا تقول الكلمة المقدسة؟

بالكاد أعطاني فرصة للرد قبل أن يضربني مرة أخرى. عصارة معدتي ارتفعت في حلقي. ثم فجأة تذكرت.

- أنا للرب فاصلبني.

قلتها. وانطلق يضربني حتى فقدت تتبع عدد الضربات. الدموع أحرقت عيني. صرخت مؤخرتي من الألم. لم أتعرف على صوت صرخاتي.

- أرجوك، أرجوك...

توسلت مرارًا وتكرارًا. بدا وكأنه لم يسمعني، أو أنه فعل ولم تعنِ كلماتي شيئًا. التوت ركبتاي، وسقطت على الأرض قبل أن يتحول كل شيء إلى اللون الأسود.

***

سبعة عشر

ميريدث

الآن

سأل براين بعد أن انتهت كيت من وصف ما حدث لها في يوم مغادرتها وفي الأيام التالية: «وكم من الوقت أمضيتِ في القبو؟».

اتصلنا بدين الليلة الماضية بعد محادثتنا مع كيت، وقام بالترتيبات اللازمة ليحضر جميع أعضاء الفريق هنا في الساعة الثامنة للاستماع إلى شهادتها. بينما كان براين وكاميل الوحيدين في غرفة المعيشة مع كيت، راقب البقية المقابلة على الشاشات التي وضعها دين في غرفة الطعام. واصلت آبي استغراقها في النوم حتى عندما بدأ الناس في الوصول، وأخبرت سكوت أنه يجب أن يوقظها للحضور، لكنه أصر على أن نسمح لها بالنوم، لأنها بقيت مستيقظة معظم الليل بصحبة كيت.

- أربعون يومًا وأربعون ليلة مثل يسوع تمامًا.

قالت كيت وهي تعبث بأصابع شايلو. استغرق الأمر كل ذرة سيطرة على النفس أمتلكها لأجتاز وصفها للقبو، ولوهلة ظننت أنني لاحظت لمحة من الفخر على وجهها لأنها بقيت على قيد الحياة هناك لفترة طويلة دون أي تواصل بشري باستثناء تواصلها مع راي، لكن التعبيرات اختفت بالسرعة ذاتها، مما جعلني أشك في أنني رأيتها على الإطلاق.

سأل براين: «أنعشي ذاكرتي، فقد مر وقت طويل منذ أيام دراستي الكاثوليكية. ما الذي فعله يسوع بالضبط في الصحراء؟».

- ثُمَّ صَعِدَ الرُّوحُ بِيَسُوعَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ، لِيُجَرَّبَ مِنْ قِبَلِ إِبْلِيسَ وَصَامَ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً.

تغير صوتها كلما اقتبست من الكتاب المقدس، أو حين تكلمت عن أي شيء آخر يتعلق بلاهوتهم. تابعتْ: «تجربته كانت في الواقع أسوأ بكثير من تجربتي. وطارده الشيطان بلا هوادة».

لشعرت بالدهشة في أثناء مراقبة حديثها عن الحب الدولي، لو لم ينتَبك الرعب أولًا. بالكاد تماسكت في حديثها لكن في اللحظة التي تحول فيها النقاش إلى المنظمة، صارت فصيحة ومرتبة الحديث. لم أدرس علم النفس قبلًا لكنني لم أكن في حاجة إلى خلفية علمية في مجال الصحة النفسية لأدرك أنها تعرضت إلى غَسْلِ دماغ كامل ولُقِّنت عقيدتهم تلقينًا. بدا من الواضح أنها دُربت على الاستجابة لبعض الكلمات المحفزة وكأنها إنسان آلي.

راقبتُ كاميل في أثناء المقابلة بقدر ما راقبتُ كيت. التزمَت الصمت وسمحَت لبراين بطرح جميع الأسئلة، لكن تركيزها ظل منصبًّا على كيت. وشعرتُ بالرغبة في الولوج لرأسها واكتشاف ما تفكر فيه وما ظنها بكل هذا. سأل براين: «هل طاردك الشيطان بلا هوادة؟».

أومأت.

- لا بد أن هذا كان فظيعًا.

تساءلت لو أن القلق في عينَي براين حقيقي أم أنه يحاول فقط دفعها للحديث، عجزت عن التمييز.

- كيف نجوتِ من هذا؟

- اعتدت القراءة.

- ماذا قرأتِ؟

- الإنجيل، قرأت لأبي، هذا ساعدني.

- هل فعلتِ شيئًا آخر؟

مضت لحظة قبل أن تجيب، وكأنها تستجمع شجاعتها أو تفكر ما إن كان عليها إخبارنا.

- وضعت نفسي في أماكن أخرى.

قالتها أخيرًا وبدا براين مهتمًّا: «فعلًا؟ ماذا يعني هذا؟».

امتلأت عينها بالدموع، وللحظة بدا وكأنها على وشك الانهيار، لكنها استجمعت نفسها لتقول: «سافرت خارج جسدي كثيرًا».

سأل براين وكأن كلماتها طبيعية تمامًا، وكأن بوسعك الخروج من جسدك بصورة طبيعية لتسافر عبر المدينة: «أين ذهبتِ حين غادرتِ جسدك؟».

تقت لأن تنتهي المقابلة، لأن ما قيل أشعرني بالقشعريرة. توقفت قبل أن تجيب: «البيت».

- ماذا فعلتِ في البيت؟

تحركت عينها للأعلى: «راقبتهم في أثناء نومهم».

ابتسمتْ وكأنها تراقبهم الآن، أو بسبب الذكرى.

- على عكس سكوت، آبي نامت، هو ذهب للمشي، عددت الأميال التي قطعها.

انفجر سكوت ضاحكًا، وأطلقت كيت ضحكة صغيرة حين سمعت ضحكاته من الغرفة الأخرى. أخبرني أن الأرق بدأ مع رحيل كيت، لكن لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا لأنه لو كان كذلك فكيف عرفت كيت بأنه ينهض ليتمشى حين أعجزه التوتر عن النوم؟ لِم عساه يكذب بشأن هذا؟ سأل براين: «ألا يتحدث الإنجيل عن استقبال الملائكة ليسوع بعد خروجه من الصحراء؟».

- بلى.

- هل اعتنت بكِ الملائكة عندما خرجتِ؟

- رحبوا بي.

- الملائكة هم التابعون الآخرون؟

أومأت برأسها.

- ما نوع الحفل الذي أقاموه لكِ؟

سأل. لم يدع وقتًا يمضي بين الأسئلة قط، كوسيلة لإبقائها تتحدث.

- ترحيب بي في بيتي.

- ترحيب بك في بيتك؟ هممم.

أدار نظره حول الغرفة بصورة درامية مبالغ فيها، محدقًا إلى الصور المؤطرة لآبي وسكوت وكيت المعروضة على رف الموقد فوق المدفأة.

- لكنني اعتقدت أن هذا هو بيتك؟

***

جلس سكوت على كرسي مكتبه في الزاوية، محاولًا متابعة رسائل البريد الإلكتروني الخاص به الآتية من العمل. كافح من أجل البقاء على اطلاع بكل شيء على الرغم من أنه لم يشتكِ علانيةً. تفهَّم رؤساؤه وضعنا تمامًا وطلبوا منه العمل من منزله طوال المدة التي يحتاج. لكن المتاجرة والمبيعات لم تكن مَهمة يمكن إنجازها بسهولة من المكتب في غرفة نومنا.

كتب بينما واصل حديثه: «أواصل محاولة وضع نفسي مكانها وتخيل نفسي هناك. وفي كل مرة أعجز عن استيعاب كيف كان شعور البقاء في زنزانة في عزلة تامة لفترة طويلة. يصاب السجناء بالجنون عندما يُحتَجزون في العزل الفردي وأولئك مجرمون. كيت ليست ضعيفة لكنها ليست من الأشخاص الذين تعتقدين أن بوسعهم البقاء على قيد الحياة في مثل تلك الظروف».

- متى ستخبر آبي ما يحدث؟

واصلت آبي نومها حتى الساعة العاشرة، وانتهت مقابلة كيت بحلول ذلك الوقت. أمضت كاميل بقية فترة ما بعد الظهر مع كيت، لذلك كان لدى سكوت متسع من الوقت لتزويد آبي بالتفاصيل التي فاتتها منذ الليلة الماضية، لكنه

لم يفعل. عوضًا عن هذا قضى ساعات في مراجعة مقاطع الفيديو التي سُجلت في الأمس مع دين.

تجعد جبينه: «تعرف كل ما يجري».

هل كان يتجنب إخبارها؟ ستكتشف ذلك في جلسة مشاركة المعلومات التالية على أي حال، فما المغزى مما يفعل؟ ليست هناك وسيلة لحمايتها من الأذى الذي ستتسبب فيه المعلومة. وضعت يدي فوق يده وأجبرته على التوقف عن الكتابة والانتباه لي.

- نعلم أن هذا سيكون صعبًا، لكنك لا تؤدي إلا إلى تأخير ما سيحدث بامتناعك عن إخبارها. ثم إنها ستفضِّل سماع ذلك منك بدلًا من معرفته من مجموعة من عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي الباردين. إلى جانب أن باستطاعتك إيصال المعلومة لها بطريقة أكثر تفهمًا والمساعدة في تخفيف الضربة.

- ميريدث، هيا، رأيت كيف تحدثت كيت اليوم. لا شيء في انضمامها إلى منظمة الحب الدولي طوعي. لقد غسل ذلك الرجل دماغها بالكامل بينما هي هناك.

هز رأسه بعدم تصديق وذهول: «الجزء المثير للجنون هو كيف عبث بها وشق طريقه إلى رأسها دون أن تعلم حتى إنه يفعل ذلك».

قال براين شيئًا مشابهًا خلال إحدى استراحات تناول القهوة هذا الصباح. أخبرنا أنك إذا أردت غسل دماغ شخص ما، فإنك تستخدم لغة مصممة خصيصى لجذبه، إلى جانب حيل التحكم بالعقل. أقسم إن الناس لا فرصة لهم بمرور الوقت إذا انطوت تلك الممارسات على ما يسمى بهدف الله وإرادته.

- هل سمعت كم مرة أخبرها أنه أحب ابتسامتها؟ علم أن ذلك لن يؤدي إلا إلى رغبتها في العمل بجدية أكبر لإرضائه.

توهجت عيناه: «عرفها جيدًا، عميقًا حتى ذاتها الداخلية. هكذا جعلها عبدة له. فكري فيما كان الوضع بالنسبة إليها، وحدك في مكان مظلم بعد أن يصبح هو جهة الاتصال الوحيدة مع العالم الخارجي. بحق المسيح، تعتمد

عليه في إمدادها بالطعام والماء؛ بقاؤها بالكامل يعتمد عليه. طريقة عبقرية. ربطها به بطريقة ستستحيل لو استخدم أي وسيلة أخرى».

- سكوت، هل يمكننا العودة إلى سؤالي الأصلي؟

استطاع البقاء في هذه الدائرة للأبد ما لم أوقفه: «هذا هو ما أتحدث بشأنه يا عزيزتي. هذا يقود إلى سؤالك الرئيسي. كل شيء معقد ومشوه حتى إنني لا أستطيع إخبار آبي أن والدتها تخلت عنا ببساطة، الأمر ليس بهذه البساطة».

نظر إليَّ بحدة. كان يتجنب إخبارها وكأنه لن يكون حقيقيًّا حتى يخبر آبي، لذلك ظل يؤجله لأطول فترة ممكنة. لكن حتى هذا لم يفسر سلوكه. تسلل القلق إلى أفكاري. سابقًا، في الليلة الماضية، أدلى بهذا التعليق الغريب عن عدم معرفتي بالقصة الكاملة -حتى لو سخر مما قال بحجة أنه كان متعبًا، إلا أن الكلمات خرجت منه- والآن هذا التصرف.

قلت، شاعرة بالإرهاق التام من الضغط، عالمة أن حتى شعوري كان لا شيء مقارنةً بما يشعر به: «سكوت أنا أحبك، وأعرف أن كل هذا يشكِّل ضغطًا لا يُطاق عليك. كل ما أقوله هو إنني لا أظن أن عليك أن تضيع وقتًا أكثر في مساعدة آبي على مواكبة الأحداث».

سحب يده من يدي وأزاح لوحة المفاتيح جانبًا.

- لا أرغب في الجدال بشأن هذا أكثر من ذلك، وهذا ليس قرارك لتأخذيه.

أوجعتني كلماته، رفعت يدي إلى وجنتي وكأن كلماته صفعتني تاركة علامة. من المفترض أننا في الفريق ذاته.

- سأذهب إلى الطابق السفلي لأجد شيئًا آكله.

لم ينتظر أن أجيب حتى قبل أن يترك غرفة النوم متجهًا إلى المطبخ. ولم أكن على وشك السماح له بتجنب المحادثة. أحدنا عليه التفكير بمنطقية في وضعنا. وعليَّ أن أصير هذا الشخص بما أنه محتجَز داخل مشاعره أكثر مما يجب.

تبعته بسرعة إلى الطابق السفلي.

***

ثمانية عشر

آبي

الآن

أسرعتُ منعطفة حول الزاوية لأدخل إلى المطبخ في اللحظة التي كانت ميريدث تقول لوالدي: «أعتقد أن عليك إخبارها الآن، هي...».

لكنها توقفت ما إن رأتني، سألتُ بما أنه بدا من الواضح أنهما تحدثا عني: «يخبرني بماذا؟».

تجمد كلاهما. كان من المفترض أنني في الطابق العلوي أؤدي واجباتي، لكنني نسيت كتاب الرياضيات على الطاولة ولم أستطع الانتهاء من دونه. التفت كلاهما لبعضهما بعضًا، يحاولان التواصل بالنظرات كما يفعل كل زوجين. لكنني لم أكن على وشك إعطائهما فرصة ليبتكرا كذبة موحدة. سألتُ من جديد: «يخبرني بماذا؟».

هذه المرة قلتها بقوة أكثر، قاطع حضوري شيئًا ما ولن أذهب حتى يخبراني. سأل أبي: «هل ما زالت والدتك ترتاح؟».

أومأتُ. استلقتْ محاولةً الحصول على قسط من الراحة منذ العشاء. هاجمتْها واحدة من نوبات الصداع تلك بعد لقائها مع كاميل هذه الظهيرة. تلك الجلسات استنفدتها أكثر من أي شيء آخر، لم أكن لأرغب في أن تستجوبني كاميل أنا الأخرى، كل ما قالته خرج من فمها وكأنها غاضبة عليك.

- هذا الوقت الأفضل إذن لنخوض تلك المحادثة التي تحدثنا عنها.

نظرت ميريدث إلى أبي. الكلمات مفخخة بمعنى خفي، نظر إليها بحدة، ثم سألني: «هل ترغبين في الجلوس؟».

أشار إلى الطاولة، حيث استقر كتاب الرياضيات خاصتي مفتوحًا كما تركتُه.

- ماذا؟ أخبرني فقط ما الذي يحدث.

لم ينصحني أبي بالجلوس لتلقي خبر قبلًا، فلا بد إذن أن هذا خبر سيئ. يخبرونك بالجلوس حين يوشكون على إطلاعك على خبر سيئ، أليس كذلك؟ لذا بقيت واقفة في مكاني. حاولت ميريدث أن تبدو أكثر استرخاء لكن ذعرها بدا واضحًا خلف ابتسامتها. وتأجج غضب أبي أسفل هدوئه السطحي، وكأنه يتمالك نفسه فقط لأنني في الغرفة. واصل صدغه النبض كلما نظر إلى ميريدث. كان لطيفًا دومًا إلى أن تدفعه عن الحافة. قال أخيرًا، بعد لحظات أكثر من الصمت، والنبضات في جبينه تزداد: «الأمر متعلق بوالدتك».

أومأتُ، هذا واضح، انتظرتُ أن يقول المزيد لكنه بقي صامتًا. حركت ميريدث رأسها من جانب لآخر وهي تقول: «سكوت؟».

- ما الذي تتحدث عنه يا أبي؟

التوت معدتي خوفًا، عانى أبي للسيطرة على صوته.

- قلت لكِ إنني لست واثقًا من هذا.

وضعت ميريدث يدها على ظهره ودفعته قليلًا تجاهي، وكأن تقريبه مني سيسهل عليه الحديث.

- لم تُختطف والدتك من مرأب السيارات في متجر تارجت.

انتظرتُ أن يتابع لكنه لم يفعل فسألتُ: «من أين اختُطِفت؟».

- غادرت من هناك.

بدأت قطرات العرق تتجمع على جبينه.

- أنت قلت لتوك إنها لم تختُطَف من مرأب متجر تارجت.

ألقيت نظرة خاطفة على ميريدث، بدت بخير، هل عانى أبي نوبة صدمة من جديد؟ بدأ كل هذا يصيبني بالذعر، وشعر أبي بذلك لأنه قال بسرعة: «والدتك رغبت في أن تصير أحد أتباع منظمة الحب الدولي، تركت كل شيء في سيارتها لتذهب وتلتحق بهم، مشيت إلى حرمهم، وحين وصلت إلى هناك وافقت أن يصطحبوها في شاحنــ...».

قاطعتُه: «ماذا؟ انتظر، تحدث بصورة أبطأ».

كان يتحدث أسرع من قدرة عقلي على استيعاب ما يقول، أمي غادرت؟ ما الذي يحاول الوصول إليه.

قالت ميريدث أخيرًا: «أمك التحقت بمنظمة الحب الدولي لأنها أرادت ذلك، طواعية، لم يختطفها أحد».

التفتُّ إلى أبي: «لا أفهم، ما الذي تتحدث عنه؟ هل تحاولان إخباري أنها تخلت عنا؟».

التوى وجهه وكأنه يعاني ألمًا جسديًّا: «نعم».

عجز عقلي عن استيعاب الكلمات: «لا، لم تكن لتغادرنا، أنت قلت إنها لن تغادرنا أبدًا. أبي؟».

بدأت الدموع تنساب على وجنتيه، تقدمت ميريدث تجاهي: «أخبرتنا الليلة الماضية وأكدتها هذا الصباح».

- أنتما علمتما بهذا الليلة الماضية وتخبرانني إياه توًّا!

صحت: «ماذا حدث هذا الصباح؟ ماذا هناك أيضًا ولم تخبراني إياه؟».

قال أبي وهو يتقدم ليعانقني: «أنا آسف آبي، كنتِ نائمة هذا الصباح ولم أرغب في إيقاظك».

ابتعدتُ عنه: «حقًّا؟ هذا هو عذرك؟».

دار رأسي، تخلت عنا أمي، وفاتتني اللحظات التي اعترفت فيها بالسبب. قالت ميريدث: «أعلم أنه يصعب عليك استيعاب هذا الآن فوق كل شيء آخر، فكرنا فقط...».

- توقفي عن الحديث، لا أرغب في سماع ما تقولين.

هذا يكفي، لا كلمات أخرى، ولا منها، ولا منهما ولا من أي شخص. كانا قريبين أكثر مما يجب مني. عليَّ الابتعاد، لا يمكنني التفكير في هذا وهما يحدقان إليَّ، احتجت إلى التفكير. استدرت على عقبي وابتعدت عبر المنزل. لكن كليهما تبعاني ونادتني ميريدث: «آبي توقفي، تحدثي معنا!».

كرهتُ حين وجهتْ لنا الحديث وكأن كلنا شيء واحد، فعلتْها على الدوام. قال أبي: «أنا آسف».

اعتذر بالفعل سابقًا، وددت لو يتوقف عن الاعتذار.

- إلى أين تذهبين؟ ماذا تفعلين؟

قالها وأنا أفتح الباب الأمامي للمنزل.

لم تكن لدي أدنى فكرة إلى أين أنا ذاهبة، لكنني انطلقت راكضة ما إن لمست قدماي الرصيف.

***

تسعة عشر

ميريدث

الآن

ارتجف صوت سكوت: «لم أتمكن من العثور عليها في أي مكان».

عاد للتو إلى المنزل بعد القيادة مدة ساعة تقريبًا بحثًا عن آبي. اندفع وراءها بمجرد مغادرتها، لكن لا بد أنها ركضت عبر الأفنية الخلفية، لأنه لم يعثر عليها.

- هل تواصلتَ مع ميغان؟

- نعم، ولم تسمع منها.

غادرت آبي بسرعة كبيرة لدرجة أنها نسيت هاتفها. راجعتُ جميع اتصالاتها وأرسلتُ رسالة نصية إلى جميع أصدقائها. لم يرَها أحد، ولم تتصل بأي شخص حتى الآن من هاتف شخص آخر.

- ماذا يحدث هنا؟

قاطعت كيت كلماتنا، بادية من أعلى الدرج.

- كل شيء على ما يرام.

قلت، آملة أن يكون صوتي مقنعًا.

انفجر سكوت: «أوه! الآن ترغبين في التزام الصمت!».

لم أره غاضبًا بهذه الطريقة قبلًا، لطالما مزحت آبي أن لديه نوبات غضب لكنني لم أرها سابقًا. سألت كيت ويداها على فخذيها: «ما الذي حدث؟».

فاجأني مدى شبهها بآبي في تلك اللحظة. تجعُّد جبهتها ماثل تجعُّد جبهة آبي في نوبة العِند التي انتابتها سابقًا هذه الليلة، وعيناها ضاقتا بشكل يكاد يكون متطابقًا.

قال سكوت: «آبي هربت، ولا نستطيع إيجادها».

امتلأت عينا كيت بالذعر: «لِم فعلتْ هذا؟».

أسرعت لتهبط السلالم منضمة إلينا في المدخل.

- شعرتْ بالاستياء.

وتابعتُ: «تعرفين كيف هم المراهقون».

حدق إليَّ سكوت، لكنني لم أظن أنها فكرة جيدة الإضافة إلى ما تحملته كيت بالفعل، ولم تكن في حال مناسبة للتعامل مع آبي. لكنها سألت: «لِم استاءت؟ ماذا حدث؟».

رفض سكوت مقابلة نظراتها وهو يجيب: «أخبرناها ما حدث في اليوم الذي اختفيتِ فيه».

توقف لحظة، مستجمعًا شجاعته للمتابعة: «تعرف أنكِ لم تُختطفي وأنك اخترتِ المغادرة».

اختفى كل لون من وجه كيت.

- تعرف؟

أومأ سكوت برأسه، خافضًا رأسه كجرو أخفى أذنيه بين ساقيه خجلًا فور أن ضُبط يتبول على الأرض. سقطت كيت على الأرض عند قاعدة الدرج. سحبت ركبتيها إلى صدرها وانفجرت في البكاء. اندفع سكوت إلى جانبها ولف ذراعيه حولها.

- أنا آسف، أنا آسف.

بقي يكرر وهو يهدهدها للأمام والخلف وكأنها طفل.

لمسها بالطريقة نفسها التي تحدث عنها بها، بعشق ورِقة، كما لو أنها قطعة صيني باهظة الثمن يمكن أن تنكسر إذا ضغط عليها بشدة. انفجرت الدموع في عينيَّ. أردت أن أضع ذراعي حولهما، ولثانية كدت أن أتحرك في اتجاههما، لكن بدلًا من ذلك وقفت هناك محرَجة حتى أصبحت حميمية اللحظة أكثر من اللازم، ولزم عليَّ الالتفات لأنظر بعيدًا. درت حولهما لأدخل المطبخ. وانتظرت عند المدخل لبضع دقائق لأرى ما إذا كان سيلاحظ رحيلي.

وجدَت الدموع في عيني طريقها إلى خدي عندما لم يفعل.

***

عشرون

آبي

الآن

لم آتِ إلى الحديقة في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل قبلًا، لا فكرة لدي عن الساعة الآن لكنني لست مستعدة للعودة إلى المنزل في هذه اللحظة. استغرقت قرابة الدقائق العشر حتى يهدأ الاحتراق في رئتيَّ بسبب السرعة التي ركضت بها. لا بد أن أبي قلق حد المرض الآن، هذا شيء مسلم به. لكنني عجزت عن حمل نفسي على العودة إلى المنزل، ليس بعد. في الظلام عثر صوته عليَّ لأستمع لكلماته فجأة:

- مرحبًا يا صغيرة.

التفتُّ متفاجئة: «دين؟».

مضى عبر التعريشة حتى وصل إلى طاولة النزهات، حيث جلستُ طوال الساعات الماضية.

- خمنت أنني سأجدك هنا، لكنني لا أرغب في أن أجدك هنا في هذا الوقت المتأخر من جديد، هل تفهمين؟ الكثير من غريبي الأطوار يتسكعون في الحديقة ليلًا.

أومأت، فتابع: «الآن تعالي هنا وأعطي عمك دين عناقًا».

عقد ذراعيه حولي وغصت في صدره. سألتُ: «هل اتصل بك والدي؟».

- لا، صادف أنني قررت أن أتمشى هنا بعد منتصف الليل.

ضربتُ فخده مازحة: «اخرس».

فابتسم ومسح التراب عن مقعد الطاولة قبل أن يجلس جواري.

لم أكن بحاجة إلى سؤاله عن كيف عرف أين يجدني. لسنوات، عمل هذا المكان كموقعي السري. المكان الذي اعتدت الذهاب إليه كل يوم أحد أنا وأمي حين تركنا أبي وشأنه ليواصل النوم طوال اليوم. لم أخبر أبي عنه قط لأنه المكان الوحيد الذي أحتفظ فيه بذكريات عن أمي، هذا كل ما لي. كل ذكرياته انطوت على كلينا، أو على مراقبته لها في أثناء تعاملها معي، الشيء الوحيد الذي لم يستطع أن يقدمه لي هو كيف كان الوضع بيننا أنا وهي فقط، ذكرى هذا المكان محض قطعة، قطعة صغيرة للغاية. مجرد ومضة لذكراي على الأرجوحة والسماء فوقي وشعوري بيدها على ظهري لثانية وجيزة، لكنه كان شيئًا بالنسبة لي، هنا جئت حين رغبت في الشعور بالقرب منها، شاركت سري مع دين بعد أن فقد شقيقه في حادث دراجة نارية، على أمل أن يجلب له السلام والراحة نفسيهما اللذين جلبهما لي.

- هل أخبركَ ما حدث؟

- أخبرني أنكما تشاجرتما ثم غضبتِ وهربتِ، لِم لا تخبرينني ما حدث؟

حركت كتفيَّ، متعَبة بسبب طول اليوم: «اكتشفت أن أمي تخلت عنا وأن أبي أبقى أسرارًا لم يخبرني إياها طوال اليوم، هذا كل شيء تقريبًا».

- هذا يبدو لي كثيرًا.

كان من المفترض بأبي أن يكون سندي في كل هذا. كيف بإمكاني التعامل مع أيٍّ مما يحدث دون ثقتي التامة به؟ لم يسبق لي أن اختبرت فقدان ثقتي به، لم يقترب حتى من خيانة الثقة قبلًا، وهذا أكثر ما أحببت في علاقتي به.

- وعدني أبي أنه سيخبرني دائمًا أيَّ معلومة تتعلق بأمي.

- هل تعدينني بأنك لن تقتلعي رأسي حين أقول ما أنا على وشك قوله؟

أملت رأسي جانبًا: «هذا يعتمد على ما ستقول».

- لن يعجبك ما سأقول لكن عليك أن تسامحيه. ليس الأمر وكأنه انتظر أسابيع لإخبارك. أعني، أنتِ لم تعطيه سماحًا ليوم واحد حتى. هذه معايير عالية جدًّا، ألا تعتقدين؟

أمسك بذراعي، متظاهرًا بأنه سيقرصني حتى عجزت عن منع نفسي من الضحك.

- أترغبين في رأيي؟

أومأت.

- ربما أنت غاضبة من والدك لأنك استُبعدت من لحظة مهمة هذا الصباح؟ أتفهم ذلك تمامًا، وبصراحة، لا أعرف لماذا لم أفكر في إيقاظك. كان عليَّ أن أفعل، لذا إذا كنت ستغضبين منه، فعليك أن تغضبي مني أيضًا.

ابتسم لي حين هززت كتفيَّ: «آسف».

سألت: «هل فوتُّ أمرًا شديد الأهمية؟».

- لا، وسجلنا كل شيء، وأنا واثق أن بإمكاني إقناع كاميل بأن تتركك تشاهدينه.

- حقًّا؟

- بالطبع، ليس الأمر وكأن أيًّا مما يحدث سر.

تنهدت بعمق: «لو أن أمي غادرت لأنها رغبت في ذلك، هل يعني هذا أنه لن يُلقى القبض على أحد؟».

تجعد جبينه: «لا يمكننا القبض على أحد لو لم تُرتكب جريمة، وهي لم تخبرنا بأي جريمة».

- لكن في المستشفى قالوا إنه بدا وكأنها تعرضت للتعذيب، هذه جريمة.

- ليست جريمة لو فعلتْها بكامل إرادتها.

- تعرضتْ للتعذيب بإرادتها الحرة!

أومأ متأسفًا، وكأنه يرغب لو أن ما يخبرني إياه ليس حقيقيًّا: «على الأقل في الشهر الأول الذي أمضته معهم، كلامها كله مسجَّل».

- لكن لديها علامات على ظهرها وكأنها تعرضت للجلد، هل قالت إنها وافقت على هذا أيضًا؟

- نعم فعلت.

- اعترفت بهذا؟

أومأ من جديد.

ولكن بغض النظر عن عدد المرات التي أكد فيها، عجزت عن استيعاب كيف يمكن لشخص ما أن يعامل نفسه بهذه الفظاعة. وإذا اعتبرت الجلد أمرًا جيدًا، فما مدى السوء الذي تعرضت له قبل أن تقرر أن هذا يكفي؟

قال دين: «الآن هذا لا يعني أننا لن نكتشف أن جرائم أخرى ارتُكبت خلال فترة وجودها معهم، لأن هناك عقدًا كاملًا لا نعرف شيئًا عنه بعد. تحقيقاتنا بعيدة كل البعد عن الاكتمال، لكننا لم نعد ننظر إلى اتهامات الاختطاف، الأمر الذي يغير أمر تدخل مكتب التحقيقات الفيدرالي، عندما لا تتجاوز الجريمة أكثر من حد وضعته الولاية. هذا يغير نظرتهم لمستوى التهديد ومقدار القوة البشرية التي علينا تخصيصها في حال أن التهديد ليس فوريًا، أعلم أن هذه طعنة في الظهر لكن على الأقل هذا يقربنا خطوة من حل اللغز».

رفعت حاجبي: «حقًا؟».

- حسنًا، القضية تتحرك ببطء شديد، لكنها على الأقل صارت تبوح بمعلومات أكثر أهمية، هذه القطع معًا كافية بالنسبة لي لكي أنام بشكل أفضل ليلًا، غير قلِق على سلامتكِ.

- لِم برأيك تركتْنا؟

آلمني قول الكلمات لكن هذا ما فَعَلت، ومن المستحسن أن أعتاد هذه الحقيقة.

- اختفاء الناس ليس جريمة. يحدث ذلك طوال الوقت. أكثر مما اعتقدت. هل تتذكرين عندما أخبرتُك هذا قبل كل تلك السنوات؟

أومأت. حدث ذلك بعد وقت قصير من عثوري على المنتديات. ما زلت في الثالثة عشرة من العمر، وحينها لم أفكر مطلقًا في أي احتمالات أخرى بشأن

اختفاء أمي غير تلك التي زودني بها أبي. كُلفنا بالعمل على سلسلة نسبنا في صف التاريخ، وأثارت تلك المهمة وقتها كل هذه الأسئلة والمشاعر بداخلي، لذا لجأت إلى محركات البحث كي أجد معلومة عن أمي. و«الاختفاء» ظهر كأولى النتائج.

رجَّت الأشياء التي قرأتها أعماقي، ولم يلتفت أبي إلى أي شيء كُتب حتى إنه رفض الحديث معي عنه. في نهاية المطاف، لجأتُ إلى دين للمساعدة في فهم كل شيء، وعلى عكس أبي، كان على استعداد للاعتراف بوجود احتمال أن أمي قد قررت المغادرة بمفردها. أخبرته كيف تحدثوا عن احتمالية انتحارها، وصدمني عندما أخبرني أنهم استبعدوا ذلك الاحتمال بالفعل. هذا من أكثر ما أحببته في دين، بخلاف الجميع أنعشني صدقُه الدائم.

من جديد سألت: «ثم قررت فجأة العودة؟ لماذا تفعل ذلك بعد مرور كل هذا الوقت؟».

- لا أعرف أكثر مما تعرفين.

أبعد يده عن كتفي وقرقع عُقل أصابعه.

- لكنني سأفعل ما بوسعي لأفهم كل هذه الفوضى.

- شكرًا لك يا دين.

امتلك دين دائمًا القدرة على جعلي أشعر بحال أفضل.

- كل شيء يحدث بسرعة، وكأنني كلما حاولت إيجاد موطئ قدم، يحدث شيء ما جديد لأشعر بأنني أهوي في حُفرة جديدة. والليلة كانت كطلقات الرصاص. بام، بام، بام!

- لا بد أن رؤية والدتك في هذه الحالة صعبة عليك.

حركت رأسي نفيًا: «هذا ما لا يفهمه أحد، في الواقع لا».

بدا الفضول في عينيه.

- لا يصعب عليك رؤيتها محطَّمة بهذه الطريقة؟

- من الصعب رؤيتها تتألم، نعم، لكني أكره رؤية أي شخص يتألم. هذا ليس ما أتحدث عنه. أبي لديه نسخ ذهنية منها قبل وبعد، على عكسي أنا. نسختي الوحيدة من أمي رأيتها دائمًا من خلال عينيه، لكنها لم تكن نسختي قط. لم أجربها على أرض الواقع، ظلت نسخته هو. أنت تعرف ما أعنيه؟

أومأ مشيرًا لي لأتابع: «الأمر أسهل بالنسبة لي لأنني لم أعرفها، وكل ما أريد فعله هو التعرف عليها. لا يهمني من هي، أريد فقط أن أعرفها. حتى لو تبين أنها متضررة تمامًا مما مرت به، أو أنها شخص مختلف تمامًا عما اعتقدتُ. لا يهم. ليس هذا مهمًّا بالنسبة لي. الأمر مختلف بالنسبة لي عما هو بالنسبة إلى أبي».

حرك خصلات شعري بيده الأخرى: «أنتِ طفلة ذكية، هل تعرفين هذا؟».

ابتسمت: «أبي مذعور حقًّا، أليس كذلك؟».

- بلى، لكن هذه المرة لا أستطيع لومه.

على مدار السنين، انتاب أبي الخوف عدة مرات واتصل بالشرطة أو دين للاطمئنان عليَّ في أثناء وجودي في مكان ما، هذا كان أحد الأسباب التي منعتني من أن أحظى بصديق حميم قط، لأنني علمت يقينًا أنه سيتابع كل تحركاتنا، وسيتسبب في موتي حرجًا.

- أرسلت له رسالة حين رأيتك تجلسين هنا، وهو على الأرجح يعض على أنامله في انتظار عودتنا.

- علينا الذهاب؟

أومأ: «سنفعل كل هذا خطوة بخطوة يا فتاة، خطوة بخطوة».

مد يده ليساعدني على الوقوف، وابتسمت لسماع كيف ماثلت كلماته أبي.

***

كيت

في الماضي

تأوهتُ من النشوة عندما صُب الماء الساخن فوق رأسي. عجزت عن تذكر آخر مرة اختبرت الماء الدافئ فيها، حتى الماء الذي غُسلت به بعد خروجي من القبو كان باردًا. شعرت بالارتياح حتى إنني لم أكترث لأنني لست في حوض استحمام حقيقي. بينما جلست متربعة في علبة مجوفة حممتني مارجو استعدادًا لزيارة سكوت. شعرت بالسعادة لأن الاختيار وقع عليها. لكنني واصلت الشعور بالحرج الشديد حين انتقلت يدها لتنظيف مناطقي الخاصة. على أي حال، الوضع أقل حرجًا وغرابة في وجودها هي. دلكت فروة رأسي وهي ترغي شعري بالشامبو.

- أخبريني كيف تسير الأمور.

قالتها لأنني لم أرها منذ يوم خروجي من المركز. بقيت منعزلة في كوخ بعيد في الغابة مع تابعة أخرى انضمت مؤخرًا، «ويلو». وُضع التابعون الجدد معًا في أثناء خضوعهم لمراحل التدريب الأولى ليصيروا مرآة لبعضهم بعضًا.

- أفتقد عائلتي بشدة، لكنني أشعر بالارتياح لأنني لست مضطرة إلى الحياة بشكل مزدوج.

هذا أسهل جزء في انضمامي إلى التابعين، عدم اضطراري إلى الصراع طوال الوقت.

- كم من الوقت مر على ذهابي؟

الخروج من القبو كان مربكًا تمامًا مثل دخوله، اصطحبونا مباشرة إلى الكوخ وتركونا دون أي إشارة إلى الوقت أو العالم الخارجي، تمامًا كما كنا هناك في الأسفل. حركت رأسها: «التخلي عن متابعة الوقت يستغرق وقتًا».

ابتسمتْ حين أدركتُ السخرية في جملتها. فابتسمتُ بدوري. أحببتُ رؤيتها، حتى لو لم تقدم لي أي تلميحات لمساعدتي. كنا أنا وويلو على علاقة

جيدة بما فيه الكفاية، لكنها في الرابعة والعشرين من عمرها وقد نشأتْ لتصير روحًا حرة، لكون والداها من الهيِّبين المتقاعدين منذ الستينيات. الشيء الوحيد المشترك الذي جمع بيننا هو منظمة الحب الدولي، وهو شيء جيد لكنني افتقدت في بعض الأحيان الحديث عن أمور أخرى، وهنا انتهت القواسم المشتركة بيننا. مارجو على الجانب الآخر عمرها مقارب لعمري وتفهم التضحية. لأنها تخلت عن مهنتها كمحامية للانضمام إليهم، ليس الأمر كفقدان عائلتي لكنه شيء ما على الأقل.

- افتقدتكِ.

ضغطت بيديها على كتفيَّ: «افتقدتكِ أيضًا، كيف حال المسؤولين عن رعايتكِ؟».

حركتُ كتفيَّ: «لا بأس بهم».

الأشخاص الآخرون الوحيدون في المقصورة هما امرأتان، مهمتهما الوحيدة هي تلبية احتياجاتنا حتى نتمكن من التركيز فقط على نمونا وتطورنا الروحي. طهوا ونظفوا لنا، وتحدثوا معنا كالأطفال في أثناء قيامهم بهذا. لم يُسمح لنا حتى بالاستحمام بأنفسنا. لم أحب أن أتحول إلى هذه الحالة الطفولية ولم أعتدها. ربما لن أفعل أبدًا.

أمسكتْ مارجو بيدي وفركتْ تحت أظفاري، ولكن بغض النظر عن مدى قوة فركها، فالأوساخ المدفونة تحتها من الساعات التي قضيناها في تنظيف الأرضيات على ركبنا لم تخرج قط. أعني أن سكوت لن يمانع حتى. لن ينتبه إلى يدي. احمر خدي من فكرة رؤيته مرة أخرى.

قالت مارجو: «ما زلت لا أصدق أن راي سيتركك تقابلين سكوت».

- هذا لازم لنموي الروحي.

هذا هو الشيء ذاته الذي واظبتُ على قوله لراي مرارًا وتكرارًا كلما توسلتُ له بشأن وضعي. سألته عدة مرات حتى إنني فقدت القدرة على عدها، حتى وافق أخيرًا. ركزَت المرحلة الأولى من الكهنوت على التخلص من ارتباطاتنا الدنيوية، وعجزتُ عن فعل ذلك دون أن تتاح لي الفرصة لشرح الأمور لسكوت

بنفسي. حاول راي التحدث معه في مناسبات عديدة، لكنه كان غاضبًا للغاية بشأن ما فعلتُه ولم يستمع له. أملت أن يفهم إذا جاء ذلك مني.

عصرت مارجو منشفتها في أحد الأحواض التي استخدمتْها قبل غمرها في الحوض الآخر المملوء بالماء الدافئ والرغوة. لتقول أخيرًا: «انحني للأمام ودعينا نرَ ما يمكننا فعله حيال ذلك».

أشارت كلماتها إلى الجلد المتشقق على ظهري. بينما أمسكتُ بحافة الحوض وأحكمتُ إغلاق فكي، وضعَت المنشفة بحنان على جروحي الأخيرة. بذلتُ قصارى جهدي لتجنب أي جَلد جديد قبل الزيارة، لكن راي لم يعجبه نظراتي المتغطرسة التي نظرت إليه بها قبل ثلاثة أيام. توسلت إليه أن يتغاضى عن الأمر في تلك المرة، لكنه رفض. لذا لحسن الحظ سأغطي كل شيء، لأن هذا الجزء من ممارستنا لا يمكن أن يستوعبه سكوت.

قالت مارجو وكأنها شعرت بأفكاري تدور: «سيكون كل شيء على ما يرام».

غرقتُ مرة أخرى في حوض الماء. كانت محقة؛ أنا بحاجة إلى الاسترخاء والاستمتاع بهذه اللحظة. من يعلم متى سأحصل على الماء الدافئ مرة أخرى. علاوة على ذلك، لن يغير قلقي أي شيء. غرقتُ في الفقاعات، واستنشقتُ رائحة الصابون. لم أهتم لنوعه الرخيص حتى، لم يحفز شيءٌ حواسي هكذا منذ فترة طويلة لدرجة أنه آلمني.

سمحتْ لي بالاستلقاء في حوض الاستحمام حتى يبرد الماء، ثم نظفتْ بسرعة أعضائي الخاصة ووجنتاي تحترقان خجلًا لكنني في الوقت ذاته قدَّرتُ سرعتها في الانتهاء. خرجتُ إلى المنشفة التي حملتْها أمامي، وبشرتي تقشعر فورًا. أوقفتني حين مددت يدي إلى ثيابي وقالت: «انتظري هنا».

استدارت مسرعة لتخرج من الغرفة. قبل أن تعود بعد ثوانٍ حاملة فستانًا أحمر منقوشًا.

- ارتدي هذا.

قالتها وسلمته لي، اتسعت عيناي: «هل أنتِ جادة؟ لا يمكنني ارتداء هذا. ماذا عن تعاليم التواضع؟».

- وافق راي عليه.

- هل فعل؟

أومأتْ. وعجزتُ عن التصديق. كانت للفستان حمالات بدلًا من الأكمام. لِم عساه يتركني أرتدي أي شيء مفتوح بهذه الطريقة؟

- حسنًا، هل ستبقين في مكانك وتحدقين إليه؟ أم سترتدينه؟

أخذته منها ورفعت ذراعي، ووضعته فوق رأسي، ثم بسطته على جسدي. ماذا سيفكر سكوت في كل الوزن الذي فقدته؟ آمل ألا يعتقد أنني نحيفة أكثر مما يجب. كره خسارتي للوزن خصوصًا في وركيَّ. ارتديت ملابسي الداخلية أسفل الفستان، وشعرت بتوتر يفوق توتري حين سرت إلى المذبح يوم زفافنا. قالت مارجو: «تبدين جميلة».

احمرت وجنتاي: «شكرًا لك، هل تظنين أنه هنا بعد؟».

- لا بد أنه هنا، سمعت الباب يفتح قبل دقائق.

- يا إلهي!

تراجعتُ للخلف، محاولةً التمسك بشيء ما لتثبيت نفسي في خضم موجة المشاعر التي هاجمت جسدي.

أعطتني مارجو يدها، وأمسكت بها، وتبعتها خارجة من الحمام إلى القاعة المشتركة. نظرت بعيني إلى جنبات الغرفة كافة، ماسحة إياها بنظرة واحدة -الأرضيات الصلبة البالية، وموقد الحديد في المنتصف، وطاولة القهوة المكسورة، والأريكة القديمة المستقرة في المنتصف- جلس راي على أحد الكراسي الخشبية أمام طاولة المطبخ. فتشت المطبخ بعيني بحثًا عن سكوت. ولم يكن هناك أيضًا. هل لا يزال بالخارج؟ لماذا تركه راي هناك؟

تحرك راي تجاهي: «تبدين غاية في الجمال يا عزيزتي».

انحنى لتقبيل وجنتي لكنني تراجعت متسائلة: «أين سكوت؟».

- لِم لا تجلسين؟

حركت رأسي نفيًا: «لا أرغب في الجلوس».

رغبتُ في رؤية سكوت، التوت أحشائي. حوَّلت وجهي كي لا يرى الدموع تنساب على وجهي.

- جاء لمقابلتي في المكان الذي اتفقنا عليه، لكنني آسف جدًّا يا كيت، لم يرغب في رؤيتك. يعتقد أننا على علاقة غرامية ولا شيء مما قلت عساه يقنعه بالعكس. أخبرني أنه لا يرغب في أن تربطه أي علاقة بك. أنا آسف للغاية.

انتحبت رغمًا عني: «لا».

مد يده لي.

- دعيني أعانقك.

لكنني لطمت يده: «ابتعد عني، لا أريد منك أن تلمسني».

هذا لا يحدث، كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كان من المفترض بهما الحضور. كان من المفترض بي أن أكون قادرة على إصلاح الأمور.

- ماذا عن آبي؟

وضعت مارجو يدها على ظهري في حين قال راي: «قال إن تخليك عنها بهذه الطريقة هو التعريف المناسب للمرأة التي لا تصلح أن تكون أمًّا. ولا يرغب في أن تقتربي منها».

صرختُ: «لكنني لم أتخلَّ عنها. هل أخبرتَه بهذا؟».

- حاولت كل ما بوسعي لكن لا أعتقد أنه فهمني ولا يرغب في تغيير وجهة نظره.

حرك رأسه: «للأسف ستتفق المحكمة معه غالبًا، العالم يجد صعوبة في تقبل وسائلنا وطرق تدريبنا».

سقطتُ على الأرض مهزومة. ركعت مارجو بجانبي، وجلس راي على الجانب الآخر. وضع ذراعه حولي، وهذه المرة لم أقاومه.

- ربما هذه طريقة الرب في اتخاذ قرار تعجزين عن اتخاذه بنفسك.

- حرماني من زوجي وابنتي؟

بالكاد تمكنت من الكلام وسط نحيبي: «أي رب يطلب هذا النوع من التضحية؟».

- الربّ ذاته الذي ضحى بابنه.

***

دفنت رأسي في الوسادة محاولة كتمان بكائي لكنني عجزت لأن ويلو امتلكت حاسة سمع خارقة وفي غضون ثوانٍ جاءت إلى كوخي. انحنت جوار فراشي ووجهها محض سنتيمترات بعيدًا عن وجهي لتهمس: «لا يسعني حتى تخيل كيف تتألمين».

رغم أنه لم يكن في الكوخ سوانا، ولا أحد حولنا لسماعنا.

- تذكري أنك تضحين بما هو أكثر من أغلبنا، لذا تخيلي ما ستكسبين في المقابل.

واصلتْ قول الشيء ذاته على مدار اليومين الماضيين، لكن هذا لم يساعد، وبدا وكأن ألم فقدان عائلتي لن ينتهي أبدًا.

- تنحِّي جانبًا.

ورفعَت البطانية حتى يتسنى لها الانزلاق تحتها، سحبتني بالقرب منها وأحاطتني بذراعيها لتواصل الهمس مرارًا: «هيا، هيا سيكون كل شيء على ما يرام».

رددتْها بالصوت ذاته الذي ستستخدمه لو أنها تحاول دفع طفل للنوم، فتعلقتُ بها لأنفجر في النحيب مقابل صدرها. قلت وسط نشيجي: «لا أستطيع فعل هذا من دونهما، لا أستطيع».

- بل تستطيعين.

مررتْ يدها عبر شعري: «فعلتِ هذا من دونهما، على الأرجح لشهور مضت. أنتِ أقوى مما تعرفين».

حركتُ رأسي نفيًا: «بل أنا ضعيفة، أنا شديدة الضعف».

كان وجهاهما آخر صورة أراها قبل النوم كل ليلة وأول أفكاري كل صباح. هذا لن يغادرني أبدًا. كيف يمكن ذلك؟ معرفتي بأنني سألتحق بهما مرة أخرى أعطتني الدفعة اللازمة لمجابهة الكثير من اللحظات الصعبة في أثناء تدريبي.

- بغض النظر عن مدى صعوبة ذلك، هذه خطوتك الأخيرة في التخلص من ارتباطاتك الدنيوية، وليس لديك أي فكرة عن مقدار الحرية التي ستختبرينها بمجرد أن تصيري على الجانب الآخر.

كلماتها اخترقتني مثل السكاكين. سكوت وآبي أكثر من مجرد ارتباطات دنيوية. هما قلبي الذي عاش وتنفس خارج صدري، عجزت عن تخيل حياتي في عالم لا يشتمل عليهما. وتمنيت لو أن التبعية طلبت مني التخلي عن حياتي وجسدي ذاته.

لكان هذا أسهل بكثير.

***

واحد وعشرون

ميريدث

الآن

انتفضت كيت قافزة عن الكرسي وركضت نحو آبي فور أن دخلت من الباب مع دين. اهتزت كتفاها بالنشيج. استمرت في دفع آبي إلى مسافة ذراعها، كما لو أنها تتأكد من أنها لم تصَب بأذى قبل أن تسحبها مرة أخرى لتضمها بقوة. اقترب سكوت منهما وتأكد من أن آبي ليست غاضبة منه قبل أن يحيطهما بذراعيه.

- آبي، من فضلك لا تفعلي ذلك مرة أخرى. شعرنا بالرعب عليك.

تحدثت كيت معها كأم للمرة الأولى. ألقيتُ نظرة سريعة على سكوت لمعرفة ما إذا لاحظ ذلك. أمسك بها هو الآخر. يحدق إليها بشوق شديد لدرجة أنني اضطررت إلى النظر بعيدًا. وفي غضون ثوانٍ، صارت كيت تبكي مرة أخرى.

- أنا آسفة يا آبي. أنا آسفة جدًّا للأذى الذي تسببت فيه لكِ.

- لا بأس يا أمي.

تردد صوت آبي وهي تحاول أن تتمالك نفسها من أجلها، لكن صوت كيت ارتج وهي تواصل: «لا، لا، أنا جرحتك، أنا آسفة. لم يجبرني أحد على الذهاب إلى أي مكان. غادرت طواعية للانضمام إلى منظمة الحب الدولي».

غطى ألم فعلتها وجهها بحفر وخطوط، لم أسمعها من قبل تتحدث بمثل هذا الصدق والصراحة: «ناداني الإله، ذهبت لأنني آمنت بهم. ظننت أنني أنضم إلى حركة ستغير العالم وأنك ستنضمين إليَّ في النهاية».

خفضت رأسها وهي تواصل الكلام، محرجة من أن تلاقي نظرات أي شخص.

- لا بد أنك تظنين أنني غبية، لكنني انتظرت أن تأتي، كلاكما، أنتِ وأبوكِ.

تجعد جبين سكوت: «كيف نفعل هذا؟ لم يكن لدينا أي فكرة أنك معهم».

قالت وكلماتها تحمل لمحة من الغضب: «كان عليك أن تتحدث مع راي، لفسَّر الأمور لو أنك تركت له الفرصة».

- أتحدث مع راي؟ تحدثت معه طوال الوقت.

فجأة، عبَر شيء ما عبْر قسمات كيت، ذكرى، تعرُّف؟ شيء ما بدا واختفى فورًا، صارت كلماتها أبطأ: «لا أفهم، تحدثتَ إلى راي؟».

- ومارجو، وبيكا، وآخرون كانوا معه على الدوام. خرج الكثيرون منهم -بالطبع لا أذكر أسماءهم بعد مضي كل تلك السنوات- لكنهم خرجوا نعم، مجموعة منهم خرجوا في بعثة منظمة نظمتها الحب الدولي للمساعدة في البحث عنك.

حدقت كيت إلى سكوت بوجه خالٍ من التعبير، وكأنه يتحدث بلغة أجنبية.

- لكن لِم لَم يخبرك أين كنتُ أو ماذا يحدث؟

بدأ سكوت يستوعب حقيقة ما يحدث ببطء ليجيب: «كيت، ساعدنا راي في البحث عنك. نظم مجموعات وقاد فرقًا لمحاولة إيجادك».

***

راقبتُ عالم كيت ينهار رأسًا على عقب بعد أن أخبرها سكوت بشأن راي، وعقله يدور بالسرعة ذاتها مثلها تقريبًا.

- كيف بإمكانه فعل هذا؟ أنا أعني، أي رجل يساعد في البحث عن امرأة يبقيها مسجونة في قبو؟ هذا سادي!

شتم سكوت راي بالألفاظ الممكنة كافة حين أخبر كيت بالقصة.

اتسعت عينا آبي بسبب الأشياء التي خرجت من فمه الليلة. لم يسبق لها أن سمعته يستخدم سوى سباب مدروس قبلًا، لكن الليلة انتقلت ألفاظه إلى مستوى آخر تمامًا.

لا أحد استطاع إنكار أن هذا النوع من الخداع بشع، ولكن شيئًا ما حيال كل هذا لم يتماشَ معي، لأن هذا ما زال اختيار كيت، بمجرد سماع أن سكوت لن يأتي لأنه ظن بعدم إخلاصها كان باستطاعتها الإقرار فورًا بأن عائلتها أكثر أهمية بكثير من منظمة الحب الدولي، لتغادر عائدة إليهما. أو على الأقل كان بوسعها الإصرار على أن تتولى شرح ما يحدث لسكوت بنفسها. لم أكن لأسمح لجيمس بأن يظن أنني على علاقة غرامية زورًا، وأنا وهو بالكاد تحملنا بعضنا بعضًا في نهاية علاقتنا. وماذا عن آبي؟ لا شيء في العالم لديه القدرة على إبعادي عن أولادي لأحد عشر عامًا ما لم أكن مقيدة جسديًّا بحائط. لكنني لم أجرؤ على التفوه بأيٍّ من هذا لسكوت.

لم أقل كلمة واحدة منذ عودتهم مع آبي. لم يكن الأمر مهمًّا أو كان أي شخص مهتمًّا برأيي، على أي حال.

لم أشعر قط بأنني غريبة كما شعرت الليلة. ولا حتى عندما بدأنا أنا وسكوت بالمواعدة، حين تظاهرت آبي بالمرض أو الإصابة كلما خرجنا، وفي كل مرة، منتظمًا كعقارب ساعة، تخلى سكوت عن كل ما نفعله وذهب إليها. غادر ذات مرة في منتصف مسرحية لمساعدتها على إخراج شيء ما من عينها. ليست المشكلة فقط أنه تخلف عن خطط اتفقنا عليها، بل لم يصطحبني معه عندما غادر، حتى بعد أن تواعدنا لأكثر من عام. لكن هذا لا يقارَن بما أشعر به الآن. لا أزال أحاول منع نفسي من البكاء، ولم يلاحظ سكوت ذلك، الأمر الذي زاد من آلامي.

أفصحت كيت بمعلومات قيمة حين أخبرت سكوت أن راي قادها للاعتقاد بأن سكوت علم بمكان وجودها. واستمع دين بهدوء لكلماتها لكنه انضم إلى محادثتها فورًا متشبثًا بالدليل الجديد.

- انتظري لحظة.

رفع يده ليوقفها عن الكلام: «هل تقولين إن راي أخبرك أن سكوت يعرف مكانك؟».

أومأت، وتابع: «وإنه سأل سكوت لو أنه يرغب في رؤيتك ورفض؟».

أجابت بصوت ضعيف: «نعم».

أراد دين الاستمرار في الاستجواب، لكن شايلو استيقظت بحاجة إلى الطعام. وامتن الجميع لهذا الإلهاء، متعَبين للغاية لبذل المزيد من المجهود، وكنا في منتصف الليل على أي حال. انطلق دين مغادرًا وسرعان ما أرسل رسالة عبر هاتفه في أثناء رحيله. ربما لكاميل. كنت بحاجة إلى الخلود إلى النوم. على الرغم من أن دين سهر معنا حتى انتصف الليل، فإنه سيعود قبل أي شخص آخر في الثامنة صباحًا ليساعدني في إعداد القهوة.

تمددت في سريرنا، وسحبت الأغطية إلى صدري. لم يقترب سكوت حتى من الخلود إلى النوم، جلس على كرسي مكتبه وجهازه قيد التشغيل، لكنه حدق إلى باب الغرفة بدلًا من الشاشة، أصابعه لا تتحرك على لوحة المفاتيح، ولم يخلع ملابسه أو ينظف أسنانه.

قلت مكررة لما بدا كالمرة العاشرة: «تعال إلى الفراش».

نال مني الإرهاق ولن أتمكن من النوم ما لم يفعل هو، لأن حركته المستمرة ستوقظني لو جاء إلى الفراش بعدي: «ليس بوسعك فعل أي شيء بخصوص هذا الليلة».

- حقًّا؟

قالها وكأنه غير واثق من أن هذا حقيقي: «لا أعرف كيف يمكنك التفكير في النوم حتى، ألا يفترض بنا أن نبقيها تتحدث؟ أعني.. فقط انظري إلى كل ما باحت به الليلة، نحن نصل إلى مكان أخيرًا ولا أظن أن بوسعنا التوقف الآن».

- لا أظنها فكرة جيدة أن تتحدث معها بمفردك.

كانوا يسجلون كل كلماتها ومقابلاتها ويراجعون الصور بعدها، هذا ما فعلته الدورية الليلية أغلب الوقت، يفتشون التسجيلات بحثًا عن أدلة، بهذه الطريقة اكتشفوا أمر مخيم الشاحنات المهجور الذي استخدموه.

جعد سكوت أنفه وكأنه شم شيئًا قذرًا: «لِم لا يمكنني أن أحدثها بمفردي؟».

تنهدت: «هذا ليس ما أعنيه يا سكوت، أنا متعبة، هل يمكنك أن تأتي إلى الفراش رجاءً؟».

علا صوته فجأة: «لستُ متعبًا».

وضعت إصبعي على فمي: «اهدأ، ستوقظ الجميع».

- لِم تهتمين فجأة بما يظنه الجميع؟

- ماذا؟ ما علاقة هذا بالأمر حتى؟

كان سخيفًا. انقلبت على جانبي، محاولة تجنب الشعور بالضيق، لو جاء الضيق فستمر ساعات قبل أن أتمكن من النوم، ولم أرغب في قضاء يوم آخر معتمدة على أربع ساعات من النوم فحسب.

- أرغب فقط في النوم.

نهرني: «أوه ها نحن نعيدها من جديد، من جديد نهتم بكيف أن هذا الوضع كله ليس مناسبًا لكِ».

- يستحيل التعامل معك الآن. بإمكاني التحدث معك بصورة منطقية، لكن لا يسعني التعامل مع كل هذا الهراء الذي تواصل إلقاءه في وجهي.

أثبتت ردود أفعاله الحادة أنه متعب مثلي. نهض معلنًا فجأة: «لا أهتم. سأذهب إلى هناك للتحدث معها».

تحرك نحو الباب، فأزلت الأغطية وقفزت من السرير. أمسكت بذراعه وسحبته بعيدًا عن الباب.

- قف! إنها نائمة هناك مع الطفلة. في ماذا تفكر؟

- أنا أستطيع فعل ما أريد.

قالها وسحب ذراعه بعيدًا عني.

- هذا منزلي، وهي...

ثم كبح جماح كلماته قبل أن يواصل، لكن هذا لم يعنِ شيئًا، لأنني عرفت الكلمات. هذا منزلي، وهي زوجتي.

على الأقل اعترف بما عرفتُ دائمًا، بأنني زوجته الثانية بالمركز الثاني. والآن بعد أن عادت، لم أعد كذلك. لم أعرف حتى ماذا شكَّلتُ له. على الدوام ظن سكوت أننا متماثلان في هذا التفكير، وعلى الرغم من أنني حاولت تصحيح وجهة نظره على مر السنين، فإنه رفض سماع كلماتي. هذه هي المشكلة. سكوت يحتل المركز الأول كزوج، لأنني وقعت في حب سكوت بطريقة لم أقع بها من قبل في حب جيمس، لكن سكوت أحبني بسبب آلامنا المشتركة. في بداية علاقتنا، أدركت أن هذا هو سبب حبه لي، ليس لأنه توقف عن حب كيت، لكن جزءًا مني تعلق بأمل أن يحبني بالطريقة ذاتها التي أحبها بها من قبل مع مضي الوقت. والوقت مضى، وماتت تلك الأحلام في اللحظة التي طرقت فيها الشرطة بابنا.

استدار لمواجهتي: «هيا يا ميريدث، تعلمين أنني لم أعنِ هذا، أنت دونًا عن الآخرين تعلمين كم أن هذا غريب ومُربك».

لكنه لم ينظر إلى عينيَّ مباشرة وهو يتكلم.

- كل هذا شديد التعقيد، ستفعلين الشيء نفسه لو أن الوضع معكوس، هل يمكنكِ الاعتراف بهذا رجاءً؟

لكنني لم أكن لأفعل، لأن الوضع ليس مماثلًا، ليس قريبًا حتى. اعترفت: «ذهبت لاستشارة محامي طلاق قبل أسبوعين من تلقي خبر إصابة جيمس بالسرطان».

اتسعت عيناه: «ماذا؟».

أومأت، ابتلعت لعابي بقوة، شاعرة بفمي يجف: «هذا ما فعلت».

صدمة ما سمعه مني أجبرته على الجلوس، غاص في أحد كراسي المكتب خاصته.

- لِم عساك تفعلين هذا؟

- لأنني عزمت على طلاقي منه.

شعرت بالراحة لقولها أخيرًا، لم يفترض بي الاحتفاظ بها سرًّا طوال هذا الوقت. سأل سكوت: «ماذا حدث؟».

- تزوجنا في سن مبكرة لأنني كنت حاملًا، وهذا هو الشيء الصحيح الذي ينبغي لنا فعله. حين جاء كايلب إلى الدنيا وقعنا في حب كوننا أبوين. لم نضيع أي وقت لأصير حاملًا من جديد في ثاد. وبصراحة كوَّنا فريقًا جيدًا. دارت حياتنا حولهما، لكنهما كبرا في النهاية ولم يعودا بحاجة إلينا كثيرًا. تعرف كيف تصير الأمور بعدها. على أية حال، كنا غرباء ولم نحب بعضنا بعضًا حقًّا. ومن ثم أُصيب بالسرطان. لم أستطع طلاق رجل مصاب بسرطان الدماغ. لا أحد يملك هذا القدر من الشر داخله.

استطعت رؤية الأسئلة تدور في رأسه.

- إذن كل شيء كان كذبًا؟

- ما عملت على تخطيه في مجموعة الدعم لم يكن كذبًا. أحببته قبلًا، أكثر من أي شيء. ونال مني شبح الحزن على فقدانه لسنوات.

أمضيت معظم سنة كايلب الأولى في المدرسة الثانوية أبكي سرًّا، لأنني عرفت أن زواجنا قد مات ولم يكن لدي أي فكرة عما يجب فعله حيال ذلك.

- وحاولت أن أخبرك. فعلت مرارًا، لكنك لم تستمع لي.

عجزت عن حصر عدد المرات التي بدأت فيها هذه المحادثة، قبل أن يقاطعني. اعتاد أن يقول: «لسنا في حاجة إلى الحديث عن هذا، أنتِ تحبين جيمس وما زلتِ وأنا أحب كيت، لذا نشعر وكأننا نرتكب خطأ ما، أعرف أن شخصًا ما سيحتل جزءًا من قلبك دومًا وأنتِ تعلمين بالمثل».

ثم تنتهي المحادثة. تذكَّر هذا، رأيت التعرف في عينيه. نهض ببطء وتقدم للفراش ليسقط جواري.

- هل يمكننا الخلود إلى النوم فقط الليلة والتظاهر بأن آخر خمس دقائق لم تحدث قط؟

أجبرت شفتيَّ على رسم ابتسامة، لأجله، لكن ليس لأنني سأنسى، وأجبت: «بالطبع».

***

كيت

في الماضي

كانت ويلو على حق، فمغادرة كاليفورنيا هي ما احتجت إليه للتخلي عن حياتي القديمة هناك، على الرغم من أنني حاربت هذا بداخلي كل يوم حتى غادرنا. الوجود ماديًّا بالقرب من عائلتي جعلني أشعر بأنهم قريبون مني حتى ولو لم يرغبوا في وجودي. خلقَت المسافة المادية الجديدة مساحة عاطفية أخرى بداخلي. شعرت بالاستثارة لتجربة الحياة في مكان آخر غير كاليفورنيا لأنني كنت هناك منذ أن كنت في الثالثة من عمري. لكن شعوري بالذنب لم يسمح لي بالاستمتاع المطلق. ووجِلت أن أسعد أمام ذنب ذكرى عائلتي.

تكدس ثلاثة وعشرون منا في شاحنات صغيرة متجهين إلى ولاية أوريغون بعد أن تلقى راي نبوءة مفادها أننا سنفصل أنفسنا عن بقية العالم للاستعداد للجزء التالي من رحلتنا. نشأ بيننا شعور بالحميمية عندما بدأنا في إقامة بيتنا الجديد، لم أجرب الأعمال اليدوية قبلًا لكن كل ما فعلناه هو العمل على اقتلاع الأشجار في الغابة والحفر في التراب، واعترتني السعادة للعمل بيديَّ بهذه الطريقة. لشعرت بأن كل شيء مثالي لو أننا لم نتضور جوعًا. تضاءلت وجباتنا حتى اقتصرت على الفاصوليا والأرز بينما ننتظر نمو محاصيلنا. كل ما تناولناه على العشاء الليلة هو الخبز والماء. وجلسنا ننتظر عودة راي بعصبية حول نار المخيم منذ ذلك الحين.

اختفى راي وحده بعد الغداء، رافضًا السماح لأي شخص بالانضمام إليه، ووعد بتناول الطعام عندما يعود، دون أن يذكر كيف خطط للحصول على هذا الطعام. ذهابه وحده بهذه الطريقة لم يكن غير معتاد، لكن الظلام حل وهو لم يرجع بعد. كنا على وشك الذهاب إلى النوم عندما رآه أحدهم قادمًا عبر المساحة الخالية خلف حقل الأعشاب، وشيء ما يتدلى من يده اليسرى يصعب التعرف عليه في الظلام. عندما اقترب من النار، رفع ذراعه للأعلى، لنرى أرنبين مقلوبين رأسًا على عقب، وعيناهما بارزتان من محجريهما.

- هل هما ميتان؟

اتسعت عينا فيل رعبًا. كان -كمعظم التابعين- نباتيًّا.

- أعتقد ذلك.

قالت بيكا وهي تركز على راي، الذي لوَّح بفخر ليرى الجميع الأرنبين، اللون الأحمر يلطخ رقبتهما، ناسفًا أي شك في موتهما. ابتسم متسائلًا: «من يشعر بالجوع؟».

حدقنا جميعًا إليه، بذهول منعنا من الإجابة. التفت فيل إلى ويل، منتظرًا أن يقول شيئًا، لأنه عادة هو من وقف في وجه راي، لكن ويل لا يزال يحدق إلى المشهد غير مصدق. لذا انطلق فيل يعتريه الغضب حتى أعجزه عن انتظار تعليق ويل، باصقًا كلماته: «هذا ليس مضحكًا، أين وجدتهما؟».

- ماذا تعني بـ«أين وجدتهما؟».

بقيت الابتسامة البلهاء تعلو وجه راي، وهو يضيف: «ذهبت لاصطيادهما».

ساد الصمت مرة أخرى، وانتظر راي أن نكسره نحن، شيء ما في عملية الجدال نفسها أسعده، كما لو أنه يلعب لعبة من نوع ما، وكرهت عندما تصرف بهذه الطريقة. وضع فيل يده على فمه وتنفس بعمق، وحرك فكه وهو يحاول أن يمرر أنفاسه من صدره إلى معدته، لتدفعها لتهدأ.

- كيف اصطدتهما؟

- ماذا تقصد؟

ضيق فيل عينيه: «أنت تعرف بالضبط ما أعنيه».

تظاهر راي بالبراءة: «هل هناك طريقة أخرى لاصطياد الحيوانات غير قتلها لا أعرف عنها؟».

اتخذ فيل خطوة أقرب إليه، وصدره منتفخ، متحديًا: «كيف قتلتهما؟».

تقدم راي بضع خطوات للأمام ووضع الأرنبين على أحد الكراسي حول النار. مد يده إلى الجزء الخلفي من بنطاله وأخرج مسدسًا: «أطلقت عليهما النار بهذا».

قفز ويل وهو يلوِّح بذراعيه صارخًا: «ضع هذا الشيء بعيدًا! ماذا تفعل؟».

أجاب راي وهو يضع المسدس بجانب الأرنبين، رافعًا يديه في إشارة سِلم: «ما أفعله يُدعى شفافية. من فضلك اسمح لي بشرح فعلتي».

أعطى فيل ثانية للرد قبل أن يواصل كلامه، بدا فيل على وشك الانفجار لكنه سمح لراي بمواصلة حديثه: «وعدت بحمايتكم ورعايتكم عندما غادرنا كاليفورنيا. كما تعلمون، فكرة الزراعة اتضح أنها أصعب بكثير مما توقعنا، وتضاءلت إمداداتنا الغذائية إلى الصفر تقريبًا. معظمكم يتضورون جوعًا».

نظر إلينا بوجه يعتريه القلق: «لم أستطع أن أترك شعب الله يتضور جوعًا. أنا فقط لم أستطع».

ولوح بيده لنا جميعًا: «قبل أن يغضب أي شخص مرة أخرى، أريدكم أن تعلموا أنني لم أخبر أحدًا عن خططي للصيد، لأنني علمت أن من بينكم من سيحاول إيقافي».

وتحولت نظراته إلى فيل، لم آآلَفه بالشكل الكافي لأتمكن من قراءة تعبيراته لكنه بدا أقل غضبًا واسترخت كتفاه منذ بدأ راي في الحديث. تابع راي بعدها: «كان عليَّ إيجاد طريقة لنحصل بها على الطعام».

وأشار إلى الأرنبين: «وهذا ما فعلت. خلال دقيقة، سأبدأ بطهيهما على النار، وأرحب بأي شخص لتناول لحمهما، لكن من فضلكم لو أن أيًّا منكم يشعر بعدم الارتياح لتناول اللحم، سأتخلى عن حصتي في الفاصوليا له».

شق ويل طريقه عبر الحشد ووقف أمام راي: «امتلكتَ مسدسًا يا راي، سرًّا. بالنسبة لي هذه مشكلة أكبر بكثير ممَّن سيأكل هذين الأرنبين الغبيين».

أومأ راي: «بإمكاني رؤية لِم قد يثير هذا قلقك يا ويل. لكنني عثرت على المسدس في ذلك اليوم عندما كنت أتحقق من أحد نوابض الإطارات في الخلف، وجدته مخبأ تحت رافعة الإطارات».

امتلكنا سياسة صارمة ضد العنف، وبالطبع عدم امتلاك أسلحة نارية وقع ضمنها.

- اعتاد أحد سائقينا القدامى قيادة هذه الشاحنة في رحلات مهمة إلى الجانب الجنوبي. تعرض للسرقة ثلاث مرات تحت تهديد السلاح وبدأ يحمل سلاحًا من أجل سلامته. أعتقد أنه نسي وجوده ولم يفكر أحد في البحث عنه مطلقًا.

هز كتفيه ثم رفع رأسه إلى السماء: «ربما هذه طريقة الله في عوننا كما لم نستطع عون أنفسنا».

لم يبدُ على ويل الاقتناع، لكنني نظرت إلى بقية الدائرة لأرى ردود فعل الآخرين. وبدا الشك على معظم وجوههم أيضًا. التفتُّ إلى مارجو، كما فعلتُ في معظم الأحوال، لأن نظرتي لها تغيرت لتصير صوت العقل الذي ألجأ إليه. بدت غير متأثرة، وانتظرت راي بنظرة توق على وجهها. ربما هذا نوع من الاختبار أدركتْ أهميته بالفعل. إذا لم تشعر مارجو بالدهشة أو الصدمة لأن راي امتلك سلاحًا، فلن أفعل أنا الأخرى، فعلى الرغم من كل شيء هي تعرفه أفضل مني.

***

اثنان وعشرون

آبي

الآن

طرقت باب غرفة أمي بهدوء. مضت ليلتان منذ أن كنت في غرفتها للمرة الأخيرة. وعجزتُ عن إيجاد الكلمات المناسبة لأقولها بعد كل ما حدث. ما زلت لا أعرف ماذا عليَّ أن أقول، لكني افتقدت التحدث معها في الليل. تفاعُلنا معًا لم يتخذ الشكل ذاته حين أحاط بنا آخرون. بمفردنا استرخت بطريقة لم تفعلها في وجودهم. فتحت أمي الباب وابتسمت شايلو لرؤيتي فصحت: «يا إلهي يا أمي! ابتسمت لي. بدا وكأنها ابتسمت لي حقًّا!».

فأجابت أمي: «أنت أختها».

عانقتني بسرعة قبل أن تتحرك إلى الجانب حتى أتمكن من المرور عبر الباب. أخذتُ شايلو من بين ذراعيها لأحملها. استنشقتُ الجزء العلوي من رأسها الأصلع. حملتْ دائمًا تلك الرائحة الزكية بعد استحمامها.

- أتساءل متى يبدأ الناس في تكوين رائحة كريهة.

ضحكت أمي وبدت ضحكتها مختلفة عما وصفه أبي لي. لكن كذلك كان معظم ما تعلق بها، لم يعد الكثير مما أخبرني إياه عنها صحيحًا. لا يمكن أن تمر بكل ما مرت به ولا تتغير. أخبرني أبي دائمًا أن ضحكتها رنانة، عالية وصاخبة كضحكة رجل سمين عجوز. لكن لم يعد الأمر كذلك. ضحكتها هادئة

ولطيفة ومشوبة بالذنب. كما لو أنها لم يُفترض بها أن تضحك أو تستمتع بالحياة. قالت لي شارحة: «لا أستطيع أن أتذكر متى حدث ذلك معك. في أحد الأيام كنتِ تفوحين برائحة المواليد الجدد، ثم صارت رائحتك تشبه رائحة الطعام الذي لوثتِ به وجهك بالكامل».

ابتسمت للذكرى. صعدتُ على سريرها حاملة شايلو، ووضعتُها على ظهرها بينما أسندت مرفقي فوق الفراش. ركلتْ وحركتْ ذراعيها بعنف. ضحكتْ وأنا أمسح على خديها. جلست أمي خلفي وفركت ظهري وعيناها ضبابيتان بالدموع.

- أنا آسفة على كل هذا. كل شيء. مغادرتي. عدم عودتي.

- من فضلك توقفي عن الاعتذار يا أمي.

بقيت كلماتي معلقة في الهواء. أجبرني البقاء مع أمي على التأقلم مع الصمت، وأدهشني كم من الوقت يمكن أن يمضي دون أن تتفوه بأي كلمة. شيء لم أستطع فعله بعد.

- لِم بقيتِ معهم طوال هذا الوقت؟

- اتبعتُ كلمة الله. يقول: «لأني جعت فأطعمتموني عطشت فسقيتموني كنت غريبًا فآويتموني... أنا...

وضعتُ ذراعي على يدها لمقاطعتها. لا شيء في الاقتباس من الكتاب المقدس بدا منطقيًّا على الإطلاق، ربما بدا منطقيًّا للآخرين، لكن حين تكلمتْ بهذه الطريقة شعرتُ بأنها آلية. أزعجني ذلك وأثار ضيقي.

- أعني كيف كان الأمر بالنسبة إليك، بجانب كل تلك الأمور الدينية؟

أخذتْ لحظة للتفكير في إجابتها هذه المرة قبل أن تقول: «كان جميلًا. الدافع الذي حركهم. الطريقة التي عاشوا وتكلموا بها، كل شيء. لم ينتَبني مثل هذا الشعور قبلًا، وكأننا رُبِطنا وانتمينا إلى بعضنا بعضًا. وأخبرنا راي أنه مسؤول عنا، وأنه لن يدع أي شيء سيئ يحدث لنا أبدًا».

أضاءت عيناها عندما لفظت اسمه. كما اعتادت دائمًا.

- بدا الأمر مثل الوقوع في الحب. كل شيء آخر لم يعد مهمًّا.

من المؤلم أن أكون جزءًا من «كل شيء آخر»، لكنني طلبت منها أن تخبرني الحقيقة، لذلك كان عليَّ التحلِّي بالانفتاح لسماع ما تقول حتى ولو لم يعجبني الرد.

- وراي، كيف كان؟

سألتُ سؤالًا مبدئيًا، غير راغبة في الضغط عليها بشدة.

- تمتع بالكاريزما.

ضحكتْ بعصبية ثم تابعت: «ولكنه كان أكثر من ذلك. امتلك حضورًا هائلًا».

فتحت ذراعيها على اتساعهما: «ملأ كل مساحة ذهب إليها. كان الوجود معه كهدية قدمها لك. وبطريقة ما فعل ذلك دون أن يبدو متعجرفًا».

تجعدت جبهتها مُفكرة: «لا أعرف كيف فعل ذلك».

- الجميع يحب الرجل.

نظرت إليَّ مرتبكة.

فُتن الناس براي منذ أن اشتهرت قصة أن أمي انضمت إلى منظمة الحب الدولي. بل إن بعضهم أنشأ ملفات شخصية على مواقع التواصل كإنستاجرام وفيسبوك ليُظهروا دعمهم له. تعهد عدد لا يُحصى من المتابعين بدعمه وأقسموا إنه يستحيل أن يؤذي أمي بأي شكل من الأشكال لو أنها أمضت كل هذا الوقت بصحبتهم. لكنني عجزت عن إخبار أمي كل هذا، لأنه ليس من المفترض بي أن أراقب مواقع التواصل من الأصل، ولم أرغب في الكذب عليها في الوقت ذاته. لذا نظرتُ إلى باب غرفة نومها، الذي حرصتُ على إغلاقه خلفي حتى لا يسمعنا أحد إذا نهض. وهمستُ: «رأيت راي».

أمسكت بي: «ماذا؟ أين؟».

دارت عيناها حول الغرفة، وكأنني أخفيته في الخزانة أو تحت السرير.

- على مواقع التواصل الاجتماعي.

قلتها بسرعة قبل أن تبدأ في الانزعاج أكثر. لتتساءل: «وسائل التواصل الاجتماعي؟ هذه الأشياء الموجودة على الإنترنت؟».

ابتسمتُ. في بعض الأحيان كدت أنسى مدى قلة معرفتها بالتكنولوجيا.

- تقريبًا، نعم.

- وكانت لديهم صورته؟

أومأتُ.

- هل بإمكاني رؤيتها؟

تجمدت في مكاني. إذا لم يكن من المفترض أن أنظر إلى أيٍّ من هذه الأشياء، فمن المؤكد أنه لم يكن من المفترض أن تقترب هي منها حتى. توسلتْ من جديد حين امتنعتُ عن الإجابة.

- من فضلك، آبي؟

كانت مجرد صورة، وليس الأمر كما لو أنها لا تعرف شكله على أي حال. لن أعرض عليها أيًّا من المقالات أو الأشياء التي قالوا عنها. أخرجتُ هاتفي من جيبي الخلفي ومرَّرتُ سريعًا عبر الصور على محرك البحث حتى وجدتُ الصورة التي انتشرت بسرعة، أدلى الجميع بتعليقات حول مدى وسامته. لكنني لم أتفق معهم. ذكَّرتني وسامته بتوم كروز. كبَّرتُ الصورة وسلمتُها هاتفي. نظرتْ إليها كما لو ترى شبحًا. اهتزت يداها، وامتلأت عيناها على الفور بالدموع. ضاق صدري بالقلق.

- أوَتعلمين يا أمي؟ ربما هذه ليست فكرة جيدة. لا أعرف فيمَ كنت أفكر.

مددتُ يدي لهاتفي لكنها قفزت من الفراش ممسكة به وعيناها وحشيتان وصاحت: «لا!».

انقبضت عضلات رقبتها، فهبطتْ عن الفراش مبتعدة. يمكنني الصراخ وطلب النجدة من أبي إذا واتتني الحاجة، لكنه سيشعر بالغضب لأنني أثرت ذعرها هكذا، المشهد الذي لم يحدث منذ أن عدنا إلى المنزل.

- لا بأس يا أمي، يمكنك الاحتفاظ بهاتفي، لن آخذه منك.

استغرق الأمر ثانية لكن كلماتي بددت حالتها وبدأت تعود إلى ذاتها، شاحبة كالشمع: «أشعر بأنني سأصاب بالمرض».

اندفعتُ نحوها ووضعتُ ذراعي حول خصرها: «أنا هنا، لماذا لا تجلسين على الفراش؟».

ساعدتُها في الاستلقاء على الفراش بأكبر قدر ممكن من الحنان. لم تترك هاتفي بعد لكنها على الأقل لم تعد تحدق إليه. تمدد جسدها قاسيًا ومشدودًا، وعضلات رقبتها لم تسترخِ بعد. أحضرتُ شايلو النائمة إلى أمي محاذرة ألا أوقظها، على أمل أن يهدِّئها ذلك. في البداية حملتْها آليًّا كما لو أنها تعمل بالدفع الذاتي، لكن ما إن استقرت شايلو بحضنها، استرخى جسد أمي ببطء إلى جانب جسد الصغيرة. وتنفستُ الصعداء.

لن أكرر هذا أبدًا مرة أخرى.

***

ثلاثة وعشرون

ميريدث

الآن

امتلأ المطعم عن آخره بالرواد. بحثت في الحشد بعيني حتى رأيت كايلب جالسًا إلى طاولة بمفرده في زاوية. أسرعت متجاوزة النادلة باتجاهه فنهض لملاقاتي، مهديًا إياي العناق الذي انتظرت طوال اليوم. لم أره منذ سبعة أشهر تقريبًا وتلك كانت أطول فترة قضيناها بعيدًا عن بعضنا بعضًا، لكنه غرق حتى رأسه في تدريبه في أحد مكاتب المحاماة وسط المدينة ولم يكن لديه الوقت الكافي للتنفس. لم نعتد الخروج معًا لتناول العشاء عندما يأتي لزيارتي لأنه فضَّل طعامي المطهو منزليًّا، لكن لم يكن بالإمكان استضافته في المنزل الليلة، وجميعنا نسير محاذرين على أطراف أصابعنا حول بعضنا بعضًا، وآخر ما رغبت فيه هو سهرة عشاء غريبة مع الجميع.

قال وهو يسحب الكرسي: «تبدين متعَبة».

فضحكت مجيبة: «شكرًا جزيلًا يا بني».

رفع راحتيه إلى أعلى: «حسنًا، على الأقل أنا صادق».

بينما طلب لي كوبًا من شراب الميرلوت، استقرت كأسه نصف فارغة أمامه. أرعبتني تجربته مع الكحول في مراهقته وبدأت بمراقبة مستوى شربه خوفًا من الإدمان منذ ذلك الحين. أخافه هذا حد أنه أقلع، ليبقى رصينًا لعقد

من الزمن تقريبًا، لكن في السنوات الأخيرة عاد للشرب مرة أخرى. أقسم إن الأمر اقتصر على المناسبات الاجتماعية فقط ولم يشكل له مشكلة حقيقية. وبالتالي صار الزمن هو مرشدنا الوحيد إلى ما سيحدث حقًا. علقت وأنا أتناول رشفة من كأسي: «أنت تحتاج إلى قصة شعر».

لم يعجبني ترك شعره يطول لأنه جعل أنفه يبدو أكبر من وجهه.

- أنا أطيله عمدًا.

ابتسم في وجهي ممازحًا، عالمًا ما أشعر به تجاه شعره الطويل.

- هل تحدثت مع ثاد؟

بالكاد تحدثت معه طوال الأسبوع.

- أمي، من فضلك، هل يمكننا أن ننتقل إلى الثرثرة المهمة حقًّا؟ يمكننا التحدث عن ثاد في أي وقت.

- أنا لا أعرف حتى من أين أبدأ.

قلتها بصراحة، ناهيك بأنني عجزت عن تذكر ما أخبرته به وما قلته لأخيه. أخذت رشفة أخرى من شرابي.

- هل غادروا منزلك بعد؟

قصد فريق مكتب التحقيق الفيدرالي.

- ليس بعد، بحلول يوم الاثنين. عندها سيتغير كل شيء.

كان هناك تحوُّل كبير في الطريقة التي سيتعامل بها مكتب التحقيقات الفيدرالي مع قضية كيت، منذ أن كشفت أنها لم تُختطف. شعرت كاميل بالثقة بأن الوضع آمن بما فيه الكفاية بالنسبة إليها لمواصلة إجراء مقابلات التحقيق الجنائي في مركز الشرطة، وجلسات إعادة البرمجة العقلية مع براين في أحد مراكز الاستشارة المحلية في وسط المدينة. قضى براين معظم جلسة استخلاص المعلومات بالأمس وهو يؤكد على مدى أهمية أن نبدأ جميعًا في العودة إلى روتيننا اليومي، وكيف أن هذا سيساعدنا على الشعور بأن الحياة عادت إلى طبيعتها مرة أخرى، حيث إن أسبوعين كاملين مرًّا منذ انقلب عالمنا

كاملًا رأسًا على عقب. بجانب أن هذا سيساعد كيت على الشعور بالمزيد من الأمان أيضًا. لذا بحلول يوم الاثنين، سيعود سكوت إلى عمله وكيت إلى مدرستها. على الرغم من أن أيًّا منهما لم يرغب في ذلك.

- وأنتِ مَن سيوصل كيت إلى جلساتها كافة؟

أومأتُ، فتابع: «وهم واثقون بأن كلًّا من هذا آمن؟».

- أكثر مما كانوا عليه سابقًا على الأقل، لا يمكنهم إبقاؤنا محتجَزين للأبد.

لوح كايلب للنادل وسرعان ما أملى عليه طلبنا. لم يكلف نفسه عناء السؤال عما أريد، حيث إنني طلبت دائمًا الشيء ذاته. قطعة لحم الخنزير بالكراميل مع سلطة السبانخ.

- هل عثروا على منظمة الحب الدولي بعد؟

- أخبرتك أنهم وجدوا معسكرهم، أليس كذلك؟

- بلى، وجدوه مهجورًا لكنهم واثقون أن هذا هو المكان الذي أمضت فيه على أقل تقدير السنوات القليلة الماضية.

أومأتُ برأسي قبل المتابعة: «لم يعثروا على راي أو أيًّا من الآخرين الذين يبحثون عنهم. لكن بقية أعضاء وتابعي منظمة الحب الدولي كُشف عن هويتهم».

رفع حاجبيه: «حقًّا؟ وكيف هم؟».

- لا شيء مما توقعت، الوضع غريب. معظمهم أناس عاديون. وبعضهم أشخاص ناجحون للغاية أيضًا.

هز رأسه: «مستحيل».

- ستتفاجأ حقًّا، لا فكرة لديك حتى. أغلبهم مؤيدون له. وأقسموا إنه غيَّر حياتهم.

حاولت الابتعاد عن مشاهدة أيٍّ من المقابلات في وسائل الإعلام لكن الأمر كان شبه مستحيل. أجرى برنامج «ديت لاين» مقابلات مع ستة من الأعضاء السابقين الليلة الماضية، ولا شيء حال بيني وبين مشاهدته. كلهم تحدثوا

لصالح راي والحركة، باستثناء مجموعة من الآباء الذين فقدوا ابنتهم البالغة من العمر أربعة وعشرين عامًا لصالح منظمة الحب الدولي. شعروا دائمًا أن لهم علاقة باختفائها، ووصفوا محاولاتهم المستميتة للعثور عليها.

- حسنًا، غيروا حياة كيت بالتأكيد. كيف حالها؟ في تحسن؟

- يصعب قول هذا. لم تعد تتمتم لنفسها بالقدر ذاته، ليس في وجود الآخرين على أي حال. لكنها لا تزال تبدو منفصلة ذهنيًّا وبعيدة جدًّا عن الحياة الدائرة حولها معظم الوقت. لكن في لحظة تعاملها مع أيٍّ من شايلو أو آبي تصير نشطة ومفعمة بالحيوية. يمكنك أن ترى بوضوح أنها تهتم لشأنهما.

- على الأقل ستستعيدين منزلك قريبًا. لن تشعر كيت بالراحة ذاتها في مركز الشرطة لكن على الأقل سيصبح الوضع أقل اختراقًا لخصوصيتكم جميعًا.

- نعم، أنت محق على ما أعتقد، لكن ليس لدي أي فكرة عما سنفعله بعدها، حين يغادر الجميع. الوضع سيصير غريبًا حقًّا. لم نمضِ أي وقت وحدنا عدا تلك الليلة الأولى التي وصلت فيها إلى هنا ولم أعرف حتى كيف أتحدث معها.

حاولت إرغام نفسي على مقاومة الرغبة في البكاء بينما أتحدث، كما حاولت دومًا في وجودهما، لأن ذلك يتسبب لهما بانزعاج كرهت رؤيته على وجهيهما. لكن الأمر تخطى مشكلة البقاء وحدي مع كيت. شعرت بأن سكوت ينزلق من بين أصابعي، ولم يكن هناك ما يمكنني فعله لإيقافه.

- أريد مقابلتها حقًّا.

أرسل لي رسالة نصية مماثلة منذ بضعة أيام، لكنني لن أسمح لأي شخص أن يعاملها كما لو أنها جزء من فقرة استعراضية في السيرك، ولا حتى ابني. حركت رأسي نفيًا.

- هيا يا أمي. ليس الأمر وكأنني لن أقابلها في النهاية. إنها جزء من العائلة.

- إنها ليست جزءًا من العائلة.

قلتها فجأة دون تفكير. المشكلة أنها كانت جزءًا من العائلة، بل جزءًا أكبر مما كنت أنا عليه في أي وقت. ازداد انكماش وجودي كجزء من العائلة أكثر فأكثر بمرور الوقت. وهذا ما آلمني أكثر من أي شيء آخر.

***

كيت

مكتبة ياسمين

في الماضي

- ألمُنا هنا فقط ليُخبرنا شيئًا ما. استمعوا لما سيقوله.

هذا ما أملاه راي علينا قبل أن يغادر في رحلة أخرى من رحلاته الروحية التي تستغرق ثلاثين يومًا. في المرة الأخيرة تسلق قمم تلال وادي سيوكس، لكنه لم يخبر أحدًا عن وجهته هذه المرة. اتفقنا جميعًا على الصيام لمدة ثلاثين يومًا في أثناء غيابه لمساعدته في تحقيق تواصل أقرب مع الرب. كنا بحاجة إلى مساعدته في العثور على إجابة، لأن الأرض لم تستجِب لدعواتنا بعد.

حتى فيل صار يأكل اللحوم الآن. إما ذلك وإما الموت جوعًا، لأنه مهما عملنا بجد في الحقول، رفضت محاصيلنا التعاون. لا أحد منا فقه أي شيء عن زراعة وإنماء الخضراوات في البرية، بغض النظر عن مدى اعتمادنا على الأكل العضوي في حياتنا السابقة، اكتشفنا أن الطريقة الوحيدة للتعلم هي بالممارسة، وحتى الآن دمرنا أكثر مما أنبتنا. تضاءلت إمداداتنا إلى لا شيء تقريبًا، وبدأنا جميعًا نحصي الأيام حتى يعود راي، اليوم هو اليوم المنشود. كل ما فعلناه في أثناء غيابه هو الصلاة والتأمل. ولم يتفوه أحد منا بالحقيقة التي عرفناها جميعًا داخلنا، أننا لن نتمكن من مواصلة الحياة بهذه الطريقة. كان علينا إيجاد طريقة للنجاة والبقاء أحياء، أو المضي قدمًا.

حل الظلام حول المخيم، ولم يعد راي إلينا بعد. رفعنا جميعًا أعيننا مراقبين التلال المحيطة بنا بقلق، وفتشنا عن أي أثر، بينما نتظاهر وكأننا لا نفعل. للحظة، خطرت في ذهني فكرة أنه لن يعود، وسرعان ما وبَّخت نفسي لأنني أعيش أسيرة لمثل هذا الخوف. صوت الخوف من أصعب الأصوات التي بإمكانك محاولة سحقها في رحلة التنوير الروحي، لأنك كلما ظننت أنك تخلصت منه للأبد، يكشف عن وجهه القبيح مرة أخرى.

بحثت ويلو عني بمجرد أن تجمعنا حول النار. على الرغم من كل ما يحدث، ينتهي كل يوم بالاجتماع حول النيران. همست لي خائفة: «أشعر بتوتر شديد، ماذا لو أن شيئًا ما حدث له؟».

حاولت ألا يصل صوتها إلى آذان الآخرين لأن الخوف مُعدٍ.

- هناك الكثير من الدببة في تلك الغابة. أتخيله هناك وهو ينزف حتى الموت بعد تعرضه للهجوم. هل سبق لك أن شاهدت فيلم ليوناردو دي كابريو الذي قاتل فيه هذا الدب الضخم؟ ماذا يسمى؟

رفعت ذراعيها وتظاهرت بأنها دب. ضحكتُ على سخافة مظهرها وأنا أجيب: «لا أعرف. لا أستطيع التذكر».

- على أية حال، هذا كل ما أتخيله.

حملت الطاقة المحيطة بالجمع حول النار عصبية وتوترًا، كما هو الحال في كل مرة انتظرنا فيها عودة راي، لم نكن على طبيعتنا في غيابه قط. أمام النار استغرقت بيث في نقاش تشرح فيه طريقة ابتكرتها لتقليل كمية الدقيق التي نحتاج إليها لصنع الخبز، عندما توقفت في منتصف جملتها وصرخت مشيرة إلى شخص ما يتحرك عبر الأرض الخاوية.

- ها هو ذا!

لم يكن بالإمكان التعرف على ملامحه لكن لم يكن هناك أي لبس في أن تلك طريقة مشي راي، بالإضافة إلى أن لا أحد سواه سيجول في الغابة في مثل هذا الوقت من الليل. قفزنا من أماكننا وانطلق أحدنا مسرعًا نحوه. وقبل أن أعي ما يحدث، وجدتني مدفوعة بين أجساد الآخرين. أسرعنا في سيرنا،

نضحك ونمزح كأطفال المدرسة الذين يُطلَق سراحهم وقت فترة الاستراحة. احتشدنا حوله ممرِّرين إياه بيننا وبين بعض في المجموعة، نعانقه ونقبِّل بعضنا بعضًا. ثم عدنا إلى النار مثرثرين، لنتخذ جميعًا مواقعنا السابقة متشوقين لسماع ما سيقول، آملين ألا ينتظر حتى الصباح ليشاركنا ما لديه.

سألت بيكا: «هل أنت عطش؟ يمكنني إحضار شيء لتشربه».

على الرغم من انتفاخ بطنها بسبب الحمل فإنها ساعدت الآخرين بلا كلل أو ملل. حاولنا دفعها لترتاح ما إن اكتشفنا حملها لكنها لم تستجِب لنا قط. كان الحمل مفاجأة كبيرة لنا حيث لم يعلم أيٌّ منا أنها هي وسام يتواعدان.

- أنا بخير، شكرًا لكِ.

اصطبغت تعبيرات وجهه بالجدية، لم أره بمثل هذه الجدية سابقًا واعتمل القلق داخلي. انتشر الشعور ذاته بين الجميع في أثناء انتظارنا حديثه، لكن الصمت طال حتى صار غير مريح. في النهاية أحنى رأسه وطوى يديه. صار شعره شديد الطول حتى إنه تدلى على أصابعه. عندما رفع رأسه عادت البسمة إلى وجهه ليقول: «عائلتي، تعلمون جميعًا سبب رحلتي، شعرت بحضوركم معي في أثناء غيابي. أشكركم على صلواتكم، لأننا كنا في حاجة ماسة إلى الوحي والنور».

استقام في جلسته ووضع يديه على حجره: «الأرض حولنا لا تمثل إلا افتقارنا للقدرة على إحداث التغيير والإبداع. الأرض تعكس ما يحدث داخل أرواحنا».

توقف مؤقتًا، تاركًا لنا فرصة للتفكير في كلماته بتعمق. واتتني أفكار مماثلة، لأنه بغض النظر عن مدى جدنا وكدحنا، لم ينجح شيء. وصلنا إلى هنا محمَّلين بأمل أننا سنخلق عالمًا جديدًا، ولكن حتى الآن لم ننجح في خلق الكثير على الإطلاق. بدأ القلق والذعر يتسللان إلينا على الرغم من بذلنا قصارى جهدنا. وجاء رد فعلنا على وصول راي المتأخر الليلة بمنزلة شهادة على خوفنا. نظرت إلى الدائرة حولي، مستشعرة مدى حرارة عاطفتهم، واثقة أنها العواطف الحارة ذاتها التي سرت بداخلي.

- استجاب الرب لتوسلاتنا اليائسة وأماني قلوبنا.

أشرق وجهه، وبدأ الامتنان يسري هائلًا من حولنا، لترتفع معنوياتنا فورًا.

- علينا أن نصير مختلفين إذا أردنا الالتحاق بملكوت الرب. راي قادني إلى هذا الحد، لكنه ليس الرجل الذي سيقودنا إلى تنفيذ خطة الرب الكاملة.

رفع ذراعيه ورفع رأسه إلى السماء: «عائلتي، كان عليَّ أن أقتل راي حتى يتمكن الرب من إقامة عهد جديد معنا. ودفنته على ضفاف ذلك الوادي».

وأشار إلى الغابة خلفه: «عُمدت في المياه المظلمة ونهضت سامعًا صوته بالوضوح ذاته، كاليوم الذي تلقيت فيه الرؤيا عن الحب الدولي. قال الرب: من الآن فصاعدًا صرت تُدعى آبنر، أنت أبو النور».

وضع يديه أمام صدره وانحنى أمامنا.

- سأرشدنا إلى الملكوت.

كلماته أدخلتنا في حالة من الصمت والذهول. لم ينتظر حتى نتعافى قبل أن يستمر في الحديث: «أدعوكم للانضمام إليَّ، لكن يجب أن أخبركم أن الأمر لن يكون سهلًا. سنمضي بالعديد من التجارب والمِحَن في كل مرة نتقدم فيها إلى المستوى التالي، من بينكم من هم غير مستعدين، من بينكم من هم جالسون هنا الليلة، ظانين أنهم غير مستعدين، شاعرين بخيبة أمل لأنهم قطعوا كل هذا الطريق وتخلوا عن الكثير من حياتهم ليعودوا خالي الوفاض، مُحمَّلين بلا شيء سوى الوهم، لكنني أشجعكم على فتح أذهانكم، واحتضان ما علمتنا إياه هذه اللحظة، وما تواصِل تعليمنا إياه».

تغيرت وقفته: «الحياة ليست سوى سلسلة من ميلاد، موت وقيامة، من أراد أن يتقدم، عليه بقتل القديم حتى يُقيم الرب الجديد».

في المعتاد هذه هي اللحظة التي يتركنا نطرح أسئلة، لكنه لم يبدُ مهتمًّا بسماع رد فعلنا. تابع فقط: «بالنسبة إلى أولئك منكم الذين اختاروا الذهاب إلى المستوى التالي معي، أريدكم أن تعلموا أن الله كشف مسؤوليتي الهائلة تجاهكم. ستكون وظيفتي أن أعتني بكم وأراقبكم كأب لهذا النور. ومثل أي

أب، ستأتي علينا أوقات سأضطر فيها إلى اتخاذ قرارات قد لا تحظى بشعبية. على عكس السابق. كما تعلمون عبر كل هذا الوقت الذي أمضيتموه معي. اخترت دائمًا سعادة المجموعة حتى لو اضطررت إلى اتخاذ خيار مخالف. لكن من الآن فصاعدًا، لن يشغلني الاهتمام بسعادة المجموعة بقدر اهتمامي بنموكم. لو أن أيًّا منكم وجد هذا غير مريح أو غير مناسب لكم، رجاءً لا تتبعونا في طريقنا. أي شخص لا يريد الذهاب إلى المستوى التالي، أود أن أطلب منكم حزم أمتعتكم والمغادرة بحلول الفجر».

***

تعثر الناس في طريقهم إلى الخيمة، وأعينهم غائمة ومتعبة بسبب الاستيقاظ حتى وقت متأخر في الليلة الماضية. مضينا جميعًا إلى الفراش وفي أذهاننا يدور السؤال ذاته: هل سيغادر أي أحد؟ لم أفكر في ذلك الخيار حتى. أين سأذهب؟ ولم يعد هناك منزل لأعود إليه. ربما مرت سنوات منذ أن فكر بي سكوت أو آبي حتى. حتى الآن رأيت أن الجميع هنا باستثناء ويل وكيث، ولكن هذا راجع فقط لكونهما مع آبنر. تحدثنا جميعًا عن نقطة تغيير الاسم وصعوبة تذكر عدم مناداته بـ«راي» بعد الآن. لكن على عكس قلقنا، كان الأمر سهلًا بصورة أدهشتنا. حتى إننا مع نهاية الحديث الليلة الماضية كنا قد اعتدناه بالفعل تقريبًا.

شخص ما نقل الطاولات والكراسي كافة إلى خارج الخيمة، ووقفنا في جمع ضخم بانتظار معرفة الخطوة التالية.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يعبر آبنر وكيث وويل أرض المخيم ليلجوا الخيمة. ليعلن آبنر: «أنا سعيد جدًّا برؤيتكم جميعًا هذا الصباح يا عائلتي. قلبي ممتلئ بالفرحة».

تغلغل حب آبنر إلى ذرات الهواء في الخيمة التي عملت كغرفة مؤقتة.

- الكتاب المقدس يخبرنا بأن لا أحد يستطيع دخول الملكوت إلا إذا وُلد من جديد. حين رحلت عنكم وُلدت من جديد بعيدًا، وإذا أردتم الانضمام

فعليكم أن تولَدوا من جديد بالطريقة ذاتها. إذا أردنا أن نولَد من جديد، فيجب علينا أن نقتل هويتنا القديمة.

لم تتوقف يداه عن الحركة قط، مُكللتين شرحه لكلماته، مُبرزتين إيماءاته. بدأ ويل وكيث في إخراج حصير اليوجا الذي احتفظنا به مكدسًا في الزاوية اليسرى تحت المظلة الزرقاء.

- اليوم ويل مستعد للتخلي عن حياته القديمة المُفعمة بالخطايا، ليولَد من جديد في مملكة الرب.

بدأ بالتصفيق، وانضممنا إليه جميعًا، رغم أننا لا نعرف ما الذي يحدث. فاحت رائحة العرق والعصبية من الغرفة.

أمر آبنر: «من فضلكم أفسحوا مكانًا في المنتصف».

انتقلنا إلى الجانبين، خالقين فتحة داخل الدائرة. بدأ آبنر وكيث بتمديد حصائر اليوجا، الواحدة تجاور الأخرى، وحين انتهيا أشار آبنر إلى ويل. فصعد على أحدها. لم أره خائفًا إلى هذا الحد قبلًا، حتى عندما أصدر آبنر الأوامر وهدد بالعقاب، ظل ويل هادئًا وغير متأثر. على عكس مظهره اليوم. شحب وجهه حتى صار كالطبشور، وقبض فكيه طاحنًا أسنانه ذهابًا وإيابًا بعصبية. ارتجفت يده الأخرى بعصبية كذلك وهو يحاول البقاء ساكنًا، منتظرًا ما على وشك الحدوث.

أعلن آبنر كرقيب جيش: «القواعد ذاتها ستطبَّق في كل طقس. لن يقدر أحد على رؤية الملكوت، ما لم يولَد من جديد».

حول انتباهه إلى ويل: «هل أنت جاهز؟».

- نعم.

- إذن، كما ناقشنا، عليك الوقوف عاريًا أمام الرب.

سحب ويل قميصه فوق رأسه وألقاه على الأرض، ثم خلع بنطاله حتى وقف بملابسه الداخلية. نزع عنه ملابسه الداخلية بعد ذلك. نظرت بعيدًا احترامًا لمارجو.

- قال يسوع لنيقوديموس إن عودة الإنسان إلى بطن أمه والميلاد من جديد مستحيلة، ولكن الرب دعانا لنرجع إلى الرحم.

بينما اخترقت نظرة آبنر الغرفة استلقى ويل على الحصيرة. جسده كالمصلوب أولًا، ثم وضع ذراعيه على صدره وجسده يتلألأ بالعرق. أخذ آبنر وكيث غطاءً داكنًا وألقياه فوق رأس ويل قبل أن ينشرا إحدى ملاءاتنا السوداء السميكة فوقه. أداراها حوله قبل أن يأخذا ملاءة أخرى ويدحرجاه فوق تلك الملاءة الجديدة. وظلا يدحرجانه حتى التفت الملاءات بإحكام حول جسده، ولم يبرز منه سوى قدميه، ولم يعد هناك طريقة أمامه للتحرك. أعادا وضعه على الحصيرة بحيث يتمدد جسده على طولها.

- لن يقدر أحد على رؤية الملكوت دون أن يولَد من جديد.

أومأ آبنر برأسه إلى كيث، ثم ركع وضغط بساعديه على ويل صارخًا: «بدأت آلام المخاض التي ستقود إلى هذا التحول. ها أنا أصنع كل شيء جديد!».

تحرك حول جسد ويل، وضغط على مناطق مختلفة بساعديه. لم أتمكن من سماع ما يردده همسًا. انضم كيث إلى ويل على الأرض بجوار آبنر. جسد ويل تلوى تحتهم. كيف عساه يتنفس؟

- تعالوا جميعًا.

أمر آبنر. لنحيط جميعًا بجسد ويل، دافعين إياه، ضاغطين عليه، محاصرينه.

- اضغطوا بقوة أكبر. أنتم لا تضغطون بقوة كافية. دعوه يشعر بآلام المخاض. دعوه يناضل. تعالوا جميعًا. عليكم العمل بجدية أكبر.

تحرك كل شيء حولي بسرعة. امتدت الأذرع من كل مكان وصرت محاصَرة بطوفان من الأجساد.

نادى آبنر: «تخلَّ عن حياتك القديمة!».

فصحنا مرددين: «تخلَّ عن حياتك القديمة».

بدأنا بالترديد بصوت أعلى. تدافع الجميع وتحركوا كحشد غاضب في حفل موسيقى الروك، محاصرين إياي بينهم. ارتفع صوت مارجو فوق الجميع: «ابحث عن الضوء. تحرك نحو الفتحة. اترك ظلامك وراءك».

أمسكت ويلو بيدي، نظرت إليها، وبدا وجهها شاحبًا، رموشها تحمل قطرات الدمع. أطبقت بيدي بقوة على يدها ولم أتركها.

صرخ ويل: «لا أستطيع التنفس، لا أستطيع التنفس!».

- أنت على وشك الوصول. هذا هو التحول. استمر في التقدم. استمر في التقدم.

وأشار آبنر إلينا جميعًا مرة أخرى. لنهلِّل: «يمكنك فعلها!».

انقلب جسده وتلوى. وفجأة، اخترقت ذراعه الملاءة السوداء، محدثة ثقبًا فيها. صرخ الجميع وصفقوا كما لو أن شخصًا ما قد سجل للتو هدف الفوز في مباراة كرة قدم. اندفعت مارجو إلى الأمام للمساعدة في إخراجه، لكن آبنر دفعها بعيدًا.

- لا تقتربي. عليه فعل هذا وحده.

خرجت ذراعه الأخرى. ثم، كمسخ، سحب جسده كاملًا خلال الفتحة، تمزقت الملاءة، وألقى بالأغطية الأخرى عن جسده. جلس على ركبتيه والقيء يغطيه. ليعلن آبنر: «مرحبًا بك في ملكوت الرب».

***

أربعة وعشرون

آبي

الآن

التوت معدتي من التوتر عندما طرقت باب غرفة أمي. أكثر توترًا الليلة مما كنت عليه حين طرقت بابها للمرة الأولى، لأنني اصطحبت كماني معي. تعلمت أمي العزف على الكمان في المدرسة الثانوية، وعزفت معظم فترة دراستها الجامعية. قال أبي إن العزف جعلها أكثر سعادة من أي شيء آخر، ولم يكن يبالغ. مشاهدة أشرطة الحفلات القديمة الخاصة بها كان أحد طقوسي المفضلة. نسخها لي أبي على أقراص مدمجة بعد أن صرت على وشك اتلاف الأشرطة القديمة من كثرة التكرار. أحببت رؤيتها تعزف. رقصت عيناها مع الموسيقى، كانت لديها طريقة في جعل الكمان يبدو وكأنه يبكي من الفرح.

جلْب الكمان معي خطوة جريئة، ولم تكن لدي فكرة عما سيكون رد فعلها، لكنني سئمت ثِقل كل قرار والمحاذرة من اتخاذه طوال الوقت، نادرًا ما ابتسمت أمي، وعندما تفعل تتبع ابتسامتها عبسة وكأن الابتسام يؤلم، البهجة لم تصل إلى عينيها قط لذا أملت أن يعيد العزف بهجتها.

فتحَت الباب وهي تقول: «ادخلي».

أجبت وأنا أمضي جوارها: «شكرًا لكِ».

لاحظَت الكمان على الفور فاتسعت عيناها: «أنتِ تعزفين؟».

- نعم، ولكن عزفي ليس جيدًا، لا شيء كعزفك.

لم يُجدِ مدى تدريبي لأن عزفي لم يصل إلى مستواها قط، الموسيقى تحتاج إلى روح موسيقية، وأنا لا أملكها. ليس مثلها، ليس بمستوى مقارب لها حتى.

- هل ترغبين في العزف؟

لم تأخذ لحظة لتفكر حتى قبل أن تحرك رأسها نفيًا.

- هلا عزفتِ لي؟

- بالتأكيد.

صرت أكثر عصبية مما فعلت في أي احتفال أعزف فيه، مددت يدي إلى القلادة حول رقبتي كعادتي كلما قدمت عرضًا لأتلمسها، وابتسمتُ عندما أدركتُ فجأة أنني لن أضطر إلى لمس صورتها لأستدعي حضورها معي في حفلتي القادمة، لأنها ستكون من بين الجمهور.

وضعت أمي شايلو على السرير ووضعت وسادتين على كل جانب منها حتى تتمكن من تركيز اهتمامها كاملًا عليَّ، ربما ستسمح لنفسها بالنوم على السرير أيضًا قريبًا. وقفتُ في منتصف الغرفة بينما أرفع الكمان إلى ذقني. ضبطتُه في وقت سابق اليوم، لذا كان جاهزًا، أعدت تذكر الإيقاع في ذهني، آملة اجتياز عزف تلك المقطوعة دون الوقوع في الكثير من الأخطاء. السبب الوحيد الذي دفعني للعزف هو إحياء ذكراها، وشعرتُ بغرابة شديدة حين جلستْ على السرير أمامي. حررتُ نفسي من التوتر في كتفي لأصير أكثر استقامة. لم أنظر قط إلى أي شخص في أثناء العزف لأن ذلك جعلني شديدة التوتر. حدقت إلى قوسي وأنا أعزف المقطوعات الأولى لأغنية تايلور سويفت الجديدة. نمَت ثقتي بنفسي مع تقدمي، وانتقلتُ بسهولة إلى الأغنية التالية عندما انتهيت. استغرق الأمر مني ثانية لأنظر إلى الأعلى، وعندما نظرت رأيت أمي تبكي بصمت. لم أتحرك لتهدئتها، كما يفعل الجميع دائمًا. في بعض الأحيان عليك تقبل الشعور فقط، وهذه هي إحدى تلك اللحظات. واصلتُ

العزف، مرورًا بكل الأغاني التي عرفتُها، عائدة إلى البداية عندما انتهيت. حين آلمتني أصابعي حتى صرت غير قادرة على العزف توقفت.

- يا إلهي! شكرًا لك آبي.. شكرًا لك.

أشرق وجهها بالسعادة وعجزتُ عن منع ابتسامة الفخر البلهاء من الارتسام على وجهي، لكنني لم أهتم.

- لم أسمع موسيقى منذ...

كانت لا تزال تواجه صعوبة في تذكر في أي عام نحن، واستغرق الأمر ثانية واحدة لتتذكر وتجري العمليات الحسابية في عقلها.

- إحدى عشرة سنة.

- لم تستمعي للموسيقى منذ أحد عشر عامًا؟

أومأت برأسها.

- أو آخذ حمامًا دافئًا.

- ماذا؟ هل تمزحين معي؟

وضعتُ الكمان الخاص بي فوق الخزانة وركضتُ نحو السرير لأجلس بجانبها.

- استخدمنا الماء الساخن فقط للطهي. والماء البارد لكل شيء آخر.

- ذلك فظيع. لم يكن لديكم أي كهرباء أم ماذا؟

- غلينا المياه للطهي وكانت لدينا مولدات يمكننا استخدامها لتسخين مياه الاستحمام، لكننا اخترنا عدم القيام بذلك.

- يا إلهي، لماذا تعاقبون أنفسكم هكذا؟

ضحكت أمي. هذه المرة لم تضع يدها على فمها بسرعة.

- لقد كان جزءًا من تكفيرنا اليومي عن خطايانا.

- هاه؟

- كانت وسيلة لتذكير أنفسنا بطبيعتنا الشريرة وحرمان أجسادنا من شهوة المتعة.

- مثل النوم على الأرض بدلًا من السرير؟

- نعم، نمارس طقوسًا يومية للتوبة لإثبات استحقاقنا للرب.

مضى شيء غريب على وجهها وهي تتلو تلك الكلمات، كغمامة ذكرى أطفأت نور روحها. وضعت ذراعي على كتفها متسائلة: «أمي، هل أنتِ بخير؟».

لفت ذراعيها حول نفسها وفركتهما لأعلى وأسفل كما لو أنها تشعر بالبرد. رفضت النظر إليَّ.

- أشعر بالصداع يداهمني. أعتقد أنه من الأفضل أن أخلد إلى النوم.

***

كيت

في الماضي

اليوم جاء دوري، تطوعت كي أصير التالية. اكتفينا بالقيام بطقس إعادة الميلاد كل بضعة أيام لأننا لم يسعنا القيام بأكثر من جلسة في اليوم الواحد، كنا بحاجة إلى الراحة لأننا خرجنا من تلك الطقوس مستنزَفين. بينما وقفت أمام الخيمة جهز آبنر التحضيرات النهائية.

لم أنم على الإطلاق الليلة الماضية، والتوت معدتي حتى إنني عجزت عن تناول أي شيء على الإفطار. غمرني العرق، لا شيء حدث حتى الآن. ظل القيء يرتفع إلى مؤخرة حلقي فابتلعته بقوة وأنا أنتظر البدء، شج الألم رأسي. بقيت أكرر لنفسي:

تنفسي، كيت. تنفسي.

أستطيع أن أفعل هذا. توجب عليَّ فعل هذا.

بدأ آبنر بتلاوة النص المألوف، لكن كلماته لم تصل إلى أذني، على الرغم من أنني وقفت بجانبه. سيطر الخوف على كياني، حتى جردني من كل فكرة أخرى. ثم أمر صوته: «حان الوقت للتعري أمام الرب».

ارتجفت أصابعي عندما أزلت ثوبي. حدقت إلى الأرض. لم أرغب في رؤية تعبير أي شخص. خوفهم لن يؤدي إلا إلى زيادة خوفي. وسرعان ما أصبحت الحصيرة أمامي، وفعلت ما كان من المفترض أن أفعله دون أن يُطلب مني ذلك. وضعت جسدي عليها، وفردت ذراعيَّ على جانبي. ارتجفت كل عضلة فيَّ بسبب رغبتي في التحرك وهم يدحرجونني داخل البطانية. رنت أذناي، وقفوا أعلى مني، وحام وجه آبنر فوق وجهي، وابتسامته واسعة، وعيناه تلمعان.

- ستكونين بخير.

رأيت الكلمات على فمه. ثم صارت الملاءة السوداء فوق رأسي. خانقة رغبتي في الصراخ. الجزء الصعب لم يبدأ حتى. التوت أصابعي في قبضتي، وأظفاري تحفر في راحة يدي.

- اليوم أقولها، انظروا، هأنذا أصنع كل شيء من جديد. لن يرى أحد الملكوت ما لم يولَد من جديد.

رمشت بعيني، ملأت البقع الحمراء مجال رؤيتي. بدأ الضغط على صدري، مما جعلني أتنفس بصعوبة أكبر. حاولت الابتعاد، لكن دون جدوى. قيدتني البطانية وكأنني مربوطة بحبل. دق رأسي بطبول الذعر، مهددًا بانفجاره لتغمر أشلائي الملاءة.

- آلام المخاض بدأت. تعالوا وساعدوها على الانتقال.

صار الضغط في كل مكان. ولم يعد أي جزء من جسدي حرًّا. ضغطوا عليَّ إلى الأسفل. أقوى، أعنف، حتى انفجرت صرخة وحشية مني بعنف، لم تؤتِ بأي ثمار لأنهم استمروا في الدفع، لن يتوقفوا.

- تخلي عن حياتك القديمة! تخلي عن حياتكم القديمة!

هتافاتهم ملأت أذني.

- أثبتي استحقاقك للرب!

ركلت وضربت بعنف، محاولة بيأس أن أتحرر، تلوى جسدي ذهابًا وإيابًا. لم يعد هناك ما يكفي من الهواء. وكل خلية في جسدي صرخت طلبًا للأكسجين. قطع صوت آبنر نوبة خوفي: «ابحثي عن الضوء. تحركي نحو النور».

لست قوية بما فيه الكفاية. شعرت بأنفاسي تغادرني، عقلي ينفصل عن جسدي ويطفو. تسرب الأسود إلى حافة رؤيتي. أصواتهم جميعًا امتزجت في غمامة كبيرة برأسي، لتسبح مغادرة وعيي. كانوا بجواري، قريبين جدًّا، لكنني لم أتمكن من سماعهم. ولم أعد أشعر بهم أيضًا. شعرت بجسدي خفيفًا. بدأت أطفو فوق اللون الأسود، أراقب نفسي وأنا أكافح للخروج، رأيت آبنر هناك أيضًا بالأعلى، يراقب جسده المادي وهو يدفع جسدي.

- لا تقاومي.

همس في أذني قبل أن يدفعني بلطف إلى جسدي. أجبرت نفسي على الاستقرار بهدوء داخل جدران جسدي. ثم رأيته. ثقب من الضوء، كان صغيرًا جدًّا، لكنه أمامي، على اليمين. إذا تمكنت من إيصال ذراعي إليه، فيمكنني إدخال إصبعي من خلاله.

- النور يا كيت.

صوت ويلو ينادي بخفوت، تبعت الصوت، أدور وألتوي بهدوء حتى أصبحت إحدى ذراعيَّ حرة. تحركت نحو الضوء ودفعت أصابعي عبره.

غمر الأدرينالين دمائي، لأدفع بنفسي بكل ذرة من القوة بقيت داخلي، حتى صار الثقب أكثر اتساعًا.

صنعت حفرة!

ارتج جسدي بالبكاء، صرت قريبة للغاية، أوشكت على الوصول.

سمعت أصواتهم مرة أخرى: «يمكنك فعلها، يمكنك فعلها».

مزقت الملاءة، وخرجت للضوء. ألقيت بكل شيء بعيدًا عني وفككت تشابكي. ضحكت عبر دموعي بهستيريا.

استقبلني آبنر بابتسامة: «مرحبًا بك في ملكوت الرب».

***

تحققت تنبؤات آبنر حول ما سيحدث بعد أن نولَد من جديد. أخبرنا الكون أننا مستعدون للتغيير، واستجاب تمامًا كما قال لنا. بدأت نباتاتنا وحقولنا في النمو، وظهرت حولنا صفوف تلو الأخرى من الفاصوليا الخضراء والذرة. حتى دجاجنا استجاب بوضع المزيد من البيض. تحول كل شيء لمسناه. لم يستطع أيٌّ منا نكران ذلك، شعرنا جميعًا بالتغيير.

لم يتبق لدينا سوى طقسين آخرين حتى اكتمال عملية الانتقال. لن تتمكن بيكا من الذهاب إلا بعد ولادة الطفل، ولم تكن لدينا أي فكرة عن موعد ميلاده. لم تظهر عليها علامات الحمل كثيرًا بعد لكنه كان طفلها الأول وجميع النسوة لم يبدُ عليهن الكثير مع طفلهن الأول. ويلو هي الأخرى لم تعبر، واليوم هو اليوم الذي وافقت فيه على المحاولة من جديد. كافحت ويلو مع الفكرة لأنها عانت رهاب الأماكن المغلقة. تراجعت بالفعل ثلاث مرات مختلفة. لم يرغب أحد في التعبير عن شكوكه علانية، لكننا جميعًا تساءلنا ماذا سيحدث لو لم تتمكن من الاستمرار. ساورها القلق من التساؤل ذاته هي الأخرى ورأيت ذلك على قسماتها. حاولت اقتراح إقامة شيء مختلف رمزي من أجلها بالطريقة ذاتها، لكن آبنر وبخني فورًا. لم يكن يمزح حين أخبرنا بأنه سيلعب دور القائد المُطلق. هذا الجزء سيستغرق وقتًا حتى أعتاده أيضًا.

أسرعتُ لإخراجها من غرفتنا، تقاسمنا المقصورة مع أربع من الفتيات الأخريات. تراصت ثلاث مجموعات من أسرَّة الأطفال في صفين. جلست ويلو على سريرها، وهي تقضم أظفارها بعصبية، وهو أمر لم تفعله منذ أشهر. بذلت قصارى جهدها للتخلص من هذه العادة، ولم يكن الأمر سهلًا، لأنها عانتها منذ طفولتها. أخبرها آبنر أن قضم الأظفار هو بمنزلة أكل نفسها. إذا رآها تفعلها من جديد فسيحاسبها على ما تفعل.

جلستُ بجانبها ووضعتُ ذراعي حول كتفيها: «اسمعي، يمكنك فعلها. أعلم أنك تستطيعين ذلك. أنت واحدة من أقوى الأشخاص الذين أعرفهم».

- أوه من فضلك! هذه كلمات خاوية، هل تتذكرين كيف دعوتِني بالطفلة الهيبي المدللة؟

ضحكتُ: «نعم، ولكن ذلك كان قبل أن أعرفك».

ضغطتُ عليها بإحكام: «هيا بنا نذهب. لا تفكري في الأمر. كلما جلستِ هنا لفترة أطول، زاد قلقك».

- هل هي بهذه الفظاعة حقًّا؟

- نعم.

صفعتْ فخذي: «ليس من المفترض أن تقولي ذلك. من المفترض أن تقولي إن الأمر ليس بالسوء الذي أعتقده. وإنني سأكون بخير».

- سيعني هذا أنني لا أحبك بالمقدار نفسه.

اغرورقت عيناها بالدموع، وانحنت نحوي، وأسندت رأسها على كتفي.

- إنها تجربة شديدة الفظاعة، سيكون شديد السوء كما تظنيـــ...

- يا إلهي!

قاطعتني ضاحكة: «أنت لا تساعدين حقًّا!».

- اسكتي، واستمعي لي.

قلت عبر ضحكاتي: «لكنك ستتغلبين عليه. الجميع يفعل. يبدو الأمر وكأنك لن تفعلي ذلك، ولكنك ستفعلين».

وقفتُ وسحبتها معي. خرجنا من المقصورة إلى مكان التجمع. كنا آخر من وصل. وقف الجميع منتظرين، وأعينهم مليئة بالتشجيع. بدؤوا بالتصفيق عندما دخلنا الخيمة الكبيرة. لم تصل إلى هذا الحد قط. وهرعت الأسرة لاحتضانها واحتوائها. التفتت لتنظر إليَّ قبل أن يبتلعها الحشد، وابتسامة كبيرة على وجهها. تدفقت الدموع إلى خديها مع الامتنان. بينما قبَّلتُها حملوها إلى مقدمة الغرفة مع آبنر. أعدوا كل شيء تمامًا كما كان قبل يومين لطقس انتقال سول.

سأل آبنر بالطريقة ذاتها في بداية كل طقس: «أي مقطع من الكتاب المقدس يحكم هذا الطقس؟».

ارتفعت الأيدي للإجابة، أشار إلى إحدى زميلاتي في المقصورة، واحدة تدعى «لي». التي أجابت وكأنها تقرأ نصًا: «لن يرى أحد ملكوت الرب ما لم يولَد من جديد».

ابتسم آبنر: «جيد جدًا. يجب أن نتخذ هذه الخطوة بشكل صحيح».

مسح الغرفة، ناظرًا إلينا عينًا بعين لفترة وجيزة واحدًا تلو الآخر حتى يتمكن من التأكد من أننا نعرف خطورة ما هو على وشك الحدوث. الموقف حمل الهيبة ذاتها لنا، بغض النظر عن عدد المرات التي نفذناه فيها.

وهكذا بدأ الطقس. صارت ويلو ملفوفة مثلي ومثل أي شخص آخر ذهب من قبل. الحصيرة نفسها. البطانية ذاتها. كل شيء ذاته. بدا جسدها أصغر بكثير عندما لُفَّ مثل البوريتو. بينما تألم قلبي من أجلها وأجبرت نفسي على عدم التحرك، وُضعت الملاءة فوق رأسها.

صرختْ: «توقف، توقف! لا أستطيع أن أفعل هذا. غيرت رأيي. أنا غيرت رأيي».

تجاهلها آبنر وبدأ يضغط على جسدها المغطى، ما جعلها تصرخ أكثر. تحرك الناس حول آبنر رغم احتجاجاتها. ضغطوا على جسدها كما فعلوا مع الجميع. لكن جسدها صغير للغاية. كيف سيفعلونها دون سحقها؟

- أنت تؤذيني! أنت تؤذيني! لو سمحت!

رنت صرخاتها المعذَّبة.

رفعنا أنا وسول أيدينا، هز آبنر رأسه وأشار إلى جسدها المغطى: «استمروا. يجب عليكم الاستمرار. لا تتوقفوا الآن».

أمسك بيدي ودفعها إليها مرة أخرى، وضغط بيده على يدي. التوى جسدها الصغير تحت أيدينا. ترك يدي وأمسك بيد سول بعدها.

- لا أستطيع التنفس. من فضلك، لا أستطيع التنفس.

استغرق الأمر كل قطرة تحكم في النفس داخلي للحفاظ على يدي في مكانها.

- كافحي من أجل الضوء! كافحي من أجل النور!

كنا على دراية جيدة بالروتين. الانتقال هو الجزء الأصعب، تمامًا مثل المخاض الحقيقي.

- أثبتي استحقاقك للرب!

- ساعدوني!

جاءت صرخاتها قاسية حتى إنني شعرت بها في أحشائي فصرختُ: «ابتعدوا عنها!».

دفعتُ دانيال بعيدًا عنها، فأمسك بي وطرحني أرضًا، مثبتًا ذراعي خلف ظهري.

- إنهم يؤذونها. ويلو ترغب في أن يتوقفوا. يجب أن أساعدها.

صرختُ: «من فضلك، يجب أن أساعدها».

قال آبنر: «هذا كله جزء من رحلتها. إنها تتطلع إلى استيقاظها الآن».

لم يتوقف أحد. قاتلتُ ضد دانيال، لكنه أبقاني مقيدة، وأجبرني على مراقبة المشهد أمامي ووجهي مثبت أرضًا. بينما اهتز جسد ويلو انتظر الجميع تحررها. جاءت صرخاتها مكتومة. مجرد أنين. هذه المرة لم تكن هناك يد. بدأ الوقت يتسرب، والجميع ينظر إلى آبنر مترددًا في مواصلة الضغط. لكنه صرخ أن يستمروا. وواصل الدفع. كان ينبغي لها أن تخرج. مضى الكثير من الوقت. لماذا لم تخرج؟

- يجب أن تتحرري إذا أردتِ الحرية، اتركي الظلام خلفك.

لم يتزعزع التصميم في صوته، ابتعد دانيال عني ببطء. وقفت مع الآخرين المحيطين بها ويداي جواري. توقف جسدها عن التحرك تحت الملاءات. لم تعد تصدر أي أصوات أخرى. وضعت يدي على فمي. حتى أعلن آبنر: «يمكنكم التراجع».

غمرتني الراحة بشدة حتى إن رُكبتي فقدت تماسكها أسفل مني. انتهى الأمر أخيرًا. حمدًا لله. بينما تراجعنا فك آبنر الأغطية عن جسدها الذي انعقد داخل عقَد بدا أن الأمر سيستغرق الأبدية لحلها. لكنه عندما فعل أخيرًا، استقرت ويلو على بطنها. قلبها لتستلقي على ظهرها.

كانت شفتاها زرقاوَي اللون، وعيناها مفتوحتين على اتساعهما من الرعب، دون أن ترمشا. حل البطانية الأخرى عنها. سقطت ذراعها على الأرض. وضع وجهه أمام وجهها. اندفعنا أنا وبيكا إلى الأمام، ودفعنا آبنر والآخرين جانبًا. صرختُ فيه: «ابتعد عنها».

ركعت بيكا، واضعة رأسها على فم ويلو، تبحث عن أنفاسها. بينما ضغطت على يدها باكية: «من فضلك كوني بخير. من فضلك».

قالت بيكا: «لا أعتقد أنها تتنفس».

اندفع إيكون عبر الحشد ودفع بيكا إلى الجانب، وانتقل إلى الإنعاش القلبي الرئوي على الفور. توقف الزمن ونحن نراقبه، في انتظار أي علامة على حياتها. عمل بجد أكثر وأسرع. وبالخلف وقفنا أنا وبيكا متشابكتي الأذرع، موجهتين إرادتنا لها كي تتنفس. تقدم آبنر من خلف إيكون ووضع يده على ظهره وقال: «هذا يكفي».

رفع إيكون يديه عن صدر ويلو وجلس على كعبيه. اندفعتُ إلى الأمام: «لا تتوقف! عليك أن تستمر!».

سحبتني بيكا إلى الخلف، وعقدت ذراعيها بإحكام من حولي. أطلقت تنهيدة لا إرادية. أمسك إيكون بأحد معصمي ويلو وتحسس نبضها. نظر إلى آبنر وهز رأسه قبل أن يغلق عينيها. ووضع آبنر يده على جبهتها: «الرب أعطى والرب أخذ».

قفزتُ ودفعتُه بعيدًا عنها.

- لا، لا يزال بإمكاننا إنقاذها. علينا أن ننقذها!

وضع آبنر ذراعيه حولي، فاصطدمت به وضربت صدره.

- لقد رحلت يا كيت. ويلو رحلت.

قال قبل أن يطلق سراحي. انهرت متكومة على الأرض، واندلعت الفوضى. صار الجميع يصرخون ويحاولون الاقتراب منها ويبكون.

- هذا يكفي.

قطعت صرخة آبنر الضجيج. تجمد الجميع عند سماع صوته.

- عليكم السيطرة على أنفسكم حالًا.

قالها وهو يشعر بالاشمئزاز منا. ركع بجانب ويلو وهمس بشيء في أذنها. انفجر بكاء جماعي في الهواء حولنا، غطى جسدها الهامد بأحد الأغطية الممزَّقة، وارتفعت أصوات النحيب، ووضع آبنر إصبعه على شفتيه.

- التزموا الصمت جميعًا. ليس هناك سبب للبكاء. كم مرة أخبرتكم أن هناك نظامًا طبيعيًّا للأشياء؟ كم مرة؟

لم يتكلم أحد.

- إن الله يستأصل أولئك الذين هم أضعف من أن يتمكنوا من البقاء على قيد الحياة. نحن لسنا معفيين من أيٍّ من قواعد الرب.

جالت عيناه في الغرفة، ولم يلاقِ أحد نظراته.

- فليكن هذا درسًا لكم جميعًا.

خمسة وعشرون

ميريدث

الآن

فتحت كيت الأبواب الزجاجية لمركز الشرطة وخرجت. انتظرتها في السيارة في أثناء إتمامها لموعدها الأول، لأن الجلوس في مركز الشرطة لمدة ساعتين كان أمرًا فظيعًا. خططتُ للذهاب إلى ستاربكس، لكنني لم أضع مفاتيحي في مفتاح التشغيل قط. بمجرد أن أغلقت الباب، هاجمتني كل الأسئلة التي أبقيتها مدفونة خارج وعيي، ولم أتحرك من مقعدي وهم يعرضون أنفسهم واحدًا تلو الآخر في رأسي.

وبينما راقبتها وهي تحني رأسها وتغطي رأس شايلو كما فعلت في كل مرة خرجنا فيها، ذكرت نفسي بأن ألتزم الهدوء وأتركها تتحدث. تصرفت كبلهاء في الطريق. وواتاني شعور مماثل لما شعرت به في المرات القليلة الأولى التي أوصلت فيها آبي إلى المدرسة الإعدادية.

ساد بيننا توتر غريب قوي حتى إنني تقت للحظة خروجها من السيارة. على الرغم من أنني حرصت على أن أبدي توقي هذا. على الأقل كان صمت كيت مختلفًا عما كان عليه صمت آبي طوال تلك السنوات الماضية. ملأها الشعور بعدم الثقة والقلق، وتجاهلتني عمدًا. بينما كيت ببساطة لم تكن بحاجة إلى

ملء المساحة بالكلمات الفارغة، وقد أزعجني شيء ما بشأن ذلك، مما جعلني أتحدث أكثر. لينتهي بي الأمر مثرثرة طوال الرحلة حول هراء فارغ.

ثبَّتت كيت شايلو في مقعد السيارة قبل أن تنزلق إلى كرسي الراكب، فرفعتُ حرارة المكيف لأنها ارتجفت دائمًا، مهما كان الجو دافئًا.

- مرحبًا.

فأجابت دون أن تنظر إليَّ: «مرحبًا».

خرجت من موقف السيارات واتجهت يسارًا متجهة إلى الطريق السريع رقم 12. بقيت أنظر إليها بطرف عيني. لكنها أشاحت بوجهها إلى الجانب وهي تحدق من النافذة، لذلك لم أتمكن من رؤية تعبيرها. مت شوقًا لأعرف كيف سرت جلستها. لكنني شعرت أن هذا فضول أكثر مما يجب، وتسلُّط أمومي أكثر مما ينبغي. لن أنزلق في فخ ممارسة الدور الأمومي معها، توصيلها وحده كان غريبًا بما يكفي.

لم تتحدث طوال الرحلة، والصمت جعلني أتصبب عرقًا باردًا بحلول اللحظة التي وصلنا فيها إلى الداخل. بدا منزلنا أكبر بكثير مع رحيل الجميع. حزم فريق كاميل آخر ما لديهم من معدات هذا الصباح ونقلوها إلى مركز الشرطة. ولم يؤدِّ ذلك إلا إلى زيادة اتساع المكان وتضخم الهدوء الذي ملأ الغرف بعد رحيلهم. خلعت كيت حذاءها وصعدت الدرج مع شايلو، ثم أغلقت باب غرفة نومها.

أرسلت رسالة نصية بسرعة إلى سكوت مفادها أننا عدنا إلى المنزل. بذل كل ما في وسعه للمماطلة هذا الصباح قبل أن يغادر في أول يوم له في العمل، على الرغم من أنه حاول التصرف وكأن هذا ليس ما يفعله. أعد شطيرة للغداء على الرغم من أنه يأكل دائمًا في العمل، لأن وجبات الشركة كانت أفضل من أي شيء يمكن لأيٍّ منا أن يصنعه. ماطل لأطول فترة ممكنة ثم قال إنه يحتاج إلى التحقق من بريده الإلكتروني مرة أخرى قبل المغادرة. أرسل لي بالفعل رسالة نصية ثلاث مرات يطلب فيها تحديثًا عن حالها، ولم تكن الساعة قد تجاوزت حتى الحادية عشرة.

لم يسأل في أي من رسائله كيف هي حالي أنا الأخرى. لم يتوقف ليفكر في أن هذا الصباح ربما كان الوضع صعبًا بالنسبة لي أيضًا. وعلى عكسه، هو الذي امتلك روتينًا يمكن أن يعود إليه بسهولة، لم يكن لدي أي فكرة عما كان من المفترض أن أفعله مع إحدى الناجيات المصابات بصدمة نفسية التي هي أيضًا زوجة زوجي السابقة. زوجة ميتة، من الناحية التقنية.

مثل الآن. هل كان من المفترض أن أذهب إلى هناك وأسألها إذا كانت بخير أم أتركها وشأنها؟ بالإضافة إلى أن وقت الغداء سيحل بعد ما يزيد قليلًا على ساعة. هل أعد الغداء لنفسي أم لها أيضًا؟ إذا أعددت الغداء لكلتينا، فهل يجب أن أدعوها لتناول الطعام معي؟ أترك الأمر لها؟ ماذا أفعل لبقية اليوم؟ هل كان من المفترض أن أتظاهر بأنها لم تكن هناك؟ آلمني عجزُ سكوت عن رؤية مدى صعوبة الأمر عليَّ. بالطبع كان ما أمر به ضئيلًا مقارنة بما مروا هم به.

لكن الوضع ليس سهلًا.

لم يكن أيٌّ من هذا سهلًا، وكونه بالكاد لمسني منذ عودتها لم يساعد في تخفيف حدة ما يحدث، بذلت جهدًا للتواصل معه قبل أن ننام، فرفع يدي عنه، وهو يتمتم بشيء عن الإرهاق. لم يكن الأمر فقط أنه لا يريد ممارسة الحب، لم يعانقني في أثناء النوم كما نفعل عادة كل ليلة.

وبُعده هذا آلمني أكثر من رفضه.

***

ستة وعشرون

آبي

الآن

بينما حدقت من نافذة الركاب أوصلني أبي إلى المدرسة، وتمنيت لو بقيت في المنزل مع أمي وشايلو. كان هذا يومي الثاني بعد عودتي، وخشيته بشدة لأن الذهاب للمدرسة عنى أنني سأقضي وقتًا أقل بكثير معهما، لأن أمي حاولت إلزام شايلو بجدول منتظم، بحيث تتحضر للنوم قرابة السابعة، وأنا لن أعود إلى المنزل من المدرسة قبل الرابعة. لذلك كل ما حظيت به هو ثلاث ساعات. هذا يعني أنني بالكاد سأراهما طوال الأسبوع. عقدت ذراعيَّ أمام صدري: «هل يمكننا التحدث عن أمي؟».

أردت التحدث عنها بالأمس، لكنه قضى الرحلة بأكملها في مراجعة ما كان من المفترض أن أقوله لأيٍّ من الأسئلة التي سأتلقاها من الناس حول أمي. لم يكن الأمر بهذه الصعوبة -لا تقولي شيئًا في الأساس- لكن القلق ظل يراوده من أن أخطئ وأتفوه بشيء ما لم يكن من المفترض أن أقوله. ولحسن الحظ، لم يكن لدينا ما يدعو للقلق بشأن وسائل الإعلام، لأنه لم يكن مسموحًا لها بالوجود في أرض المدرسة.

أومأ برأسه، كما لو أنه يتوق للتحدث عنها مثلي. مر ما يقرب من ثلاثة أسابيع منذ طرقت الشرطة بابنا، الحدث الذي غيَّر كل شيء، ولم نتمكن

بالكاد من التحدث عن أي شيء بمفردنا. كان هناك دائمًا شخص آخر في الغرفة أو شخص قريب قد يسمعك. على الأقل سنصير قادرين على التحدث عن تلك الأشياء في أثناء رحلاتنا في الصباح.

- ماذا سيحدث لها حين تغادر المنزل؟

- هل قالت إنها ستغادر؟! متى قالت ذلك؟

- أبي، اهدأ. لا، أمي لم تخبرني أيَّ شيء عن مغادرة البيت، لكنني اعتقدت أنها تحدثت معك بشأن هذا الأمر.

هز رأسه نفيًا.

- لم تقل لي أيَّ شيء. هل تعتقدين أنها تريد المغادرة؟

هززت كتفيَّ.

- ليست لدي أي فكرة. أخبرتك أننا لم نتحدث عن ذلك.

- لكن هل تعتقدين أنها تفكر في ذلك؟

- أبي، هيا. استمع لي. هذا ليس سبب طرحي للسؤال.

أصابني الضيق والإحباط في كل مرة صب أبي تركيزه على نقطة واحدة متجاهلًا كل شيء آخر. لكنني تابعت: «في مرحلة ما، ستضطر أمي إلى مغادرة البيت، وحين تفعل، فكرت في أنني سأرحل معها».

أصبح وجهه شاحبًا، وأمسك بعجلة القيادة: «لا أعرف بشأن هذا يا صغيرتي. سيتعين علينا التفكير في الأمر مليًّا».

- ولكن هذه هي الفكرة، أنا فكرت مليًّا في الأمر.

عرفني أفضل من أي شخص آخر، لم أتخذ أي خطوات دون التفكير فيها مليًّا، أكثر مما يجب أحيانًا بحيث شكَّل هذا مشكلة لي غالبًا.

- لم يبق لي سوى عامين قبل دخول الجامعة، وأريد أن أقضي أكبر قدر ممكن من الوقت للتعرف على أمي وشايلو قبل ذلك الوقت.

أراد أن يعترض، لكنه علم أنني على حق. سأصير في سن الالتحاق بالجامعة في وقت لا يُذكر. وتعلق قلبي بمعهد جورجيا للتكنولوجيا منذ

أن كنت في الصف السادس، وحتى لو لم ألتحق به، سأذهب على الأرجح إلى كلية ما خارج الولاية. وبالتالي فإن العيش معهما سيسمح لي بالتعرف عليهما بطريقة لن يماثلها أخرى. مررنا بالقرب من متجر مايكلز للمشغولات اليدوية، وظهرت المدرسة.

- ما رأي والدتك في كل هذا.

- لم أخبرها أيَّ شيء عنه بعد. أردت استشارتك أولًا.

رفع حاجبيه باستغراب: «حقًّا؟».

- بالطبع.

سيظل رأيه دائمًا الأول في قائمتي. لا شيء من شأنه أن يغير ذلك.

- سأضطر إلى استشارة ميريدث لأعلم رأيها.

دارت عيناي في محجريهما.

- الأمر ليس عاجلًا. هل يمكنك الانتظار قبل أن تقول شيئًا لها؟ كل ما أردت فعله هو أن أخبرك أنني أريد أن أفعل ذلك عندما تصير أمي جاهزة. لا أريد أن أتحدث عن هذا أكثر حتى ذلك الحين.

اتجهنا يسارًا إلى ممر تجمع السيارات. أمسكت حقيبتي من بين قدميَّ.

- من فضلك فقط فكر في الأمر.

انحنيت وقبلته على خده وهو ينزلق في الصف خلف شاحنة صغيرة زرقاء.

- أحبك أبي.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

كيت

في الماضي

دفنا ويلو، هكذا بكل بساطة. لم يعنِ شيئًا تكرارُ آبنر قوله إننا سنعيدها إلى الأرض. وضعناها في التراب وجرفناه فوق جثمانها، مرددين آيات «من الرماد إلى رماد ومن التراب إلى التراب». دار رأسي بكل ما فعلناه، خنقناها، نحن خنقناها. مهما حاولوا تلطيف الأمر أو طبع اسم آخر عليه، نحن مسؤولون عن موت شخص آخر، ولا شيء من شأنه تغيير ذلك، على الرغم من أن آبنر تصرف كما لو كان من المفترض أن هذا جزء من الخطة الرئيسية طوال الوقت. وبالطبع الجميع اتفق معه، كما فعلوا دائمًا، وأصابني هذا بالاشمئزاز. انعقدت أحشائي أكثر فأكثر، نازفة سيلًا من الغضب والحزن يوميًّا.

توقف عقلي عن العمل. انقطع الاتصال. شاهدت نفسي أؤدي مهامي من مكان ما بالأعلى. الاستيقاظ كل صباح قبل ظهور الشمس. ثلاثون دقيقة من التأمل قبل التوجه إلى الميدان. العمل في الحقول طوال اليوم. لكن روحي رحلت، ويلو أخذتني معها إلى القبر.

***

اندلع صوت صرخات بيكا في الليل، ليعبر سماء المخيم. تلوَّت من الألم على المرتبة وظلت على هذا النحو لأكثر من اثنتي عشرة ساعة حتى صارت غير قادرة على تحمل المزيد. تجاوز ألمها قدرتها على التعبير عنه بالكلمات منذ وقت طويل.

بينما جثمت مارجو على رأس السرير، ركعت أنا عند قدميها. بينما وضعتُ مناشف باردة على جبهتها كنت أحاول المساعدة في إخراج الطفل. شيء ما كان خطأ ولم أكن في حاجة إلى خلفية طبية لأعلم أن الدم في بداية المخاض ليس علامة جيدة. عانت ألمًا مفجعًا منذ ذلك الحين.

اجتمعت العائلة على الفور في الخيمة، وانخرطوا في جلسة تأمل متواصلة منذ تلك اللحظات. لم يمضِ وقت طويل منذ أن فقدنا ويلو، وكانت التربة فوق قبرها لا تزال حديثة. لا يمكننا أن نخسر أي شخص آخر. أمِلنا أن يخرج الطفل إلى النور قبل غروب الشمس، لكن الغروب مضى منذ ساعات، ولم يحدث أي تقدم.

- علينا أن نفعل شيئًا.

قلتها باكية حين قوَّست بيكا ظهرها، مرتجفة من الحرب الدائرة داخل جسدها.

- إنها بحاجة إلى طبيب.

لم تتوقف عن قول ذلك منذ أن أطلت قدما الطفل أسفل بيكا بدلًا من الرأس.

همستُ في وجهها: «هذا لن يحدث، وأنت تعلمين ذلك».

توسَّلنا إلى آبنر ليسمح لنا بنقلها إلى المستشفى، لكنه رفض معللًا: «لا يمكننا أن نعترض طريق إرادة الله، مهما كان ذلك صعبًا».

غضبتُ منه سابقًا، لكن لا شيء فاق كراهيتي له في تلك اللحظات. أنَّت بيكا حين سيطر على جسدها انقباض آخر ودفعت بشكل غريزي كما ظلت تفعل طوال اليوم، لم تعد قادرة على تمالك نفسها، واندفعت القدمان مرة أخرى. حاولت مرة واحدة الإمساك بهما وسحبهما لكن الأصوات التي خرجت منها لم تكن بشرية. لن أجبرها على المرور بهذا مرة أخرى. قلت عبر دموعي، لكنَّ كلتينا عرفت أنني أكذب: «لا بأس يا بيكا. أنت على وشك الانتهاء».

توجهت جميع النساء إلى خيمة الولادة في البداية، لكنهن بدأن في المغادرة على الفور تقريبًا. الأمهات فقط هن من بقين، لأنهن مررن بذلك من قبل، لكنهن غادرن مع اشتداد حدة التوتر، حتى لم يبقَ سواي أنا ومارجو. لم يكن من الممكن أن أترك مارجو وحدها. بكت بقدر ما انتحبت بيكا تقريبًا، حبها لها يماثل شدة حبي لويلو.

لم ألمس جسد بيكا في أثناء الانقباضات. اللمس جعل الأمر أسوأ. تعلمنا ذلك بالطريقة الصعبة. حاولت أن أتنفس من أجلها، أن آمر الهواء بالنفاذ إلى رئتيها. وفجأة، انقلب رأسها إلى الجانب وأغلقت عينيها. أمسكت مارجو رأسها ورفعته: «بيكا، لا تذهبي إلى النوم يا عزيزتي. لا تغفي».

فقدت الوعي بالفعل من الألم مرتين حتى الآن. في المرة الثانية كان علينا أن نصفعها لإيقاظها. لم يكن لدينا أي خيار، لأنها لم تستجِب لأي شيء آخر.

- يا إلهي، كيت. فقدَت الوعي مرة أخرى!

ركضتُ إلى رأس السرير ووضعتُ وجهي على وجهها. كانت بالكاد تتنفس.

- آبنر!

صرختُ: «آبنر!».

فتح غطاء الخيمة واندفع إلى الداخل، فقلنا أنا ومارجو معًا: «بيكا تعاني حقًّا. علينا أن نفعل شيئًا».

بينما ركع آبنر بجانبها اندفع سام خلفه، صوته يهتز بالغضب: «لا يهمني ما تقوله، يا آبنر. أنا لن أبقى هناك. أنا أحبها وهذا طفلي. أستحق أن أكون هنا».

لمعت عينا سام بالغضب، ونهض آبنر من جوار فراش بيكا.

- أخبرتك أن تبقى في الخارج حتى تنتهي.

رفع سام ذقنه في تحدٍّ: «لا يهمني ما قلت».

ضاقت عينا آبنر حتى صارتا كشقين: «قلت اذهب!».

وأشار إلى الخارج، فاقتبس سام من الكتاب المقدس: «اليوم إن سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم».

تقدم سام نحو آبنر حتى وقفا وجهًا إلى وجه.

- أنا باقٍ في هذه الغرفة، وهذا نهائي. هذا ما يريدني إلهي أن أفعل.

دفعه آبنر ليندفع إلى الخلف، لينهض سام من فوره ويهاجم آبنر. قفزنا أنا ومارجو.

- توقفا عن ذلك!

اندفعنا بين جسديهما بجسدينا، اصطدم جسد سام بذراعي، وصرخت مارجو: «توقف عن التصرف مثل البُله وساعد بيكا».

تخلَّى سام عن القتال فور أن سمع اسمها، واندفع إلى جانب فراشها. تنفستُ الصعداء عندما خرج آبنر بغضب من الخيمة. سيدفع سام ثمن فعلته لاحقًا -وربما مارجو أيضًا- ولكن على الأقل انتهى الأمر في الوقت الحالي.

بدأ سام يحوم فوق السرير متسائلًا: «ماذا يحدث؟».

- الألم أكبر مما يجب، ولا يزال الطفل ملتويًا بطريقة خاطئة بداخلها.

همستُ بالكلمات، إذا تمكنت بيكا من سماعي أيًّا كان المكان الذي استقر فيه وعيها، لم أرغب في أن تسمعني أكرر تلك الكلمات من جديد. لأنها حين فعلتُ في المرة الأخيرة، تشبثت بي وهي تبكي وتوسلت إليَّ أن أتركها تذهب. الألم ملأ عينيه.

- لم يتغير شيء؟

حركت رأسي نفيًا.

- يا إلهي.

مرر يديه بين خصلات شعره: «ماذا عن الطفل؟ هل الطفل بخير هناك؟ أعني...».

وضعت مارجو يدها على كتفه: «أعتقد أننا نفقد كليهما».

- علينا أن ننقذهما، أعني واحدًا منهما. لا يمكن أن يموت كلاهما. يا إلهي، مارجو. لا يمكن أن يموت كلاهما.

بدأ يدور في دوائر متوترًا: «يا إلهي فيمَ كنت أفكر؟ فيمَ كنت أفكر!».

قالت مارجو بصوت أكثر هدوءًا: «اهدأ يا سام، فقط اهدأ. ربما يجب عليك الخروج لتستنشق بعض الهواء النقي».

وكما لو كان ذلك كإشارة، فُتحت أبواب الخيمة، واقتحم آبنر المكان حاملًا مسدسه ووجَّهه مباشرة نحو سام. فصرخت مارجو: «ماذا تفعل!».

اقترب آبنر خطوة من سام.

- أشعِل نار الانتقام من أولئك الذين لا يطيعون. طاعة كلمات الرب واجبة.

اقترب سام منه: «ما الذي تنوي القيام به؟ ستطلق النار عليَّ؟».

ابتسم بغرور.

- هل ستطلق النار عليَّ الآن يا آبنر؟

- تقول كلمات الرب: «مَن يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة».

هز سام رأسه: «أنت رجل مجنون. هل تعلم ذلك؟».

- سأطلب منك مغادرة هذه الخيمة مرة واحدة أخرى، وبعد ذلك لن أطلبها من جديد.

ولم تتزحزح يده عن المسدس قط.

- أنا لن أغادر.

أخذ سام خطوة أخرى أقرب منه.

- تفضل. أنا لست خائفًا منك.

صوت الطلقة انفجر في الهواء، وأطلقت كلٌّ منا -أنا ومارجو- صرخة مذعورة. ثم تحرك كل شيء بسرعة. ألقيت بنفسي فوق جسد بيكا، وتكومت مارجو قربي. أمسك سام ببطنه حيث أصابته الرصاصة، وتعثر ليهوي على ركبتيه قبل أن يسقط على الأرض، وعيناه متسعتان من عدم التصديق والصدمة.

دخل الجميع إلى الخيمة، وازدحم المكان حتى لم يتمكن أي شخص آخر من الدخول. وقف آبنر منتصبًا في مكانه، محدقًا إلى سام ومكررًا: «تقول كلمات الرب: «من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة»».

كان جسد بيكا لا يزال تحت جسدي.

- من فضلك يا آبنر، علينا أن نفعل شيئًا من أجل بيكا.

لم أستطع تركها تموت أسفل مني. أنا فقط لم أستطع. لم يتزحزح آبنر فصرختُ: «آبنر!».

لفت هذا انتباهه، فألقى بكلماته المسمومة: «أخرجوه من هنا».

مشيرًا إلى جسد سام المكوم أرضًا. للحظة، لم يتحرك أحد، ثم هرع كيث لمساعدة سام، وسرعان ما انضم إليه سول. ألقيا ذراعًا حول كل كتف ورفعاه عن الأرض. صرخ سام مثل حيوان جريح، دماؤه تغطي الجزء الأمامي من قميصه، تاركًا وراءه أثرًا عندما سحباه إلى خارج الباب. تحرك الآخرون جانبًا حتى يتمكنوا من العبور وسارعوا للمساعدة بمجرد خروجهم من الخيمة.

- لتكن مشيئة الرب.

قالها آبنر وأشار للجميع بيد واحدة، ليتفرقوا جميعًا بسرعة تاركين إيانا وحدنا. أغلق باب الخيمة خلفهم ثم صار كل شيء ساكنًا. ابتعدنا أنا ومارجو عن بيكا ووقفنا معًا ممسكتين بأيدي بعضنا بعضًا، مثل الفتيات الصغيرات في الملعب في أول يوم لهن في المدرسة. انتظرنا آبنر ليتكلم وهو يتبختر حول الخيمة ويتنفس بصعوبة. ولا تزال يده اليسرى تمسك بالمسدس. طاردني خوف مارجو. مضى إلى أعلى الفراش، وداس على دماء سام وكأنها لا شيء.

انحنى فوق السرير وتحسس رقبة بيكا باحثًا عن نبض، ثم تحسس معصمها قبل أن يعلن: «إنها على قيد الحياة، ولكن بالكاد».

وضع المسدس في حزام بنطاله، وأطلقتُ أنفاسي التي حبستُها.

- دعونا نرى بشأن هذا الطفل.

انتقل إلى نهاية السرير وركع بين ساقيها، ونظر إليها بالطريقة ذاتها التي فعلها طبيب التوليد معي منذ سنوات عدة، قبل أن يقول: «مارجو، أحضري لي سكيني».

مرت رجفة عبر جسد مارجو.

- لا أستطيع.

كان صوتها بالكاد مسموعًا.

- كيت.

الطريقة التي قال بها اسمي جعلت دمي يغلي، لكن لم يكن لدي خيار. لن أكون مسؤولة عن وفاة شخص آخر. ضغطت على يد مارجو قبل أن أتركها. تجمعت دماء سام مع دماء بيكا في منتصف الأرض. أغمضت عيني وأجبرت نفسي على تجاوزها. عانيت لأحلَّ ربطة باب الخيمة، وترنحت حين واجهت هواء الليل، ألهث لالتقاط أنفاسي، ورأسي ينبض بقوة.

نقلوا سام إلى خيمة التجمع وتسابقوا راكضين حول المخيم محاولين العثور على الإمدادات الطبية. أسرعت إلى مقصورة آبنر المؤقتة، لم أدخلها قبلًا، لكن لم يكن لديه سوى سكين واحدة -تلك التي استخدمها لسلخ جميع الحيوانات- لذلك لم يكن من الصعب العثور عليها.

ابتلعت الرعب الذي زحف إلى مؤخرة حلقي وركزت على فحص الغرفة. لم يكن هناك الكثير من الوقت. ربما قد فات الأوان بالفعل. لا وقت للتفكير. ثم رأيتها، معلقة على خطاف فوق سريره.

فأمسكت بها وهرعت إلى خيمة الولادة.

***

سبعة وعشرون

ميريدث

الآن

نظرت إلى الساعة. الرابعة واثنتا عشرة دقيقة. مضت دقيقتان فقط منذ أن تحققت آخر مرة. خفق رأسي. لم يكن ينبغي لي مطلقًا أن أتناول كأس النبيذ الثانية هذه في نادي الكتب، لكني شعرت بالسعادة عندما أمضيت الوقت خارج المنزل. لم يتطرق أحد إلى وضعنا، على الرغم من أنهم جميعًا كانوا على علم به، وأراحني ألا نتحدث عنه حقًّا. استلقيت مستيقظة لأكثر من ثلاثين دقيقة ونبض جسدي كله بالطاقة والاضطراب. نهضت من السرير بهدوء، وبذلت قصارى جهدي حتى لا أوقظ سكوت، لأن نومه خفيف. دخلت إلى الحمام على رؤوس أصابعي، حريصة على عدم تشغيل الضوء أو إصدار أي ضجيج عندما انتهيت. خرجت من غرفة نومنا وتوجهت إلى الطابق السفلي. ربما عليَّ تحضير شطائر الإفطار للجميع، بما أنني استيقظت مبكرًا للغاية.

اقتربت من زاوية المطبخ، لأرى كيت بجانب الثلاجة، واضعة سماعة الهاتف على أذنها وفمها. توقفتُ في مكاني مصدومة. صفعَت الهاتف على الحائط عندما رأتني. استغرق الأمر مني ثانية لفهم ما رأيته للتو.

- هل كنتِ تتحدثين مع شخص ما؟

نظرت إليَّ بعينيها المتسعتين، وسرعان ما استدارت حتى أصبح ظهرها لي وفتحت باب الثلاجة، واختفت خلفه، لتضحك بعصبية.

- لا.

بقيت متسمرة في مكاني: «لكنكِ كنتِ تمسكين السماعة عندما دخلتُ المطبخ؟ وسمعتُ صوتًا عندما اقتربتُ من الزاوية».

- نعم، وأنا أيضًا.

ثم أغلقتْ باب الثلاجة لتسألني: «هل أنتِ بخير؟».

أشرتُ إلى نفسي: «أنا؟ أوه... نعم أنا... استيقظتُ للتو ولم أتمكن من النوم مرة أخرى».

أفكاري رفضت الاجتماع في جملة منسقة.

- انتهيتُ للتو من إطعام شايلو، لذلك شعرتُ بالجوع.

أعطتني التفاحة التي حصلتْ عليها من الثلاجة. تحركتْ بجانبي واستمرتْ في المشي دون النظر إلى الوراء.

- ليلة سعيدة يا ميريدث.

وقفتُ هناك مذهولة وهي تسرع إلى أعلى الدرج. مع من كانت تتحدث؟ هرعتُ إلى الطابق العلوي وحركتُ سكوت ليستيقظ، سأل وهو يجلس: «هل كل شيء على ما يرام؟».

وضعت إصبعي على شفتي: «ششش. كن هادئًا. لا أريدها أن تسمعنا».

- من؟

أشرت إلى الغرفة المجاورة وأجبت: «كيت».

انخفض صوته ليصير همسًا: «ماذا يحدث هنا؟».

أبقيت صوتي منخفضًا أيضًا.

- استيقظتُ في الثالثة ولم أستطع العودة إلى النوم. أنت تعرف كيف أشعر أحيانًا عندما أشرب النبيذ. على أية حال، نزلتُ إلى الطابق السفلي نحو الساعة الرابعة، لأنني فكرتُ في إعداد وجبة إفطار كبيرة للجميع بما أنني استيقظتُ. دخلتُ المطبخ، وكانت كيت تتحدث على الهاتف مع شخص ما. تظاهرتْ كما لو أنها نزلت إلى الطابق السفلي لتناول وجبة خفيفة ونفَت الأمر برمته حين سألتُها عنه.

ما زلت لا أصدق كيف أنكرت بعد أن أمسكتُها متلبسة. سأل سكوت مستفسرًا وهو يحاول إبعاد النعاس عنه: «تحدثتْ بالهاتف؟».

- نعم، باستثناء أنها نفت الأمر كله، ألا تعتقد أن هذا غريب؟

- ربما أرادت التحدث على انفراد.

- في الرابعة صباحًا؟ مع مَن تجري محادثات خاصة في هذا الوقت من الليل؟

لم يكن لديه إجابة عن ذلك.

- هل تعتقد أنها كانت تتحدث إلى واحد منهم؟

وبالطبع لم أكن في حاجة إلى إيضاح من أشرت إليهم.

- أنا أشك في ذلك.

- ماذا لو كانت كذلك يا سكوت؟ ماذا لو كانت تجري مكالمات معهم في منتصف الليل طوال هذا الوقت؟ عليك أن تتصل بدين.

- سأفعل، ولكن لا أعتقد أنك بحاجة إلى القلق بشأن ذلك. إما أن الليلة هي الليلة الأولى التي تفعل فيها هذا، وإما أنها فعلتها طوال الوقت، وهم يعرفون ذلك بالفعل. لو أنهم يعرفون بالفعل ولم يخبرونا، فهذا ليس شيئًا يدعو للقلق.

- هل يمكنك التأكد وسؤال دين عن ذلك غدًا، من فضلك؟ على الأقل كي أعرف أنهم يجرون تحرياتهم وأن لا شيء يدعو للقلق.

أعرف أنهم بحثوا في الأمر، ولم يكن هناك ما يدعو للقلق.

- ميريدث، قلت للتو إنني سأفعل. لدي عمل في الصباح.

بدأ ينسل بالفعل أسفل الأغطية، على استعداد تام ليتجاهل الأمر برمته بسهولة.

لكنني لن أفعل.

***

ثمانية وعشرون

آبي

الآن

حدقت إلى الشاشة الفارغة أمامي كما فعلت طوال الساعة الماضية، وأنا أفكر فيما إذا كان ينبغي لي تسجيل الدخول إلى المنتديات الخاصة بالمختفين وتحديث حالة أمي أم لا. نشطت تلك المواقع مرة أخرى منذ ظهور أخبار عودتها، لكنها حتى الآن مجرد تكهنات وقصص. أجرت جميع وسائل الإعلام مقابلات مع عامل محطة الوقود، لكن لم يتحدث أيٌّ منا إلى الصحافة، ولم تقدم الشرطة سوى ردود مكتوبة سابقًا حول التحقيق وطلبت من الناس احترام خصوصيتنا.

قال أبي إن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا قبل أن يتوقفوا عن ملاحقتنا لإجراء المقابلات. ما زالوا يخيمون في نهاية شارعنا. قوانين المدينة فقط هي التي أبعدتهم عن باحتنا ومدخل منزلنا.

لم أنشر أي شيء من قبل. لم يطلب مني أبي قط ألا أفعل ذلك، لكن ذلك لأنه وثق بي ولأنني لست غبية بما يكفي لأفعل. لكنني أردت أن أخبر متابعيها أنها بخير، وأنها تتحسن كل يوم. سيشعرون بالسعادة للحديث عن التقدم الذي أحرزتْه، لأن حتى الآن كل أخبار عودتها أثارت الإحباط فقط. فهمت السبب لكنني كنت سعيدة بعودتها إلى المنزل فقط رغم كل شيء، بغض

النظر عن الظروف، وأردت أن يتظاهر شخص آخر على الأقل بأنه متحمس لذلك أيضًا.

تابع ثلاثة أشخاص بأسماء «Elziehunter» و«crystalclear» و«mindjam21» قضيتها من البداية، بوسعك الشعور بمدى حبهم لها متجسدًا في كل شيء قالوه عنها، ومقدار الوقت الذي كرسوه للبحث في قضيتها. على الأقل أولئك يستحقون معرفة كيف هي حالها.

سجلت الدخول، حين اكتشفت تلك المنتديات للمرة الأولى، قضيت ساعات في محاولة إخفائها عني. لكنَّ هناك شيئًا مريحًا في الدخول، ومن الغريب أن هذا الشعور لا يزال يجتاحني. بقيت أراقبهم منذ الليلة التي وجدنا فيها أمي، أمشط ما كُتب بعينين مختلفتين. نقرت لأدخل الصفحة الرئيسية.

وتصفحت بسرعة لمعرفة ما إذا كُتب أي شيء يستحق انتباهي، قبل التمرير لأسفل إلى الموضوع الخاص بأمي بعنوان «الأُم المفقودة من أركاتا». كُتب تحديث جديد من قِبل شخص تُدعى غلوريا. نقرت على ملفها الشخصي. كان لدى غلوريا منشور واحد وكانت عضوة لمدة يومين فقط. التوت أمعائي.

مررت المؤشر بسرعة لأسفل إلى الرسالة ونقرت فوقها لفتحها على شاشتي لأرى العبارة:

«كيت بينيت امرأة ميتة».

***

كيت

في الماضي

ضممت طفل بيكا الصغير بالقرب من صدري بينما رائحة الدخان تملأ رئتي. ضغط وزن حقيبتي عليَّ، مما جعل من المستحيل تقريبًا الركض.

المنزل الذي عملنا جاهدين على بنائه احترق خلفنا. صرخ آبنر الليلة الماضية. الغضب تجلى في وجهه وملأ صوته: «ليس لدينا خيار، هذه الأرض ملعونة. لو أن أيًّا منكم لا يصدقني، فانظروا حولكم إلى كل الدماء المراقة الليلة».

ولوح بذراعه مشيرًا إلى آثار أقدامنا الملطخة بالدماء. كان جسد سام ملقى، مغطى بملاءة خارج خيمة التجمع. بيكا ترقد ميتة داخل خيمة الولادة. طفلهما هو الوحيد الذي نجا.

- خذيه.

دفعه آبنر بين ذراعيَّ بعد وقت قصير من إخراجه من بيكا، حملته منذ ذلك الحين. مشاهد ولادته تومض في ذهني دون أن أقدر على منعها. سأدفعها إلى أقصى حد يمكنني دفنها فيه في عقلي، إلى قاع لا قاع بعده. وحين تعاود الظهور، سأجد طريقة لأجعلها تختفي. ظللت أقول لنفسي مرارًا وتكرارًا إن بيكا على الأقل كانت ميتة عندما حدث ذلك، لكن لا يهم عدد المرات التي قلت فيها هذه الكلمات. كان جسدها لا يزال دافئًا عندما قطعناها. تحرك الطفل على صدري، كان يتضور جوعًا، وضعت إصبعي في فمه على أمل أن تهدئه. من دون حليب بيكا، لا أعرف كيف سنطعمه. أعطيته رشفات صغيرة من الماء مع رشات قليلة من السكر، لكن ذلك ليس كافيًا. بكى طوال الليل وحتى هذا الصباح. السبب الوحيد لهدوئه الآن هو أن الإرهاق والجوع نالا منه حتى عجز عن البكاء أكثر.

بكت مارجو خلفي، وتدفقت دموعها باستمرار بينما كنا نسير. أسندها ويل في أثناء ذهابهما، لكنها سارت بخطوات متثاقلة كما لو أن كل خطوة تخطوها تؤلمها. عرفتُ هذا الشعور. الألم الذي تشعر به عندما تظل حيًّا في حين يختفي شخص أحببته كثيرًا. الألم لم يقل.

ولم تكن الوحيدة التي تبكي. اندلعت موجات من النحيب في الصباح الباكر، حين مضينا في حالة من الصدمة. خذلنا الرب بفظاعة. أوضح آبنر ذلك الليلة الماضية عندما كان الوحيد الذي ظل هادئًا وطلب مساعدة الرب بينما

تخبطنا في حالة من الهستيريا. فوضى مطلقة، الجميع يصرخون، يقاتلون، الجميع ينادون، البعض طلبًا للمساعدة، والبعض الآخر طلبًا للخلاص. اضطر إلى إطلاق النار مرة أخرى فقط ليجعلنا نتوقف ونستقر. أمرنا بإشعال النار، وتحركنا على الفور للتنفيذ، ممتنين لوجود صوت نستمع له. وقفنا حول النار عندما انتهينا.

- لا تنظروا إلى الخلف عندما نغادر هذا المكان، فيحل بكم ما حل بقوم لوط.

الشعلة في عينيه ماثلت تلك التي أشعلناها واجتمعنا حولها.

- أمرهم الرب ألا ينظروا إلى الوراء، ولكن ماذا حدث؟

ولم ينتظر منا الرد: «تحولت سارة إلى عمود ملح على الفور».

فرقع أصابعه: «هكذا بهذه السرعة. لأنه عندما تغادرون، فإنكم تتركون كل شيء خلفكم. أنتم تحرقون جسوركم وسفنكم».

وهذا ما فعلناه، حملنا ما نستطيع حمله، ركضنا عبر المخيم وأشعلنا النار.

أمرنا آبنر: «احرقوه حتى يصير رمادًا».

اختنقتُ من الخوف الذي شق طريقه إلى حلقي، تاركًا مذاقًا مريرًا. بالكاد تمكنت من رؤية آبنر وويل في مقدمة القطيع، يقودان الطريق عبر الغابة المتشابكة، وهما الوحيدان اللذان عادا إلى الشاحنتين منذ أن أنشأنا المخيم.

كان مخططًا في كل شيء، لم تكن هذه البداية، لقد كانت النهاية.

***

تسعة وعشرون

ميريدث

الآن

كنت أواجه صعوبة في تذكر كلمة المرور الخاصة بسكوت، لأنني نادرًا ما أستخدم الكمبيوتر في غرفة نومنا وجعلني التوتر أنسى. ما زلت لم أهدأ منذ هذا الصباح. جاءت آبي إلى غرفة نومنا قبل الإفطار وأخبرتنا أن شخصًا ما نشر تهديدًا بالقتل لكيت في المنتديات. أرعبها هذا بشدة، وعلى الرغم من أن سكوت أكد لها أنه ربما مجرد تهديد فارغ آخر، فإنها توسلت إليه للسماح لها بالبقاء في المنزل وعدم الذهاب إلى المدرسة. شعرت بالسعادة لأنه جعلها تذهب، رغم ذلك.

كان هناك الكثير من المختلين على مر السنين الذين نشروا مقالات عنها، لدرجة أنني لم أُلم سكوت على الابتعاد عن أي شيء مكتوب عن كيت عبر الإنترنت. لكن التهديد الذي رافق حادث مكالمة كيت الهاتفية الليلة الماضية جعل أعصابي متوترة، ولم تساعدني محادثة سكوت مع دين على الإطلاق.

اتصل بدين بعد أن أوصل آبي إلى المدرسة، وتبادلنا الرسائل النصية حول هذا الموضوع منذ ذلك الحين. برزت كلمة المرور الخاصة به في ذهني، وكتبتها بسرعة قبل أن أفقدها مرة أخرى. سأله سكوت عن موضوع المنتدى، وقال الشيء نفسه الذي قاله سكوت؛ لا تقلق بشأن ذلك. لم يكن

دين مهتمًا جدًّا بالمكالمة الهاتفية أيضًا. أخبر سكوت أن كيت كانت تستيقظ ليلًا وتتجول في المنزل كثيرًا، لكنها لم تجرِ مكالمة هاتفية قط. وقال أيضًا إنها بدت مرتبكة ومشوشة بشأن الوقت من اليوم الذي حاول فيه أي شخص التحدث معها وكان متأكدًا من أن هذا هو ما حدث الليلة الماضية.

وقد وافق سكوت على منطقه.

كنت سأفعل ذلك أيضًا، لو أنها لم تكذب بشأن ذلك عندما سألتُها عما كانت تفعله، لكنني لم أرغب في أن أتشاجر معهما. سجلت الدخول إلى مزود الخدمة اللاسلكية لدينا. ذات مقدمي خدمة الهاتف المنزلي لدينا أيضًا. تحركت إلى دورة الفاتورة الحالية وفتحتها. كان الوقت باكرًا جدًّا على رؤية تاريخ المكالمات التي تمت خلال الساعات الاثنتي عشرة الماضية، ولكن كانت هناك مكالمة هاتفية أخرى أُجريَت من هاتف منزلنا هذا الشهر: منذ ليلتين، الساعة 2:30 صباحًا، إلى رقم غير معروف.

عدت بذاكرتي إلى الوراء خلال الأشهر الماضية، لكن آخر مكالمة من هاتف المنزل أُجريَت قبل أربعة أشهر، عندما اتصلت آبي لتطلب مني الاتصال بهاتفها الخلوي لأنها فقدته في مكان ما في المنزل. طبعتُ نتائج الأشهر الأربعة الماضية حتى أتمكن من عرضها على سكوت عندما يعود إلى المنزل. لم أثق مطلقًا في حُكمه من قبل، لكن فجأة وجدت نفسي أنظر إلى كيت وكأنها غريبة تمامًا. شخص لا يعرفه أحد منا يشاركنا منزلنا. حاولت إقناع نفسي بأنني أبالغ، لكنني لم أستطع التخلص من هذا الشعور. وكيف يمكنني فعلها؟ كذبتْ مباشرة في وجهي.

***

كيت

في الماضي

سألني آبنر حين توقفنا للتزود بالوقود: «كيت، لِم لا تركبين معي؟».

رغم أنه صاغه كسؤال، فإنه لم يكن هناك أي طريقة للرفض دون إحداث جلبة، لذا صعدت على مضض إلى مقعد الراكب في الشاحنة التي تحمل مؤونتنا. مضت ثلاثة أيام تقريبًا على رحلتنا، ولم نتحدث بعد. لا أحد تفوه بالكثير عن أي شيء. توقعت جلبة كبيرة بمجرد وصولنا إلى الشاحنات، لكن على عكس توقعاتي، لم نتمهل ولو للحظة. انخرطنا فورًا في وضع أمتعتنا في الشاحنات دون أي نوع من النقاش باستثناء مكان تخزين كل شيء. جلست مضغوطة إلى باب مقعد الراكب المجاور للسائق. بعيدة عنه قدر المستطاع. قدنا لأكثر من ساعة دون أن نتفوه ببنت شفة. لا تزال رائحة الدخان تملأ أنفي. لن ننزع الرائحة أبدًا من ملابسنا، مهما بذلنا من جهد في فركها. ما فعلناه كان ملتصقًا بنا كالورم الخبيث.

ثلاث جثث.

هذا هو عدد الأشخاص الذين تركناهم وراءنا. صرخ الناس في آبنر بسبب ما فعله، لكن ذلك لم يمنعهم من حفر قبورهم. دفنوا جثتَي سام وبيكا بجانب بعضهما بعضًا. لم نقم بطقس أو نقُل كلمات هذه المرة. آبنر دفع الجميع لإشعال النيران فورًا وهو يصرخ بشدة قائلًا إن الأرض التي وقفنا عليها ملعونة. تحدث آبنر وكأنه اقتحم أفكاري: «لن تشعري دائمًا بهذا الشعور».

قلت: «لن ينسى أحدٌ قط». وأردت أن أضيف أنه لا سيما أنا، لكنني عضضت لساني. لم يتوقف صوت إطلاق النار عن التردد داخل عقلي، دافعًا إياي لأجفل في كل مرة، لم تقِل حدته قط.

- ولا ينبغي لهم.

بصقتُ الكلمات في وجهه، غير قادرة على منع نفسي.

- جيد. لا أريد أن ينسى أحد. أريد أن يظل كل ما حدث هنا محفورًا في ذاكرتنا بطريقة لا يمكن لأي وقت أن يمحوها. خذلنا بعضنا بعضًا، وخذلنا الله، وأنفسنا. علمت مدى صعوبة الأمر حين دعاني الرب إلى الانفصال عن أنفسنا، لكنني لم أتخيل قط أنها ستكون مأسَوية إلى هذا الحد.

امتلأ صوته العميق بالعاطفة: «هذا اختبار، وهو أصعب اختبار كان علينا تحمله في رحلتنا. سنمر بالكثير حتى نصل إلى الملكوت، ولكن كل هذا يتناسب تمامًا مع النبوة. الوفاة في أثناء الولادة. التمرد والعند. الارتباك. الاقتتال بيننا. كل هذا جزء منه. هذا يجعلنا مستعدين. عليك أن تثقي بي».

أشحت بوجهي بعيدًا، ونظرت من النافذة إلى التلال المتموجة، وتمنيت أن أتمكن من القفز منها. لن أثق به مرة أخرى. ربما كانت وفاة ويلو وبيكا مجرد حوادث، لكنه أطلق النار على سام بدم بارد. ارتجفت عندما وضع يده على ركبتي.

- هل تثقين بي يا كيت؟

أبعدت يده.

- هذا ليس ما نتحدث عنه. الأمر لا يتعلق بالثقة، يتعلق الأمر بما فعلتَه. كيف...

قاطعني: «فقط أجيبي عن السؤال، هل تثقين بي؟».

- لا أريد الإجابة عن سؤالك.

- أنت تثقين بي. أعلم أنك تفعلين، بقدر ما ترغبين في ألا تفعلي.

وضع يده مرة أخرى على ركبتي متعمدًا.

- أنت مميزة. قلت لك ذلك مرارًا. منذ الأسبوع الأول الذي قضيتِه في القبو، عندما شعرت بخيبة أمل شديدة لأنني اعتقدت أنك ستغادرين. تتذكرين ذلك؟ نحن متشابهان في العديد من النواحي. أشعر معك بارتباط لا أشعر به مع الآخرين، وذلك لأن علاقتنا مبنية على الثقة. اجتزتِ أعلى اختبار ولاء بتركك لعائلتك.

نادرًا ما تحدثنا عن تلك الأيام. خضنا في حياة مختلفة منذ ذلك الحين.

- كان ذلك لأنني آمنت بكل ما فعلت.

- ولكن ألا ترين يا كيت؟ لم يتغير أيٌّ من ذلك. لا شيء مختلف اليوم عما كان عليه قبل ثلاثة أيام.

- كيف يمكنك حتى أن تقول ذلك؟ مات شخصان!

- ماتت بيكا من مضاعفات في أثناء الولادة. لم يكن هناك ما يمكن فعله حيال ذلك، وأنت تعلمين ذلك.

- وسام؟

- عاقب المسيح من أحبهم طوال الوقت بسبب العصيان. بكى في كل مرة بالطريقة نفسها التي حزنتُ بها على موت سام، لكن تذكري أن سام فرح الآن، مع الرب في الأبدية. وإذا قرر السفر إلى الأرض مرة أخرى، فستتاح له فرصة أخرى لتعلُّم ما لم يتعلمه هذه المرة وتوسيع وعيه.

نظر إليَّ بسرعة قبل أن يعيد عينيه إلى الطريق.

- أنا لا أسألك إذا كنتِ تفهمين أيًا من هذا أو حتى توافقين عليه. ليس عليكِ أن تتفقي معي. لكن مرة أخرى، السؤال هو: «هل تثقين بي؟».

أومأت برأسي ليس لأن ذلك كان صحيحًا، بل لأنني أردت منه أن يتركني وشأني.

- أنتِ تعلمين أننا نبوح بكلماتنا بصوت عالٍ.

- نعم أنا أثق بك.

قلت وأنا أعقد ذراعي على صدري.

- هذه هي فتاتي.

لم أكن فتاته. ليس بعد الآن.

***

اجتمعنا حول النار في مخيمنا الجديد، باستثناء أنه لم يكن هناك شيء جديد فيها. قادنا آبنر عبر الطرق الريفية التي شقت طريقها عبر الجبال

حتى انتهى بنا الأمر في مخيم شاحنات سكن متنقلة مهجور. تحطمت الألواح الخرسانية، ونمت الحشائش والأعشاب من خلال الشقوق. وكل سطح أملس غطته كتابات بالطلاء.

كان المكان قديمًا ومتهالكًا، ومليئًا بأجزاء مفقودة من حياة الآخرين. وسرعان ما أقمنا معسكرًا وأشعلنا نارًا، وانهرنا حولها منهَكين ومرهَقين عاطفيًّا. انزعجت عندما نهض آبنر ليتحدث. كنت آمل أن يظل هادئًا الليلة.

- من المؤسف أن جسد بيكا لم يتمكن من تحمل مضاعفات المخاض. كان الأمر مأسَويًّا ولا يصدَّق. سيستمر حزننا لفترة طويلة. سيؤثر علينا جميعًا بشكل مختلف، وأطلب منا أن نتعامل مع بعضنا بعضًا بلطف، بغض النظر عن الطريقة التي يختار بها الحزن التعبير عن نفسه.

عبْر النار لفت سول انتباهي. اعتراه غضب هائل في تلك الليلة حين رأى آبنر خارجًا من خيمة الولادة. وتقدم نحوه بسرعة بغرض ضربه. تطلب الأمر ثلاثة رجال لإيقافه. هززت كتفي وأشحت بنظري بعيدًا قبل أن يراني آبنر. ربما يعتريني الغضب منه، لكنني لست غبية.

مشى آبنر إلى حيث وقفت جين وهي تحمل طفل بيكا. تناوبنا جميعًا على الاعتناء به. لم يتأقلم مع الرضاعة بعد، وبصق معظمها في غضون دقائق من الانتهاء من الزجاجة، ولكننا دعونا أن يكون بعضها قد دخل إلى نظامه قبل أن يرفضها. أخذ آبنر الطفل من ذراعيها ورفعه وضم يده خلف رقبته لدعم رأسه.

- تركت لنا بيكا أغلى هدية. كنت هناك عندما ماتت، وتوسلت إليَّ أن أعتني بطفلها.

انتصب الشعر على الجزء الخلفي من رقبتي. لم يكن هذا صحيحًا تمامًا. كانت ميتة بالفعل عندما وضع يده عليها. توسلت إليَّ وإلى مارجو لإنقاذ طفلها وتركها تموت بعد أن توقفت عن التوسل من أجل الذهاب إلى المستشفى. أجبرت نفسي على الاستماع لما سيقوله بعد ذلك.

- لقد عهدتْ بطفلها إلى رعايتنا وعائلتنا. وعلى الرغم من كل القبح الذي يدور حولنا الآن، فإننا مسؤولون عن هذا الطفل.

وضمَّه إلى صدره.

- كم مرة قلت إننا جميعًا واحد؟

توقف عن الكلام، وساد الصمت لثوانٍ معدودة، لكنه لم يتوقع إجابة. كان الأمر بديهيًّا، لأنه قال ذلك مئات المرات على مدار السنين. كان جزءًا من جوهرنا، الشيء الذي جعلنا ما نحن عليه.

- أنا أنتمي إليكم، وأنتم تنتمون إليَّ. وما زلنا ملتزمين بهذا الاتفاق. نحن صنعنا هذه الحياة أمام الرب وأمام بعضنا بعضًا. لذا أيتها العائلة، نحن ملزَمون برعاية هذه الحياة الجديدة.

تحركت بضيق في مجلسي، وجلست مارجو بشكل أكثر استقامة.

- يسوع دعاهم وقال: «دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ، لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ اللّهِ»، هذا الطفل؟

ارتفع صوته: «إنه مستقبلنا. يجب علينا جميعًا أن نعمل معًا لتدريبه لسلوك الطريق الذي ينبغي أن يسلكه. لم يكن المقصود من المسؤولية قط أن تقع على عاتق واحد أو اثنين فقط. كان من المفترض دائمًا أن نتشاركها».

توقف للحظة قبل المتابعة: «مَن معي؟».

فاجأتنا مارجو جميعًا برفع يدها أولًا. تبعها ويل بسرعة، وسرعان ما ارتفعت الأيدي حول النار. رفعت يدي أنا أيضًا. لأنني لم أرغب في أن يستدعيني لعدم المشاركة.

وامتلأت عينا آبنر بالدموع.

- أريد أن يأتي بقية الأطفال ويقفوا بجانبي.

تجول حول النار ومد يده لكل طفل في مجموعتنا. خرج الأطفال وانضموا إليه، ولم يرفعوا أعينهم عن والديهم قط. ستة منهم، لكنني بالكاد أعرتهم أي اهتمام. كانوا أشبه بالقطط التي تحوم حول قدمي في أثناء مضي الأيام.

تشبثت آن بذراع مايكل. دفعتْه إلى الأمام وكأنها تقول: «افعل شيئًا ما».

كان لديهم ثلاثة أطفال في الدائرة: تشاد وشين وبن. أمسك أولادهم أيدي بعضهم بعضًا في منتصف المجموعة. ملأت الضحكات العصبية سكون الليل عندما أرشدهم إلى مكانهم ووقف خلفهم وذراعاه مفتوحتان كما لو أنهم على وشك التقاط صورة.

- هؤلاء الأطفال سيصبحون أول جنود في جيش ملكوت الرب. ما فشلنا فيه، سينجحون هم به. في كل مجال أخطأنا فيه، سيتجاوزونه بسهولة بصورة أكبر بكثير مما يمكن أن نطلب أو نتخيل. تمامًا كما تقول الكلمة المقدسة. أرسل لنا الرب هذه النبوءة ذاتها.

تساقط العرق على وجهه بينما تحرِّكه حماسة روحه.

- عائلتي، ربما فشلنا، لكننا لسنا فاشلين. أُرهِقنا ولكننا لم ننسَ. أعطانا الرب هذه الهدية. فرصة لتصحيح كل الأخطاء من خلال هذا النسل الجديد. هل تشعرون بحضوره هنا الليلة؟ لا تحاولوا التظاهر بأنكم لا تفعلون. أعرف أنكم تفعلون. انفضوا عنكم غضبكم، انفضوا الضيق، المرارة. سوف تدمركم. لا تتمسكوا بها. على عاتق أولئك الأطفال مهمة إنقاذ العالم، سيتمكنون من فِعل ما لم نتمكن منه. لكن علينا التخلي للتجلي. أيتها العائلة، هل تستمعون لي؟ هل تشعرون بكلماتي؟

وفي غضون ثوانٍ، وقف الجميع يزأرون ويصفقون. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يبدأ شخص ما في الرقص. رن صوت جين تغني. هتف أحدهم خلفها، بصوته توسل يائس إلى الله كي يغفر لنا ويمنحنا فرصة أخرى.

لكنني لم أستطع النهوض. أجبرت نفسي على رفع يدي، لكنني لم أستطع دفع نفسي للاحتفال، أو التظاهر بالتحمس لكلماته. لم أكن الوحيدة التي بقيت جالسة.

هل تساءلوا عن الشيء ذاته مثلي؟ وقفنا مكتوفي الأيدي وتركنا الناس يموتون، لماذا اعتقدنا أننا نستحق العفو أو نستحق فرصة أخرى؟

***

ثلاثون

ميريدث

الآن

لم يتحدث أيٌّ منا منذ أن خرجنا. مر شهر تقريبًا منذ عودة كيت، وكانت هذه هي المرة الأولى التي نكون فيها أنا وسكوت معًا بمفردنا خارج المنزل. سألني لو أنني أرغب في الذهاب في نزهة مشيًا بعد العشاء، واغتنمت الفرصة. ملْء أكوابنا بالقهوة والتجول في حيِّنا كان أحد الأنشطة المفضلة لدينا.

كان شارعنا غاية في الجمال، حتى إنه ظهر مرتين في مجلة «يوم المرأة». بينما أمسك سكوت بيدي سرنا على الرصيف، كما فعل مرات عديدة في الماضي، وكادت هذه الإيماءة البسيطة تجعلني أبكي. بعد مرور عدة أبنية سكنية أخرى قلت: «اشتقت لوجودنا معًا».

فضغط على يدي: «وأنا أيضًا».

- هل تشعرين بتحسن تجاه الأمور، أكثر مما كنتِ عليه هذا الصباح؟

حاولتُ إخفاء انزعاجي لأنه طرح الأمر بهذه السرعة. بالطبع بدا واضحًا أننا سنتحدث عن هذه الأشياء، لكنني تمنيت أن أستمتع باستراحة قليلًا من كل ما يحدث. لم يساورني القلق بشأن المقالات في المنتدى، هذا كان شيئًا خاصًا بآبي. لكن أكثر ما أقلقني هو المكالمات الهاتفية، التي ازدادت بعد أن رأيت تحديث سجل المكالمات في الظهيرة تقريبًا، لتظهر المكالمة الأخرى

التي أُجريَت هذا الصباح، لرقم غير معروف أيضًا، تمامًا مثل سابقتها. لكنني لم أرغب في إثارة الأمر وإفساد اللحظة لذا كذبت على سكوت: «نعم، أشعر بالتحسن».

قال سكوت بينما واصلنا سيرنا على الرصيف: «عليكِ أن تثقي بأداء المحققين لعملهم».

- مثلما وثقت أنت بهم؟

قلتها دون تفكير. وتجمدت يده في يدي فعقبت: «لا أحاول أن أكون لئيمة يا سكوت حقًّا، ولكن كم من مرة على مر السنين استمعت لك وأنت تكرر كيف أساؤوا التعامل مع قضية كيت؟».

ازدادت سرعته في أثناء سيرنا.

- هذا وضع مختلف تمامًا. قبلًا أفسدوا الوضع بتركيزهم عليَّ كمشتبَه به وبتجاهلهم خيوطًا مهمة أخرى. لكن الجميع بقي على رأس الأحداث منذ بدايتها هذه المرة.

ازدادت حدة صوته: «صدقيني، نحن لسنا في خطر من أي نوع. لم يكن دين ليسحب كل رجال الأمن قط لو كنا في خطر حقيقي...».

- وحقيقة أنها كذبت عليَّ بشأن حديثها على الهاتف؟

تسمر جسده جواري وهو يجيب: «لا تغضبي مني يا ميريدث من فضلك، لكن بصراحة، لو أرادت الحديث على الهاتف فهذا شأنها الخاص».

سحبت يدي من يده: «هل تمزح معي!».

- أعني أننا لسنا والديها. يمكنها التحدث مع أناس آخرين.

- وتكذب عليَّ بشأن ذلك؟ هل هذا مقبول؟

- لا، بالطبع لا، ولكن علينا فقط أن نستمر في منحها المساحة الآمنة لتجاوز أيٍّ كان ما تحاول تجاوزه.

- هل سيخبر دين كاميل وبقية الفريق بالمكالمات الهاتفية؟

- لست متأكدًا.

- لَم تسأله؟

لم يحتَج إلى الإجابة لأعرف أنه لم يفعل.

- لماذا لم تتأكد من أنه سيفعل ذلك؟

استثار غضبي قدرته على دفن رأسه في الرمال وتجاهل تلك المشكلة. لو أنها تكذب بشأن حديثها على الهاتف، فما الذي تكذب بشأنه أيضًا؟

***

صر صوت الباب الخارجي بخفوت فجلست مستقيمة ومنتبهة فورًا. بقيت مستيقظة طوال الليالي الثلاث الماضية لرصد كيت. وهذه هي أول مرة أسمع فيها شيئًا. حبست أنفاسي، كما لو أن سماعي أتنفس قد يشي باستيقاظي، فتذهب عائدة إلى غرفتها. هذه المنازل القديمة لا تترك لك فرصة، بغض النظر عن مدى حنكتك، ولم تكن هناك طريقة تقريبًا لمنع الدرج الثاني قبل الأخير من إحداث الضوضاء. وكما لو أن ذلك يُعَد إشارة ما إن سمعته. إشارة مغادرتي للفراش.

وقفت بجانب باب غرفة نومنا لبضع دقائق، وأجبرت نفسي على منحها الوقت الكافي لبدء مكالمتها الهاتفية. آملة أنها تستمع لأيٍّ كان مَن على الطرف الآخر من الخط أكثر مما تستمع لي. فتحت الباب وانزلقت إلى الخارج ملتصقة بالجدار، حيث المكان الأكثر هدوءًا. وصلت إلى أعلى الدرج ونزلت، وحبست أنفاسي مرة أخرى.

لم يكن هناك أي شك في صوت الهمس الخافت والمحموم القادم من المطبخ. تخطيت الدرج المكسور ودخلت إلى المطبخ لأرى كيت تقف في النقطة ذاتها التي كانت فيها قبلًا، والهاتف على أذنها، تهمس: «أنا...».

تجمدت كيت في منتصف جملتها، ثم أعادت جهاز الاستقبال بسرعة إلى مكانه.

- ميريدث، مرحبًا.

- عرفت أنك تتحدثين مع شخص ما.

استحال نكران أنني ضبطتها متلبسة هذه المرة، لكنها هزت رأسها وحاولت التظاهر بالبراءة وهي تجيب: «لم أكن أتحدث مع أي شخص».

- هل تمزحين معي؟

أشرت إلى الهاتف: «دخلت عليكِ للتو ووضعتِه مكانه!».

- لم أفعل، لا أعرف ما ظننتِ أنك رأيتِ.

حاولتْ تجاوزي، لكنني سددت طريقها بجسدي، ووضعتُ يدي على فخذي: «أنا أعرف بالضبط ما رأيتُه».

لم تستسلم بهذه السهولة. مدت يدها بسرعة ودفعتني جانبًا قبل أن تدور حولي. التفتت لتنظر إليَّ من فوق كتفها وهي تبتعد: «وحتى لو كنت أتحدث عبر الهاتف، فهذا ليس من شأنك».

بينما أسرعتُ خلفها وأمسكتُ بذراعها كانت على وشك وضع قدمها على الدرج، لأقول وأنا أديرها: «لم ننتهِ من هذه المحادثة».

لم يكن هناك شك في أمارات الغضب في وجهها. الخاطئون فقط يغضبون بهذه الطريقة حين يضبَطون وهم يرتكبون شيئًا خاطئًا. لوحتْ بسجلات الهاتف أمامها: «أترين هذا؟ إنها قائمة بالمكالمات التي أُجريَت من الهاتف في المطبخ خلال الشهر الماضي، واحزري ماذا؟ لم تكن هناك مكالمة في منتصف الليل حتى انتقلتِ للعيش معنا».

ابتعدت عني.

- اتركيني وحدي. أنتِ لا تعرفين ما تتحدثين عنه.

- لِم لا تشرحين إذن؟

حاذر الجميع بشدة في أثناء الحديث معها. لكن ربما حان الوقت لمعرفة ما ستفعله لو ضُغط عليها قليلًا. خفضت صوتها: «لو سمحتِ، ستوقظين شايلو».

- ستعود إلى النوم.

- لِم تفعلين هذا؟

سألت وعيناها تغرورقان بالدموع. لكنني رفضت التأثر ببكائها، تمامًا كما فعلتُ حين كان ابناي صغيرين وانتابتهما إحدى نوبات البكاء.

- أخبريني ما يحدث.

فتحت فمها لتتحدث، ثم أغلقته بسرعة وكأنها غيرت رأيها.

- ليس عليَّ إخبارك أيَّ شيء.

خفضت رأسها إلى الأسفل وسحبت ذراعها بعيدًا وتحركت مارة بجانبي.

- أرجوكِ دعيني وشأني.

صعدَت الخطوات القليلة الأخيرة من أسفل الردهة إلى غرفة نومها، وأغلقَت الباب خلفها بإحكام. أسرعتُ خلفها ودخلتُ إلى غرفة نومنا، وكدت أن أصطدم بسكوت وهو راكع على الأرض، باحثًا في سلة الغسيل عن شيء نظيف يرتديه.

- ما الذي يحدث هناك بحق الجحيم؟

سأل وهو يسحب سترة فوق رأسه. أغلقت الباب وانحنيت أمامه محاوِلة التقاط أنفاسي: «لم أرغب في قول أي شيء حتى أحصل على دليل قاطع، لذا لا أرغب في أن تعتقد أنني تعمدت إخفاء أي شيء عنك. لكن على أي حال، بدأتُ بضبط المنبه والاستيقاظ في أوقات مختلفة لأرى ما إذا كانت كيت ستستخدم الهاتف في اتصالات ليلية مرة أخرى. حسنًا، الليلة أمسكتُ بها متلبسة. وكذبتْ عليَّ عندما واجهتُها بهذا الأمر، تمامًا كما حدث من قبل، لكن هذا ليس الجزء الأكثر غرابة. طلبتْ مني ألا أفعل بها هذا، أنا لا أعرف حتى ما الذي تتحدث عنه. أردت فقط أن تخبرنا الحقيقةَ».

- إذن أنت تتجولين في المنزل ليلًا وتتجسسين عليها؟

بدأ العالم يدور من حولي وكأنني اصطدمت توًّا بالحائط.

- أنا أتجسس عليها!

- أعني الاستيقاظ في منتصف الليل ومحاولة الإمساك بها يبدو وكأنه تجسس بالنسبة لي. هل نسيتِ أننا نحاول كسب ثقتها، وليس كسرها؟

حرك فكه متابعًا: «كيف تظنين أنها ستنفتح معنا لو أنها لا تثق بنا؟ وليس فقط معضلة الانفتاح، بل التحسن. هذا ما نحاول مساعدتها على القيام به. أتذكرين؟».

خفق نبضي في صدغي. الغضب يشق طريقه إلى صدري. تكورت أصابعي في قبضتين على جانبيَّ.

- اعتقدتُ أن معرفة ما إذا كانت تتحدث إلى شخص في منتصف الليل أمر شديد الأهمية، ناهيك بسبب كذبها بشأن ذلك، ولم أرَ طريقة أفضل من الإمساك بها متلبسة بفعلتها.

- لِم أنتِ مهووسة بهذا الموضوع؟

- ولِم لا تهتم أنت مطلقًا هكذا!

نظرته الساذجة لها أثارت جنوني، تابعت: «ماذا لو أنها تتحدث إلى شخص في منظمة الحب الدولي؟».

هز رأسه.

- ماذا لو أنها لا تزال على اتصال بهم؟

رفضت التغاضي عن الموضوع، وبخاصة إذا كان هناك أي احتمال بأن يكون أيٌّ منا في خطر. لكن سكوت قال باقتناع: «لا تفعل».

- كيف يمكنك أن تثق بشكل أعمى بشخص تركك لمدة أحد عشر عامًا؟

تراجع للخلف وكأنني صفعته.

- أنا آسفة. لم يكن ينبغي لي قول هذا، لم أفكر.

- تحركي.

أدركت أنه يعتقد أنني أمنعه من الخروج من الباب، لأنني وقفت أمامه.

- إلى أين ستذهب؟

سألت، لكنني عرفت الجواب بالفعل.

- سأرى ما إذا كانت بخير.

***

واحد وثلاثون

آبي

الآن

سحبت الوسادة فوق رأسي. سأشعر بالسعادة عندما أتمكن من النوم كأي شخص عادي مرة أخرى. كانت الساعة الخامسة تقريبًا، وتمنيت أن أتمكن من العودة إلى النوم. أيقظني شيء ما في الغرفة المجاورة، ثم سمعت جدال أبي وميريدث الهامس. لم أرغب حتى في معرفة ما يحدث.

التقطت هاتفي عن المنضدة وفتحت منتدى «المختفين». حدَّثت الصفحة من جديد كما بقيت أفعل، قلقة منذ رأيت رسالة التهديد التي نشرتها غلوريا عن أمي قبل ليلتين. من كانت؟ قضيت ساعات أحدق إلى السطر، عاجزة عن الحركة، أقرؤه فقط مرارًا وتكرارًا. بالطبع لم يأخذ أبي الأمر على محمل الجد. لم يفعل ذلك قط. لن تكون هذه هي المرة الأولى التي يحاول فيها شخص السيطرة على مسار الحديث في موضوع يخصها بكتابة هراء كهذا. ذات مرة تظاهر شخص ما بأنه هي. وفي عدة مرات أخرى، كتب أحدهم شيئًا مشابهًا، لكنه تمحور حول كونها على قيد الحياة.

باستثناء أن أمي كانت على قيد الحياة حقًّا، وهذا المنشور نشِر في غضون أسابيع من عودتها إلى المنزل. هل كان من المفترض أن أصدق أن كل ذلك محض مصادفة؟ إذا لم يأخذ أحد الأمر على محمل الجد، فسأفعل ذلك

بنفسي. بالإضافة إلى أن دين قال إنه سيراقب المنتديات من كثب، فما الذي يجب أن أقلق بشأنه حقًّا؟

نظرت حولي وكأن أبي يستطيع أن يرى من خلال الجدران إلى داخل غرفة نومي وسيأتي مسرعًا ليوقفني في أي لحظة. أنشأت حسابًا بأسرع ما يمكن وسجلت لأتمكن من الكتابة بالجزء الخاص بالتعليقات، تسارعت ضربات قلبي في صدري مع كل نقرة على لوحة المفاتيح. صرت مستخدمًا مسجَّلًا خلال ثوانٍ. وكتبت «لماذا ترغبين في موتها؟».

ثم ضغطت إرسال بسرعة قبل أن أغير رأيي.

***

كيت

في الماضي

قلبت الفاصوليا، وملأت الأوعية قبل أن أمررها إلى مارجو بينما عبر آبنر جوارنا. كان شديد الانشغال بالتواصل مع الأرواح، والتمتمة بالصلوات همسًا حتى إنه لم يعِرنا أي اهتمام. خلفه مضى مايلز، ابن بيكا. مترنحًا، يحاول مواكبته بأقصى جهد استطاع بذله. على الرغم من أن آبنر حاول التظاهر بأن جميع الأطفال متساوون في عينيه، فقد خصص مكانة في قلبه لمايلز، مفضِّلًا إياه أكثر من الآخرين حتى إنه سمح له بالنوم معه ليلًا بعد أن نام وحده دائمًا. شاهدتهما مرارًا يختفيان في خيمته، متسائلة عما فعلاه هناك، لأنهما في بعض الأحيان لم يغادراها قبل مضي ساعات.

نظرت مارجو إليَّ عبر الطاولة: «يشكلان فريقًا مثيرًا للاهتمام».

احمرت وجنتاي من الحرج لأنها لاحظتني وأنا أراقبهما من كثب.

- نعم، يفعلان حقًّا وأنا لا أفهم هذا.

- لأنها كانت رفيقته، هذا هو السبب الحقيقي وراء إبقاء علاقتها مع سام سرًّا.

- ماذا تقصدين؟

- لم ترتبط بأي شخص آخر بجانب آبنر.

كدت أسقِط الوعاء من يدي: «بيكا رافقت آبنر!».

- نعم.

رفعت حاجبيها.

- أنتِ لم تعرفي هذا؟ ظننت الجميع يعرف.

حركت رأسي نفيًا، غير قادرة على التعبير عن الغصة التي شقت طريقها إلى حلقي. أخبرني آبنر منذ سنوات أنه مارس العفة، ولا بد أن وعظه عن التزام العفة الجسدية تخطى مئات المرات. في كل مرة أبدأ فيها بمسامحة آبنر، يبدأ بارتكاب شيء أكثر فظاعة من المرة التي تسبقها. وعلى الرغم من أنه ارتكب أشياء أفظع بكثير في الماضي، فإنني لم أضبطه متلبسًا بمثل هذه الكذبة الكبيرة قبلًا. كان شيء ما في عدم أمانته يقلقني بطريقة لم تفعلها أيٌّ من أفعاله السابقة. سألتْ مارجو من جديد حين مرت عدة دقائق دون أن أستعيد رباطة جأشي: «واو، لم يكن لديك أي فكرة حقًّا، أليس كذلك؟».

- كم عدد التابعين الآخرين الذين رافقهم؟

سألتُها حين عدت قادرة على الكلام من جديد.

- لم يكن هناك أي أشخاص آخرين، فقط بيكا. كما قلت لك، كانت ملكًا له.

هل كان هذا هو السبب الحقيقي لغضبه الشديد من سام؟ الغيرة؟ شعرت بركبتي تضعف، صرت بحاجة إلى الجلوس. كيف لم ألحظ هذا قبلًا! سألت وأنا أستند إلى الطاولة: «هل كانا واقعين في الحب؟».

أطلقت مارجو ضحكة مريرة.

- حب؟ لا، أراد عذراء، وهذا ما حصل عليه.

انقلبت معدتي.

- عمَّ تتحدثين؟

- هل تعتقدين أن الناس يصِلون إلى هنا عن طريق المصادفة؟

كيف سيصلون إلى هنا بغير ذلك؟ هل هذا نوع من الاختبار الغريب؟ هل أملى آبنر عليها ما تقول؟ توقفت عما كنت أفعله وجففت يدي على قميصي لأقول: «لا شيء من هذا منطقي».

مسحت عيناها المنطقة المحيطة بنا قبل أن تتحدث، للتأكد من أننا وحدنا.

- في البداية، تبادلنا الخدمات مقابل ما أحضرناه لآبنر...

- ماذا تقصدين بـ «ما أحضرتموه»؟

- العضوية في منظمة الحب الدولي، وأن تصيري تابعًا فيها، كانا أمرين منفصلين دائمًا. كما تعلمين. العضوية طواعية ومفتوحة للجميع. لكن التبعية خاصة بقلة مختارة ممن يمكنهم اجتياز اختبارات معينة أو يُقدِّمون كشكل من أشكال اختبار الولاء، كجزء من إثبات ولاء شخص آخر.

غادر الهواء رئتيَّ حين تفوهت بكلماتها.

- خدعتم الناس!

- لم نخدع أحدًا. هذه ليست الطريقة التي سارت بها الأمور، كل شخص وكل حالة مختلفة. بالنسبة لي كانت بيكا في مقابل ويل.

- في مقابل؟

عجزتُ عن استيعاب ما تقول. لا شيء من كل هذا كان منطقيًّا. من المفترض أن التبعية كلها تدور حول الاختيار، الإرادة الحرة. كيف يتماشى هذا مع ما تخبرني إياه حاليًّا.

- أراد آبنر دليلًا على أن ويل مستعد للتخلي عن أكثر الأشياء أهمية له لصالح الحب الدولي. طلب منه أن يمارس معي الحب لليلة واحدة فقط. لكن ويل رفض مشاركتي مع أحد، ولو لليلة.

امتلأت عيناها بالفخر وهي تتابع: «المشكلة هي أن ويل قضى مع آبنر فترة كافية ليعرف أنه لا يستطيع ببساطة رفض طلبه. كان بحاجة إلى شيء يقدمه له في المقابل، شيء مساوٍ لما يطلبه آبنر، وإلا لن يرضى به. أخبره أنه يستطيع أن يفعل ما هو أفضل من السماح له بتجربتي. يمكن أن تصير لديه عذراؤه الخاصة. كان هذا هو دور بيكا».

اتسعت عيناي: «كنتِ عذراء عندما تزوجتِ ويل؟».

أومأت برأسها، فسألت من جديد: «لكنك كنتِ في السادسة والعشرين».

- انتميت إلى المسيحية المرمونية الملتزمة قبلًا.

وهذا يعني أن ويل هو الرجل الوحيد الذي ارتبطت به، حيث أخبرتني في أثناء المراحل الأولى لتعليمنا أنهما اعتمدا مبدأ الارتباط بشخص واحد للأبد. استغرقتُ لحظة حتى تمكنتُ من الاستيعاب قبل أن أسأل: «وكيف سار الأمر؟».

- ماذا تقصدين؟

- لا يمكنك وضع إعلان في صحيفة تطلبين فيه عذراء. كيف عثر على بيكا؟

- لم يفعل.

بدأ الحزن يخيم على وجهها: «أنا فعلت».

امتلأت أحشائي بالذعر.

- أنتِ وجدتِ بيكا؟

- في مجموعة تعبدية نسائية في الجانب الجنوبي من أتلانتا.

أحنت رأسها خجلًا، فسألتُ: «ولكن هذا حدث مع بيكا فقط، أليس كذلك؟ لم يحدث معي شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟».

رفضت مارجو رفع رأسها. أجابني صمتها أكثر مما لو أنها تحدثت. همستُ: «انظري إليَّ، أخبريني ماذا فعلتِ لتأتي بي إلى هنا».

- لا شيء. لا شيء من هذا يهم. أنا كنتـ...

قاطعتُها: «بل يهم. أنت مدينة لي بالحقيقة بعد كل ما مررنا به».

سعلتْ، وعيناها لا تزالان مغمضتين: «أنا آسفة يا كيت. أنا حقًّا كذلك. كان منذ وقت طويل. عليكِ أن تتذكري ذلك. حياة مختلفة مضت، حقًّا».

أردت أن أمسك بها وأهزها بعنف. نعم، نعم، كانت حياة مختلفة، حياة لدي فيها عائلة، لدي فيها زوج يعشقني، زوج لا يحلم حتى بإيذاء بعوضة. هل خُدعت لأتركه؟ وابنتي، طفلتي التي تبعتني بالطريقة ذاتها التي تبع بها مايز آبنر. حاولت إبقاء صوتي هادئًا، خائفة من أن تنتابني الهستيريا فألفت انتباه أي شخص آخر.

- ربما كانت حياتي مختلفة قبلًا، لكنها حياتي، وأريد أن أعرف ما حدث.

أطلقتْ تنهيدة: «أردنا أن نرى ما إذا كان شخص ما مستعدًّا للتخلي عن عائلته الدنيوية من أجلنا».

- لكن الناس تركوا عائلاتهم من أجل منظمة الحب الدولي طوال الوقت.

- نعم، ولكننا أردنا أن تكون عائلة رائعة تلك التي تركوها خلفهم.

خفضت صوتها كما لو أن ذلك سيخفف من تأثير كلماتها.

- أردنا أن نرى ما إذا كان ما لدينا قويًّا بما يكفي لجعل شخص ما يتخلى عن الحب الذي يكنه لهم، من أجل شيء أعظم.

لم أتمكن من معالجة الحقيقة في ذهني. كانت أكبر من قدرتي على الاستيعاب. كيف يمكن أن تفعل ذلك؟ كيف يمكنهم تبرير التلاعب بحياة الناس بهذه الطريقة؟ عكس وجه مارجو ألمي.

- أنا آسفة يا كيت. لا تزال تجربتك حقيقية. لا شيء يغيِّر ذلك. لا شيء. لم يُسمح لنا قط بفعل أي شيء بمجرد عبوركم أبوابنا. تدخُّلنا الوحيد يقتصر على إيصال المختارين إلى هناك.

وصفي بالشخص المختار لم يجعل الخيانة أقل واقعية. انهمرت الدموع على خدي، وسرعان ما مسحتها بكمي.

- إذن كل هذا كان لعبة بالنسبة إليكم؟

مدت يدها إليَّ لتأخذ بكلتا يديَّ داخل يديها.

- لا يا كيت، كل قرار أخذتِه منذ اللحظة التي عبرتِ فيها أبواب منظمة الحب الدولي كان قرارك الخاص.

لكنني لم أكن لأعبر الأبواب قط إذا لم يتصلوا بمديري ويطلبوا المقابلة. ذلك الفعل وصم كل ما حدث بعدها. أبعدتُ يدي عن الأوعية لأقول: «لا أشعر بأنني على ما يرام، ابحثي عن شخص آخر ليغطي مناوبتي».

وأسرعتُ إلى خيمتي قبل أن يجتاحني البكاء.

***

اثنان وثلاثون

ميريدث

الآن

لم تكن كيت في غرفتها عندما ذهب سكوت للاطمئنان عليها. عادت إلى الطابق السفلي لتحضير القهوة، ولم أستطع إلا أن أتبعه إلى هناك. كرهت نفسي لفعل ذلك، لكنني أردت أن أرى ماذا سيقول لها. ندر ألا نرى شايلو مضمومة إلى صدرها ملتفة في بطانياتها. سأل حين لاحظ أنها وحدها:

- صباح الخير كيت. أين شايلو؟

- نائمة في الطابق العلوي.

قالت كيت وهي تسكب الكريمة في قهوتها. أخبرتْهم أن القهوة هي أحد الأشياء التي افتقدتها كثيرًا في أثناء غيابها. أعلن سكوت، مفاجئًا إياي بمباشرته: «أخبرتني ميريدث للتو ما حدث هذا الصباح».

التفتت إلى سكوت، وظهرها لي.

- تعتقد ميريدث أنني أجري مكالمات هاتفية بينما أنتم جميعًا نائمون.

- إنها ليست مشكلة كبيرة إذا كنتِ تفعلين، كما تعلمين. أعني أنه يمكنك التحدث مع من تريدين. ليس الأمر وكأننا والداكِ أو شيء من هذا القبيل. لن يوقفك أحد.

أطلق ضحكة عصبية، فابتسمت: «أعلم ذلك، لكنني لم أتحدث إلى أي شخص. ليس لدي أحد لأتصل به».

- أنا أعرف. أنا فقط، حسنًا، كما تعلمين...

هز كتفيه: «أحاول الحفاظ على السلام هنا».

- إنها تكذب يا سكوت. أمسكتُ بها مرتين.

قلت: «وحتى لو لم أمسك بها، لدي سجلات الهاتف لإثبات ذلك».

قالت كيت: «السجلات لا تذكر من أجرى المكالمة. من الممكن أن أي شخص آخر استخدم الهاتف».

- نعم، باستثناء أنني رأيتك تفعلينها.

- أنا آسفة يا ميريدث، ولكن حتى لو كنت أتحدث إلى شخص ما، فهذا ليس من شأنك.

- هذا يسمى إخفاء أسرار.

قلت: «ونحن لا نخفي أسرارًا عن بعضنا بعضًا داخل هذا المنزل».

سألتْ: «هل أنتِ واثقة حقًّا من هذا؟».

- بالطبع أنا واثقة من ذلك.

- أنا لست الوحيدة في الغرفة حتى التي لديها أسرار.

ألقت نظرة حادة على سكوت. فسألتُ ملتفتة له: «ما الذي تتحدث عنه؟».

قال متوسلًا، لتدور الغرفة بي فجأة: «كيت، لا تفعلي».

- ما الذي تتحدث عنه؟

بالكاد استطعت التنفس.

- اسأليه عن سبب شجارنا يوم رحيلي.

ألقت بها كيت في وجهنا. لم يخبرني سكوت قط أنهما خاضا شجارًا، هذا ليس المسار الذي اتخذته الرواية. ثم تذكرت ما قاله تلك الليلة قبل النوم، كيف لمح إلى أنني لا أعرف القصة كاملة. لطمت موجات الخوف أحشائي.

***

كيت

في الماضي

رأتني مارجو وأنا أخرج من المبنى الخارجي وتوجهت إليَّ. بقيت أتجنبها منذ الأمس، لكنها كانت مسألة وقت فقط قبل أن تحاصرني، لأنه ليس هناك مكان للاختباء. أمسكت بذراعي، وضغطت بأصابعها عليها، لتسحبني إلى الجانب الآخر من المبنى الخارجي: «هل أخبرتِه بما قلته لك؟».

دارت عيناها حولنا، مراقِبة المعسكر في الوقت ذاته الذي تحدثتْ فيه. حررتُ ذراعي منها.

- بالطبع لا.

صار آبنر غريب الطباع مع مرور الأيام. لم تعد لدي أي فكرة عما سيفعله بها لو أنه اكتشف أنها أخبرتني بأسرارهم. سيكافئني إذا كشفت أحد المنشقين -المصطلح الذي أطلقه على أي شخص يبقي أسرارًا أو يخالف قوله- لكن في الوقت ذاته سيعاقب مارجو، ولم أستطع تركها تتعرض لهذا، حتى لو آذتني. قالت: «من فضلك يا كيت، لا يمكنك أن تظلي غاضبة مني. عليك أن تفهمي أنني اعتقدت أنني كنت أفعل الشيء الصحيح. أنتِ تعرفين كيف هو الأمر. بالتأكيد تفهمين. لا تتظاهري بأنك لا تفهمين كيف يبدو الأمر في البداية. كنت سأفعل أي شيء من أجلهم».

التقت نظراتها المتوسلة عينيَّ، تتوق للمغفرة. تابعتْ: «لكن الأمور مختلفة الآن. كل شيء تغير».

قرقع غصن جوارنا، مما جعلنا نقفز. خطونا بسرعة لنعود إلى المعسكر، لأن قضاء وقت طويل بعيدًا عنه أمر غير مقبول. أمسكتْ بذراعي بينما نسير.

- أنا آسفة يا كيت، أرجوك سامحيني. أعتذر لأنني أدخلتك في هذه الفوضى. آسفة لأنني أدخلت الجميع في كل هذا.

كانت على بعد ثوانٍ من البكاء. همستُ: «توقفي عن ذلك، حسنًا؟ لا مشكلة بيننا. اقتربنا من الوصول إلى المخيم والجميع هناك ينتظرون الاجتماع».

استقامت مارجو على الفور.

أعلن آبنر في أثناء الإفطار عن رغبته في عقد اجتماع في فترة ما بعد الظهر. نادرًا ما كنا نعقد اجتماعات في منتصف اليوم، نظرًا لأن فترة ما بعد الظهر كانت مخصصة للأعمال المنزلية، لذا فإن أيًّا كان ما يرغب في قوله، فهو أمر مهم. أسرعنا إلى قلب المخيم حيث اصطف الجميع في انتظاره. وجلسنا متجاورين على إحدى البطانيات.

ولم يمضِ وقت طويل حتى خرج آبنر من خيمته وتوجه إلينا. انطلق متبخترًا إلى وسط الدائرة، دون إضاعة أي وقت للبدء في الكلام.

- عندما يكتشف الغرباء مدى فساد عالمهم، فسيأتون للبحث عن عالمنا. سيرغبون في سرقة ما لدينا وجعله ملكًا لهم. يجب أن نصير مستعدين لذلك الوقت.

نالت منه الريبة أكثر فأكثر كل يوم بشأن معرفة الناس بمكاننا قبل أن نحشد جيشًا خاصًّا بنا.

- والأمر هو يا عائلتي، نحن لسنا مستعدين، ولا حتى قريبين من الاستعداد.

ستة أطفال ليسوا كافين لتكوين جيش. ركزت جميع مناقشاتنا مؤخرًا على الإنجاب، لكن لم ينجح أي منها. لم أكن أعرف إذا كان بإمكاني قبول محاضرة أخرى حول مدى أهمية توجيه طاقتنا الجنسية نحو هدف مشترك، لكنني لم أستطع تحمل الكثير من أي شيء مؤخرًا، ولم أكن أعرف كيف سأتمكن من الحفاظ على تظاهري أمام الجميع بعد الكشف عن الحقيقة التي أخبرتني بها مارجو. مررت بفترات مظلمة في روحي، لكن هذه الفترة لم تغادر. قطع صوت آبنر أفكاري، وأجبرت نفسي على الانتباه.

- اعتدنا العيش مقيدين بالاتفاقيات التي عقدناها عندما كنا نعيش في العالم القديم الذي يهوي. الزواج بناء من صنع الإنسان ورباط يربطنا

بهوياتنا السابقة. لم ننجح في الإنجاب لأننا ما زلنا متمسكين بهذه الروابط. لقد حان الوقت لكسر القيود وترك كل شيء وراءنا.

وقف المتزوجون جوار بعضهم بعضًا. أطفالهم يلتصقون بأرجلهم بقوة أكبر، لأنه على الرغم من مدى صعوبة إعادة برمجة أفكارهم جميعًا، فما زال الأطفال يركضون بحثًا عن ذويهم مع قدوم الليل. طرح «ملاخي» السؤال الذي فكرنا فيه جميعًا: «وكيف سيحدث هذا بالضبط؟ معهم جميعًا».

- بأي طريقة ممكنة، هذا هو بيت القصيد. لا توجد قوانين، أو حدود. الخطوط الفاصلة بيننا لم تعد موجودة. نحن أحرار في الإنجاب كما أراد الرب. في الوقت الذي نرغب، ومع مَن نرغب.

سعل ملاخي بضيق: «وهذا يعني أن بإمكانك ممارسة الجنس مع زوجتي إذا أردتَ ذلك».

أومأ آبنر.

- إذا اختارت هي ذلك.

وأشار إلى الرجال الآخرين في المجموعة.

- أو ربما تختار ممارسة الجنس مع أحدهم.

اختفى اللون من وجه ملاخي، فسألت زوجته جيلي وهي تمسك بذراعه وتقترب منه: «لكن ليس علينا أن نتشارك الفراش مع أي شخص آخر إلا إذا أردنا ذلك، أليس كذلك؟».

- بالطبع بلى. لا يُجبر أحد أبدًا على فعل أي شيء لم يتطوع للقيام به. من الآن فصاعدًا، الجميع أحرار في الارتباط بمن يختارونه.

أشع وجه آبنر محملًا بهدف سامٍ ونور المعرفة.

- سأقوم بدوري أيضًا. سأبدأ بمشاركة الفراش مع فتياتنا لأرى إن كانت ثماري ستُنشئ جنودًا جددًا. هكذا سنبني هذا الجيش.

***

ثلاثة وثلاثون

ميريدث

الآن

- إذا سمحتم لي، سأذهب إلى غرفتي.

قالت كيت وهي تشق طريقها بعيدًا عنا وتصعد إلى الطابق العلوي. بدا سكوت وكأنه تلقى لكمة في أمعائه. انحنى على طاولة المطبخ للحصول على الدعم منها.

- ماذا حدث في الصباح الذي غادرت فيه كيت؟

فعلت كلماتها ما أرادت أن تفعله بالضبط، قلبت عالمي رأسًا على عقب.

قال سكوت: «عليك أن تنظري إلى الأمر من وجهة نظري قبل أن تقفزي إلى أي استنتاجات».

إذن فقد كذب سكوت فعلًا! يا إلهي، لم أستطع تصديق ذلك.

- إذن هي لا تكذب؟

هز رأسه نفيًا وهو يقول: «يجب أن تفهمي...».

قاطعتُه: «ليس من الضروري أن أفهم أي شيء. أريد فقط أن أعرف الحقيقة. أنت مدين لي بذلك، على الأقل. طوال هذا الوقت تحدثتَ معي عن مدى أهمية بناء الثقة والأمان لها، في حين أنك تكذب».

حاولت أن أتجنب أن أبدو هستيرية، لكنني تأرجحت على تلك الحافة.

سألتُ من جديد: «ماذا حدث؟».

- كنت أعلم أنني لم أشارك في اختفاء كيت، لكنني لم أكن أحمق. علمت أنني سأكون المشتبَه به الأول. الزوج هو المشتبَه به الأول دائمًا. أنتِ تعرفين ذلك مثلي تمامًا، ولو أخبرتهم أننا تشاجرنا ذلك الصباح، لتفاقمت شكوكهم. وسيمضي وقت أطول في التحقيق معي، في حين أن المذنب الحقيقي مع كيت. لذا اتخذت قرارًا بالكذب، ولكني علمت أيضًا أنه لكي يكون الكذب فعالًا، لا يمكن لأحد أن يعرف الحقيقة على الإطلاق. لم أخبر أحدًا قط، ولا حتى آبي.

- لماذا لم تخبرني عندما وثقت بي؟

- بمجرد أن تحكي قصة عدة مرات، فإنها تصبح الحقيقة.

- لكنك اجتزت جهاز كشف الكذب.

جاء صوتي ثقيلًا، محملًا كلمات لم أقلها. اجتاز جهاز كشف الكذب بنجاح؛ فقط الكذابون المتمرسون يمكنهم فعل ذلك.

قال سكوت: «أريد منك أن تعلمي أن ما حدث ليس بهذه الفظاعة. الجدالات الزوجية العادية».

- شجار كذبتَ بشأنه لمدة أحد عشر عامًا؟

وصل صبري إلى حده.

- أخبرني ما حدث، وسأقرر مدى فظاعة الأمر.

غمرت الحمرة وجهه.

- أجبرت كيت عمليًّا على ترك وظيفتها والبقاء في المنزل مع آبي. لم تكن مستعدة قط لهذه الفكرة، وكان جزء من السبب هو أنها لم ترغب في التخلي عن دخلها. أقنعتها بأننا سنكون على ما يرام، وكنا كذلك لفترة من الوقت، ولكن بعدها انهار كل شيء في عام 2008. هل تذكرين كيف كان الأمر وقتها؟ يا إلهي هذا محرج جدًّا.

قرقع أصابعه كما هي عادته حين ينتابه التوتر: «انهارت سوق العقارات».
انتظرت منه أن يشرح موقفه، لكنه وقف هناك دون أن يقول أي شيء.

- و؟

رفض أن تلتقي عينه عيني.

- صارت الأمور شديدة السوء من الجانب المادي، ولم أخبرها أيَّ شيء عن هذا الأمر قط.

- هذا هو كل شيء؟

- وحصلت على قرض ورهن عقاري ثانٍ على منزلنا دون إخبارها.

ذكَّرتني نظرته الخجولة بولدَيَّ كلما وقعا في مشكلة عندما كانا صغيرين.

- اكتشفتْ كيت؟

- نعم، في الليلة التي سبقت اختفاءها. كان الأمر غريبًا للغاية لأنني كنت أتوقع منها أن تغضب عليَّ، لكنها ظلت تخبرني بمدى خيبة أملها فيَّ. وهذا جعل الأمر أسوأ. بدلًا من التحلي بالشجاعة والاعتراف بما فعلتُه، تصرفت كالأحمق تمامًا، مدفوعًا بهراء عزة النفس.

- لماذا لم تتمكن من إخبار الشرطة ما أخبرتني إياه بالضبط؟

- هيا يا ميريدث. بالنسبة إلى شخص يتهمني دائمًا بالسذاجة، يبدو هذا السؤال ساذجًا جدًّا بالنسبة لي. «أيها الضباط، أردت فقط أن تعلموا أنني وزوجتي تشاجرنا في الصباح الذي اختفت فيه بسبب ديون ضخمة وبسبب أنني كذبت عليها بشأن ذلك». أي جانب من القصة حمل في طياته شجارًا، لن يأتي بثمار جيدة.

- ومع ذلك، كان بإمكانك أن تخبرني. كان عليك إخباري!

كررتها مؤكدة على كلماتي فرفع حاجبيه: «حقًّا؟ كما أخبرتِني كلَّ شيء عنك وعن جيمس؟».

***

أربعة وثلاثون

آبي

الآن

لم أذهب إلى منزل ميغان منذ أن علمنا بأمر أمي. كنا أفضل الأصدقاء منذ الصف الثاني، وكانت هذه أطول فترة فراق بيننا على الإطلاق. كانت غرفتها مألوفة بالنسبة لي مثل غرفتي؛ سرير كبير الحجم في المنتصف مغطى باللحاف الذي صنعتْه لها جدتها عندما كانت طفلة؛ دبها المفضل مدسوس تحت وسادتها، وهو سر احتفظتُ به منذ المدرسة الإعدادية؛ الجدار الوردي الذي ساعدتُها في طلائه؛ والخزانة مملوءة بنصف ملابسي التي استعارتها خلال السنوات القليلة الماضية. لكن كل ذلك بدا غير مألوف وسرياليًّا. حتى ميغان بدت مختلفة، أصغر سنًّا بطريقة ما. أو ربما كبرتُ أنا بين عشية وضحاها، عبرتُ خطًّا ما إن تعبره فلا مجال للعودة.

أجبرني أبي على الحضور رغم أنني رغبت في البقاء في المنزل. أصر على أن أخرج من المنزل حتى أشعر بأنني فتاة عادية مرة أخرى، لكنني كنت واثقة تمامًا من أن البادرة جاءت لمجرد أن يتمكن هو وميريدث من الشجار على انفراد. كانت الأمور متوترة للغاية بينهما منذ أن اتهمت ميريدث أمي بالكذب. بذلتُ قصارى جهدي للبقاء بعيدة عن كل هذا. إذا أرادت أمي أن تخبرني مع من تتحدث، فستفعل. وإذا لم ترغب فلا مشكلة، هذا اختيارها.

- لن تصدقي ما قالتْه صوفي ليوشيا بعد تدريب كرة القدم اليوم. شيء في منتهى السخافة!

بقيت ميغان تثرثر لما بدا وكأنه ساعات، وكنت سأنضم إليها عادةً، لكن بدا من الخطأ التحدث عن مباريات كرة القدم وحفل المدرسة في وجود الكثير من الأشياء المهمة الأخرى التي تجري حولي.

- هل اخترتِ فستانك للحفل الراقص بعد؟

- نسيت كل شيء عنه. وتيرة الأمور جنونية في منزلي.

- بالتأكيد، أراهن على أنها كذلك!

قالت وهي تتقلب في مكانها على الأريكة وتلتقط هاتفها عن طاولة القهوة أمامها.

- أرسلتْ كايلا رسالة نصية مفادها أنهم في طريقهم. أخيرًا.

بقينا نتسكع في غرفة الاستجمام الخاصة بهم طوال الساعة الأخيرة في انتظار كايلا وبرين. سنتناوب جميعًا على جلسة عناية بأقدامنا بينما نشاهد فيلمًا. امتدت الساعات أمامي إلى ما لا نهاية. تصفحتُ المنتدى بقلق شديد، لكن لم يرُد أحد. لم أرغب في أن أكون هنا حين يأتي الرد. لا يعني ذلك أنني استطعت فعل شيء آخر في البيت. لكنني وددت حقًّا لو أنني هناك. حتى لو غمرت الفوضى كل شيء.

***

- هل يمكنني التحدث معك للحظة؟

سألتْ ميريديث عندما وصلت إلى المنزل في صباح اليوم التالي. كنت أول من نام الليلة الماضية وتسللتُ مبكرًا قبل أن يستيقظ أي شخص آخر، متشوقة للعودة إلى المنزل والنقاش مع أمي.

- ما أخبارك؟

سألتُها وأنا أضع حقيبتي في المدخل.

- أردت فقط أن أتحدث معك عن كل ما حدث مؤخرًا وأرى كيف تشعرين. أرغب في الإجابة عن أي أسئلة لديك.

ألقيتُ نظرة خاطفة خلفها، وتفحصتُ غرفة المعيشة والمطبخ.

- هل أبي هنا؟

- لا.

لم نجلس معًا لنتشارك ما في قلوبنا دون وجود أبي، جربتْها قبلًا حين بدأ المواعدة لأول مرة، ربما لأنها قرأتْ ذلك في أحد كتب المساعدة الذاتية أو اقترحه معالجها النفسي.

في كلتا الحالتين، كانت مقتنعة بأننا بحاجة إلى الخروج معًا في نزهات فردية للتعرف على بعضنا بعضًا. ذهبنا إلى حديقة الحيوان عدة مرات، وسرنا عبر الحدائق النباتية في مولبيري. في بعض الأحيان خرجنا لتناول الآيس كريم. لكن لم يكن يهم قط أين ذهبنا أو ماذا فعلنا؛ لم تتوقف الأمور قط عن الشعور وكأننا محتجَزتان في موعد أول يغمره الحرج. نجح أبي في تحقيق التوازن بيننا بطريقة لم نتمكن من القيام بها بأنفسنا عندما لم يكن موجودًا.

شعرتُ بارتياح أكبر من أي شيء آخر عندما توقفنا عن القيام بذلك، على الرغم من أنها تظاهرت بأنها تألمت لتوقفنا.

- هل سيعود إلى المنزل قريبًا؟

هزت كتفيها وهي تحاول أن تبدو غير مبالية.

- يجب أن يكون هنا بعد قليل.

- هلا أرسلتِ لي رسالة نصية عندما يصل؟

سألتُ، وأنا أنحني لألتقط حقيبتي وأتوجه إلى الطابق العلوي، لكنها قالت: «اعتقدت أننا يمكن أن نتحدث نحن الاثنتان. ليس من الضروري أن يكون هنا من أجل هذا الحديث».

انطلقت أجراس الإنذار بداخلي وأنا أتبعها إلى المطبخ. جلست على مقعد أمام النافذة.

- هل ما زلتِ أنت وأمك تلتقيان معًا في الليل؟

أومأتُ، فسألتْ من جديد.

- ماذا تفعلان هناك يا رفاق؟

هززت كتفيَّ: «نتبادل أطراف الحديث، نبقى معًا فقط. لا شيء مثير للاهتمام».

- عمَّ تتحدثان؟

حاولتْ أن تسأل وكأنها لا تهتم، لكن ميريدث كانت كاذبة فظيعة. إلى أين يقود كل هذا؟ لماذا شعرتُ وكأنني في جلسة استجواب؟

- أشياء عادية.

كان الشعور بعدم الارتياح يكبر مع مضي كل ثانية. هل تعلم أنني سمحت لأمي بالنظر إلى هاتفي ليلًا؟ لم أستطع أن أقول لها لا بعد أن سمحتُ لها بذلك مرة واحدة سابقة، لم يكن لدي خيار عندما طلبت ذلك من جديد. علاوة على ذلك، لم يبدر منها رد الفعل الغريب هذا إلا مرة واحدة. الآن تجول بين الصور لبضع دقائق فقط قبل أن تعيد الهاتف إليَّ.

- هل تحدثت والدتك معك عما كانت عليه عندما كانت بعيدة؟

أملت رأسي جانبًا: «لماذا تسألين الكثير من الأسئلة؟».

- أوه، لا يوجد سبب محدد. أنا فقط أحاول استيعاب الأمور. معرفة ما إذا كان هناك أي شيء يمكنني القيام به للمساعدة.

لم يبدُ أي من أسئلتها مفيدًا، بل محض فضول فقط. ازدادت شكوك ميريدث يومًا عن يوم.

لكنت سأتصرف بالطريقة نفسها لو كنت مكانها. أعني أن زوجة أبي القديمة عادت. الجميع يعرف ماذا يعني ذلك. لبقي أبي متزوجًا بأمي إذا لم تختفِ. لظل متلهفًا عليها إذا لم يدفعه الباقون -بما فيهم أنا- للمضي قدمًا.

فوجئتُ لأن ميريدث تماسكت من الأساس. لكنت سقطت في حالة من الفوضى المطلقة لو أنني مكانها. ومع ذلك، أردتها أن تتركني وشأني. لم تعجبني الطريقة التي طرحت بها الأسئلة، كما لو أنني متورطة في مؤامرة معقدة مع أمي. نتآمر لفعل ماذا؟ لا فكرة لدي. لكن هذا ما شعرت به. لذا قلت: «أعتقد أن هذا يكفي، هل انتهينا الآن يا ميريدث؟».

- عزيزتي، أنا فقط أحاول الاعتناء بك. أريدك فقط أن تكوني حذرة.

تحركتْ لتعانقني، وتنحيتُ جانبًا.

- حذرة؟ لا أحتاج إلى توخي الحذر؛ هذه أمي.

***

كيت

في الماضي

أحنيت رأسي وحاولت التسلل إلى خيمتي دون أن يراني أحد، وكأن العائلة لا تعلم بالفعل أننا نتشارك الفراش معًا. لم يكن أيٌّ من اختيارات آبنر الأولى سرًّا. بل إنه أعلنهم كل ليلة بعد الاجتماع حول النيران.

لم أتوقع أن يصل إليَّ بهذه السرعة، وكدت أتقيأ في الليلة الأولى التي اختارني فيها. فكرة أن يلمسني لوت أحشائي، وارتعش جسدي بينما سرنا من موقعنا حول نار المخيم إلى خيمته. ولكن بعدها أظهر لي جانبًا من نفسه لم أره من قبل، ولم يسعني سوى اللين قليلًا.

كان صوته لطيفًا وليِّنًا. جلسنا تقريبًا على ركبتينا، كما فعلنا في أحد لقاءاتنا الأولى معًا، نتنقل بخفة بين لحظات من الصمت والحديث. لم يحاول قط أن يلمسني، وشعر جزء صغير مني بالإهانة قليلًا بسبب ذلك لأتساءل عما إذا كان هناك شيء خاطئ بي. فوجئت عندما استمر في مناداتي باسمي، ثم

سألني منذ عدة ليالٍ لو أنني أرغب في الحصول على تدليك، واستسلمت رغمًا عني. كانت لمسته رقيقة للغاية حتى إنني كدت أبكي.

لم أتمكن من تذكر آخر مرة لمسني فيها أحد بطريقة غير طبية أو كجزء من تمرين. حدث الشيء نفسه في الليلة التالية، لكن لمسته تغيرت في نهاية التدليك، وانخفض نبضي بشكل لم يحدث منذ فترة طويلة. كنت قد نسيت كيف أشعر كامرأة.

كرهت نفسي لأنني أحببت ذلك، لكن جسدي ظل يقظًا، تائقًا للحصول على المزيد. كان رجلًا مختلفًا في الخيمة ليلًا. كان الأمر كما لو لم يكن هناك شيء آخر. لا زمان. لا مكان. فقط نحن الاثنان متعانقين معًا كجسد واحد في الفضاء السماوي، شيء عكس أي تجربة سابقة لي. ولكن اليوم كان مختلفًا. لم يكن الوقت ليلًا. لم نذهب إلى النوم. كانت الساعة الثانية بعد الظهر. غيَّر ذلك كل شيء.

حاولت أن أحافظ على استقامة وجهي عندما خرجت من الحمام، لكنني كنت قد تقيأت للتو كل الشوفان الذي تناولته في وجبة الإفطار، والمرة الوحيدة التي تقيأت فيها في الصباح كانت عندما كنت حاملًا بابنتي في حياتي السابقة. تعرف جسدي على المشاعر على الفور. عجزت عن تصديق أنني الأولى.

لم يكن لدي أي فكرة في أي عام نحن، مرت سنوات عديدة منذ أن تعرفنا على الوقت، ولكن في أواخر الأربعينيات وحامل؟ كيف كان ذلك ممكنًا؟ كان من المفترض أن تقل خصوبتي كلما كبرت. تساءلت سرًّا عما إذا كانت خصوبة آبنر مسؤولة عن طول المدة التي يستغرقها لجعل أي امرأة حاملًا، ولكن لا بد أن كل شيء على ما يرام.

رفضت النظر مباشرة إلى مارجو عندما قدمتُ المساعدة في مهمة تنظيف أطباق الإفطار مع الآخرين، لأنها ستلقي نظرة واحدة عليَّ وستعرف فورًا أن شيئًا ما يحدث. كان عليَّ أن أخبر آبنر أولًا. غادر قبل الفجر مع عدد قليل من

الرجال لتطهير حقل على الجانب الشمالي من المخيم، ومن المحتمل أنهم لن يعودوا إلا بعد حلول الظلام. كيف سأبقي شيئًا كهذا سرًّا طوال اليوم؟

ربما كان هذا هو بالضبط ما نحتاج إليه للمساعدة في رفع الروح المعنوية حول المخيم. مع إحباط آبنر أكثر فأكثر بسبب عدم وجود أطفال جدد كل يوم، كان عدم تسامحه مع إخفاقاتنا يتزايد يومًا بعد يوم. أصبحت الروح المحيطة بالمخيم أثقل وأكثر قتامة مع كل هذه التدريبات والتمارين. كان مقتنعًا بأن الغرباء سيهاجموننا فجأة، وأننا لن نكون مستعدين لهجماتهم. عدم الاستعداد هو الذي دفعه إلى الجنون بصورة لا مثيل لها.

ثنيتُ عضلات ذراعي بصورة غريزية لأشعر بالانقباض يخبو. أتت كل تلك التمارين الحركية بثمارها. كنت في أفضل حال جسدي اختبرته في حياتي. لكن كل ذلك كان على وشك التغيير، لأنه لم يكن من الممكن أن يجعلني أستمر في المشاركة في جميع الأنشطة البدنية والتدريبات الأخرى.

كل شيء سيتغير مع هذه الحياة الجديدة بداخلي، وبقدر ما كان يجب أن أشعر بالفخر باختياري لحمل بذرته، إلا أنني عجزت عن التخلص من الخوف الذي نهش باطني.

***

خمسة وثلاثون

آبي

الآن

أجلت العودة إلى الطابق السفلي حتى صار كلٌّ من أمي وأبي هناك، لأنني لم أرد أن تحاصرني ميريدث مرة أخرى، لكنها انشغلت بطهي وجبة الإفطار حتى إنها لم تلاحظني عندما انضممت إلى الجميع في المطبخ. قالت أمي وأنا أنزلق في المقعد المجاور لها: «أوه، أنت هنا، هذا جيد».

سعلتْ مرتين قبل أن تعلن: «هل يمكنني التحدث مع الجميع؟».

جلس أبي مقابلنا ووضع هاتفه جانبًا ليوليها اهتمامه الكامل. توقفت ميريدث عما تفعله وجاءت لتقف خلف كرسيه، وهي ما تزال ممسكة بالملعقة. اهتزت رجلا أمي تحت الطاولة. وجدتُ يدها وأخذتها في يدي وضغطتُ عليها. مهما كان الأمر، سنتجاوزه، هذا ما تفعله العائلة.

- شكرًا لكم على كل ما فعلتموه من أجلي. أنا ممتنة للغاية.

أبقت عينيها مركزتين على الشراب في منتصف الطاولة في أثناء حديثها.

- الأمر هو أنني عبء كبير. وأنا لا أريد فعل ذلك بعائلتك...

قاطعتُها: «عمَّ تتحدثين يا أمي؟ أنتِ عائلتنا».

- شكرًا لكِ.

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تكافح من أجل الحفاظ على تماسكها.

- لكنني بدأت أفكر أنه ربما حان الوقت للعثور على مكان خاص بي لأستقر به، حتى تتمكنوا من استعادة حياتكم الطبيعية.

مد أبي يده عبر الطاولة وأخذ يدها الأخرى في يده.

- توقفي عن التحدث بهذه الطريقة. أنت لا تشكلين أي نوع من العبء لنا. لم نفكر فيك بهذه الطريقة قط.

ابتسمت أمي: «أنت شديد اللطف يا سكوت».

رفعت رأسها ونظرت إلى ميريدث: «لكنني أعلم كم كان كل هذا صعبًا».

وسرعان ما أشاحت بنظرها عنها: «أريد أن أبدأ بالبحث عن مكان آخر للعيش فيه».

ارتعشت شفتها السفلية: «ولو أن لا مشكلة معك، أرغب في أن تأتي آبي معي حين أغادر».

دفعتُ كرسيي إلى الخلف وقفزتُ: «حقًّا؟».

ابتسمت أمي وأومأت برأسها. ألقيت بذراعيَّ حولها لأعانقها بقوة. لم نتحدث قط بشأن الانتقال للعيش معها، وكدت ألا أصدق أننا متفقتان على هذا الأمر. بدا أن أبي يكافح كي لا يبكي، على الأرجح لم يتوقع الأمر مثلي، وتمنيت أن يوافقنا في الرأي. لكن حين مرت بضع دقائق دون أن يجيب تدخلت ميريدث: «أنا أتفهم سبب حديثك وأتفق معك على أنه ربما حان الوقت للتفكير في الخطوة التالية».

قالت وهي تومئ برأسها في اتجاه أبي وكأنها تأمل أن يتدخل في أي لحظة، لكنه بقي صامتًا، راضيًا بأن تتولى هي زمام الحديث. تابعت ميريدث: «وأنا أرغب في مساعدتك بأي طريقة ممكنة، وكذلك سكوت طبعًا. لكنني لست واثقة من شعورنا تجاه انتقال آبي للعيش معك بعد».

بدا صوت أمي مثل صوت فتاة صغيرة وهي تسأله: «آبي لا تستطيع العيش معي يا سكوت؟».

فرك جبهته وهو يكافح للعثور على الكلمات الصحيحة للإجابة.

- أنا في الواقع، أعتقد أن علينا التأكد من بعض الأشياء قبل اتخاذ هذه الخطوة.

- هل أنت جاد؟

ضربتُ الطاولة بيدي: «هل ما تقوله في الواقع هو إنني لا أستطيع الذهاب؟ هل ستبقيني بعيدة عن أمي؟».

- بالطبع لا.

قالها، وتدخلت ميريدث: «هذا ليس ما نقوله على الإطلاق. لا أعتقد أننا حظينا بالوقت الكافي للتفكير في كيفية سير الأمور لو أنها اتخذت هذا الاتجاه».

وقفتْ بجانبه، ممسكة بيده تضامنًا، كما اقترح الطبيب النفسي الخاص بالأزواج. لم أرغب في النقاش معها عن هذا، كان هذا بيني وبين أبي وأمي على أي حال.

- هناك الكثير من الأشياء التي نحتاج إلى التفكير فيها قبل اتخاذ مثل هذا القرار الضخم. أشياء ربما لم تفكري فيها بعد، لأنك صغيرة جدًّا، لكن قد يصعب عليك العيش بمفردك.

- لن أعيش بمفردي، سأعيش مع أمي.

قلت بصوت أكثر حدة. نظرتْ إلى أبي ثم عادت لتنظر إليَّ وهي تقول ببطء: «أجل».

- لا بأس يا أبي.

تفوهت بها أمي وهي تمسك بذراعي وتحاول دفعي لأجلس. رفضتُ الاستماع. لن تفسِد ميريدث هذا الأمر بسبب أي مشكلة تكنُّها لأمي، لذا قلت: «أنا لا أطلب إذنك، ميريدث. أنا أسأل والدي».

- آبيجايل!

استخدم اسمي الكامل فقط حين انزعج مني حقًّا.

- اعتذري لميريدث فورًا.

أمسكت ميريدث بذراعه: «لا يا عزيزي، لا بأس حقًّا. الأمور بخير».

- لا، ليست بخير، هذا غير مقبول وهي تعرف ذلك.

- أنا لا أحاول التصرف بفظاظة، أنا أقول الحقيقة فقط وأنت تعرف هذا.

سالت دموعي على وجهي. بكيتُ حين غضبتُ دائمًا، وكرهتُ هذا.

- لِم يجب أن يُعتَد برأيها حين يتعلق الأمر بالمكان الذي سأعيش فيه؟ هي ليست أمي!

أشار إلى الدرج.

- اذهبي إلى غرفتك الآن.

لا أستطيع أن أتذكر آخر مرة أرسلني فيها إلى غرفتي. هززت رأسي رافضة الذهاب: «لا يمكنك معاملتي وكأنني طفلة. عمري ستة عشر عامًا، وسأعيش مع أمي عندما تغادر هذا المنزل».

***

ستة وثلاثون

ميريدث

الآن

جلسنا نحن الثلاثة بلا حراك في المطبخ بعد أن انطلقت آبي مسرعة إلى الطابق العلوي. ضرب الصداع رأسي، والساعة لم تتخط السابعة حتى. لا شيء بدا أفضل من الحصول على الخصوصية والاستقرار مع سكوت، لكن كيت لم تكن مستقرة بما يكفي بعد للعناية بآبي. الأم داخلي رفضت تعريضها لهذا، بغض النظر عن مدى كون القرار في صالحي.

إعلانها عن رغبتها في المغادرة هذا الصباح لم يأتِ مصادفة، وبخاصة بعد أن ضبطتُها وهي تكذب مرة أخرى. ربما تستطيع الكذب على أي شخص آخر، لكنني أعرف الحقيقة وكذلك هي. بغض النظر عن الطريقة التي تلاعبت بها بالحقيقة أمام الآخرين. وإلى جانب حقيقة أنه لا يمكن الوثوق بها، لم تكن حتى قريبة من الاستعداد لتصير أمًّا عزباء تعتني بطفلين.

قال سكوت: «كيت، أنا حقًّا لا أعتقد أن عليك المغادرة».

نهض لينزلق جالسًا في كرسي آبي وسحبه إلى جوارها.

- الأمور غريبة الآن، لكننا في النهاية سنكتشف كيفية القيام بكل شيء بطريقة صحيحة. علينا منح الموضوع بضعة أشهر أخرى قبل اتخاذ

أي قرار. وقتها إذا واصلنا المعاناة مع المشكلات، ربما يمكننا الذهاب حتى لاستشارة المعالج النفسي الخاص بعائلتنا.

التفت إليَّ وهو يتحدث: «فكري في مدى روعة معاملة الدكتورة جرير عندما كنا زوجين جديدين يا ميريدث. الطبيبة تحب التعامل مع الحالات التي تعاني تعقيدات. سيكون هذا في صميم تخصصها».

سألت كيت: «نعيش كلنا هنا؟ معًا؟».

أجاب وهو يقرِّبها منه: «أجل يا عزيزتي، يمكننا تدبير هذا».

ذابت في ضمته. نظر إليَّ بابتسامة كبيرة على وجهه، شديد الفخر لأنه نجح في حل هذه المشكلة. صُدِمت حتى إنني عجزت عن قول أي شيء أمام جسديهما اللذين انسابا بسلاسة معًا بالقرب من بعضهما بعضًا. لذلك بدلًا من الحديث أومأتُ له وابتسمتُ كما لو أنني وافقته، بينما صرخت أحشائي داخلي اعتراضًا على ما يقترحه. لم أرغب في أن أكون زوجة لكيت أيضًا! اختنق حلقي بغصة وانتابتني رغبة في البكاء، فكبحتُها من جديد. سيتوجب عليه الاختيار. ومما أراه أمامي، لا أملك مجالًا للمنافسة. لا أحد يستطيع منافستها.

***

كيت

في الماضي

احتضنتُها ملاصقة جسدها إلى صدري العاري، أستنشق رائحة شعرها. أطلقنا عليها اسم شايلو، الاسم الذي عنى «هديته»، الاسم الذي ناسبها تمامًا. كانت مثالية، كل شيء بها مثالي. بعد ما حدث مع بيكا انتابني توتر ممرض حين جاء المخاض، لكنني ظللت أكرر لنفسي أن جسدي سيتذكر ما يجب

عليه فعله، لأنه فعله قبلًا. كان الألم هو أقوى ألم تعرضت له في حياتي، لكنه تبدد ما إن استلقت الطفلة فوق صدري، منهكة من رحلتها إلى عالمنا.

فتحت مارجو باب خيمة الولادة وأطلت برأسها منه. حاولَت التحرك دون أن تعلق، لكن انتفاخ بطنها البالغ من العمر ثمانية أشهر جعل الأمر صعبًا، وانفجرنا ضحكًا على مدى السخافة التي بدت عليها. كان دورها قريبًا.

استغرق الأمر منها وقتًا طويلًا للتأقلم مع حملها، لأنها لم تكن ترغب في مضاجعة آبنر. رفضت طلبه ثلاث مرات مختلفة، ملتزمة بولائها لويل. ولكن في صباح أحد الأيام فاجأتنا جميعًا بإعلانها أنها غيرت رأيها. أخبرتني على انفراد لاحقًا أن ويل طلب منها ذلك، قائلًا إن الله أمره بالسماح بهذا. فعلاها مرة واحدة فقط. ولكن هذا كل ما تطلبه الأمر. لفترة من الوقت، تساءلنا عما إذا كان من الممكن أن الطفل ابن ويل، لكنهما اعترفا بأنهما امتنعا عن مشاركة الفراش، ملتزمين بالعفة خلال فترة وجودهما معًا هنا. قالا إن ذلك ساعدهما على التركيز على الجانب الروحي ومنعهما من تشتيت انتباههما بملذات الجسد الدنيوية.

بقيت معي منذ آلام المخاض وأمسكت بساقي الأخرى بينما أدفع الطفلة للخارج. على الرغم من أنها لم تنجب طفلًا من قبل، فإنها استرشدت بحدس الأمومة الصادق وبتجربتنا مع بيكا. صببت تركيزي عليها، واستمدَدْتُ قوتي من قوتها الداخلية لأتجاوز ما يحدث. لم تغادر الخيمة إلا لتتجه إلى الحمام بعد أن ساعدت في تنظيفنا. وتبعها آبنر. جلس خارج الخيمة بينما أنا أعاني مع مخاضي، مفضلًا الاستغراق في جلسة تأمل عميق. ومض وجهه بابتسامة عريضة حين رآنا.

- ها أنتما تان، زوجتاي الجميلتان.

أدارت مارجو رأسها وعيناها تتسعان.

- ماذا قلت؟

ابتسم مرة أخرى، عيناه تومضان بسعادة طفل لئيم.

- زوجتاي.

وأشار إليها ثم إليَّ.

- هذه هي المفاجأة التي كنت أتحدث عنها.

لم يعد أحد يتحدث عن الزواج بعد الآن. بجانب مارجو وويل، انخرط الجميع معًا حتى صار من الصعب تذكر من ارتبط بمن. لم يعد أيٌّ من هذا يهم بعد الآن. ماذا كان يقترح؟

نظرت مارجو إليَّ، بحثتْ في عينيَّ عن الإجابات، وحركتُ كتفي بذهول. لم يقل لي أي شيء قط، ومن الواضح أنه لم يقل لها أيضًا. تراجعتْ إلى الخلف حتى يتمكن من الدخول إلى الخيمة، ليركع بجوار سريري. وضعتْ يدها على ظهرها. أستطيع أن أقول من الطريقة التي تجعدت بها قسمات وجهها إن اليوم مضى عليها بصعوبة شديدة. حولت انتباهي مرة أخرى إلى آبنر. لم أهتم بأيٍّ ما يقول، فلا شيء يمكنه إفساد هذا اليوم عليَّ.

كل ما مررت به في هذه الرحلة، كل قطرة عرق على جبيني، كل تعب نال مني. التضحيات كافة. كل شيء استحق العناء، ما إن أبصرت عيناي وجه شايلو الجميل. أجبرت نفسي كي أركز على ما يقول، وهو يثرثر عن كيف أننا خلقنا أول أبناء الرب.

- خلقت نطفتي هؤلاء الأطفال بسبب مشيئة الرب. حياته التي جاءت من خلالي وفيكما، بالطريقة ذاتها التي انتقلت بها الروح القدس عبر مريم العذراء. تحركت مشيئته عبركما، وستستمر حتى يصير عددنا مثل أبناء إبراهيم.

فتح ذراعيه على اتساعهما، ووجهه يشع بالنور والهدف الأسمى.

- بعد أن تجلب مارجو الجندي التالي إلى العالم، سنقيم احتفالنا. سأبلِغ العائلة في التجمع حول النيران الليلة.

- رائع.

بينما قلتها تحركت شايلو وبحثت عن ثديي، تمامًا كما فعلتْ بعد ولادتها. تنفستُ الصعداء لأنها رضعت بسهولة.

سأل آبنر: «مارجو؟».

قالت مارجو: «ماذا عن ويل؟».

- ويل لم يعد زوجك منذ وقت طويل، تعلمين كيف كسرنا تلك العهود الدنيوية.

تمنيت لو أنني استطعت حماية شايلو من الطاقة السلبية التي تنتقل بينهما. لم يكن عليها التعرض لكل هذه الظلمة وقد تركت لتوها عالم النور. أقسمت إنني لا أزال أستطيع رؤية أجزاء منه عندما التقت عيناي عينيها وهي ترضع. فتحتهما مرتين فقط، لكنني حضرت كل مرة منهما.

- أقصد فقط، أنت تعلم، هل يتقبل هذا؟

- مارجو، ويل خادم الرب.

توقف الحديث تمامًا، وامتد الصمت طويلًا حتى قطعه صوت مارجو أخيرًا: «هذا رائع، آبنر. أنا شديدة الحماس لأصير زوجتك».

لم أكن بحاجة إلى النظر إلى أعلى لأعرف أنه يبتسم.

- سأعود مرة أخرى بعد التجمع.

انتظرتْ مارجو حتى غادر الخيمة قبل أن تبدأ في البكاء بهدوء.

***

سبعة وثلاثون

ميريدث

الآن

بالكاد تمكنت من الحفاظ على تماسكي حتى تركتنا زوجة ثاد وحدنا في الغرفة، وبقيت أبكي منذ ذلك الحين. مرت ثلاثة أيام منذ أعلنت كيت أنها تفكر في المغادرة، وحتى الآن لم نتحدث أنا وسكوت عن عرضه بالسماح لها بالبقاء إلى أجل غير مسمى.

- أمي، عليك التحدث معه. لا يمكنه البدء في وضع خطة دائمة -وبخاصة تلك التي تتضمن أن تصبح زوجته الأولى مثل الزوجة الثانية- دون معرفة ما تشعرين به حقًّا حيال ذلك.

- هل أنا أبالغ في رد فعلي؟

سألتُه. سيراعي كايلب شعوري لكن ثاد سيخبرني الحقيقة مهما حدث، كان صلبًا لا يرحم منذ مراهقته. حرك رأسه بقوة: «بالطبع لا. الأمر يصطبغ بغرابة فكرة تعدد زوجات».

اجتاحتني مشاعر الراحة.

- ليست لديك أي فكرة عن مدى سعادتي لسماعك تقول ذلك. أتمنى لو أنك رأيت كيف نظر إليَّ بينما كان يواسيها في ذلك اليوم. لم يكن الأمر كما لو أنها رغبة جسدية أو أي شيء من هذا القبيل.

احمر وجهي خجلًا على الرغم من ثلاثين عامًا مضت منذ صراحتنا في الأمور المتعلقة بالجنس.

- كان الأمر كما لو أنه كان ينتظر أن أنضم إليهما في العناق الجماعي، لأننا حقًّا عائلة واحدة كبيرة سعيدة، أو هذا ما يعتقد أن علينا محاولة الوصول إليه في المستقبل.

أمسكت بالمنديل الذي أعطاني إياه سابقًا وتمخطت أنفي: «ربما عليَّ أن أرحل أنا».

- ماذا؟ لا أمي.

- عندما تلقينا المكالمة بشأن كيت، لم يكن لدينا الوقت للتفكير أو معالجة أي شيء. كل ما فعلناه هو ردود فعل، لكن لو أنني فكرت في الأمر سابقًا، لربما عرضت فكرة المغادرة حتى ينتهوا من تسوية أمورهم. إنهم يستحقون الحصول على الوقت والمساحة لحل الأمور كعائلة.

- حل الأمور كعائلة؟

ومضت عيناه البنيتان بالغضب: «أمي، أنت جزء من العائلة!».

- أعلم ذلك يا عزيزي، لكن هذا لا يغير حقيقة أن لديهم الكثير من الأشياء التي يحتاجون إلى اكتشافها. قد تسهِّل مغادرتي بعض الوقت الأمور على الجميع.

تفوهت بالكلمات بثقة وتفاؤل أكبر بكثير مما شعرت به. لم أستطع إلا أن أتذكر كيف قال سكوت شيئًا مطابقًا تقريبًا لكيت في تلك الليلة، وتوسل إليها للبقاء. هل سيفعل الشيء نفسه لي إذا قلت إنني أريد الرحيل؟

غيَّر ثاد مسار الحديث، لأننا سلكنا هذا الطريق بالفعل أكثر من مرة.

- ما هو شعورك بوجود طفل في محيطك مرة أخرى بعد كل هذه السنوات؟

- بصراحة، ليس هناك فرق كبير، لأنه لا أحد يستطيع التفاعل مع الطفلة باستثناء كيت وآبي.

- على الأقل سمحت لآبي.
- نعم، أنت محق على ما أعتقد، لكنني أطبخ وجباتها وأنقلها ذهابًا وإيابًا إلى مواعيدها، لذلك لاعتقدت أنني على الأقل سأتمكن من حمل الطفلة بين الحين والآخر.

وضعت يدي بسرعة على فمي بمجرد أن قلت ذلك: «آسفة، هذا يشعرني بالدناءة، وأنا لا أحب الحديث بهذه الطريقة».

انفجر ثاد في الضحك: «يا إلهي يا أمي. امنحي نفسك هدنة. هذا هو أسوأ شيء لديك لتقوليه عن كل هذا؟ من فضلك!».

ولوَّح بيده في وجهي، ولم أستطع إلا أن أبتسم.

- ماذا عن آبي؟ ما رأيها في كل هذا؟
- الأمور دائمًا وعرة بيني وبينها، لأنها تغضب مني وتنحاز إلى كيت أكثر فأكثر، لكنني أعتقد أن ذلك كان سيحدث مهما كانت الظروف.
- هل تريدين مني أن أتحدث معها؟
- عرض لطيف جدًّا، لكن لا.

لا شيء آخر استحق أن نتناقش فيه مع آبي. لم تكن هي التي اتخذت القرار النهائي بشأن ترتيبات معيشتنا. كان يجب أن أبدأ تلك المحادثة مع سكوت، وخشيت ذلك، لأنه لم تكن هناك طريقة للقيام بهذه الخطوة دون أن أبدو مثل زوجة الأب الشريرة.

***

كان سكوت يجز العشب في الفناء الأمامي عندما وصلت إلى المنزل، وهو ما لم يكن علامة جيدة، لأنه كان يقص العشب فقط عندما يصير متوترًا. في العادة كره تلك المهمة، ولهذا السبب استأجرنا بستانيًّا. بينما توقف في مساره كنت أتقدم في الممر ليسأل: «كيف حال ثاد؟».

- جيد. غارق حتى أذنيه في العمل، ولكن هذا ما سيحدث إلى أن يحصل على الترقية التي يريدها.

حتى أحاديثنا الصغيرة بدت مفتعَلة، وستظل هكذا حتى نحل الأمور بيننا.

- هل تعتقد أنه يمكنك إيقاف هذا الشيء حتى نتمكن من التحدث؟

- بالتأكيد.

قالها وهو يضغط على المفتاح ليوقف زئير الجهاز.

- ما الذي ترغبين في الحديث عنه؟

بذلت قصارى جهدي لتخرج كلماتي ودية ولطيفة: «سكوت، كيت لا تستطيع الاستمرار في العيش معنا. أنت تعلم ذلك، صحيح؟».

- ولِم لا؟

- لأنها زوجتك... الزوجة القديمة؟ الزوجة الأولى؟ أنا لا أعرف حتى ماذا أسميها.

سقط قلبي إلى قدميَّ وأنا أتابع: «ما زلت تفكر فيها بهذه الطريقة. ولا بأس. أنا أتفهم السبب. لكنني لا أستطيع العيش في وضع يكون فيه لديك زوجتان، وهذا ما سيكون عليه الوضع لو بقينا جميعًا تحت سقف واحد».

- الأمر لا يتعلق بكونها زوجتي.

ترك يدي، واختفى سلوكه اللطيف بهذه السرعة.

- أنتِ دائمًا ترغبين في أن يصير محور الحديث كونها زوجتي.

- أنت من دعاها بذلك، ليس أنا.

قاطعته. لم تكن هناك طريقة لإجراء هذه المحادثة دون ذكر الليلة التي وصفها فيها بزوجته.

بدأ بالمشي عبر العشب متجهًا نحو الرصيف.

- أنت غريبة، هل تعرفين ذلك؟

بينما أجبرت نفسي على مواصلة الالتزام بالهدوء، حاولت مواكبة حديثه. كان على أحدنا أن يبقى عقلانيًّا: «اشرح السبب إذن».

- نحن العائلة الوحيدة التي لديها. ليس لديها أحد يا ميريدث.

كرهت أن أصير الشخص الذي يقولها علانية، لكن الوقت حان، ولا بد من الصراحة.

- سكوت، كيت تخلت عنكما، بغض النظر عن السبب أو كيف تنظران إلى الأمور. كيت تركتك أنت وآبي. خذ من وقتك دقيقة وتذكر كل ما مررتَ به طوال تلك السنوات. أتذكر كيف كان الأمر بالنسبة إليك في ذلك الوقت. والآن تتوقع منك أن تساعدها في إعادة حياتها إلى طبيعتها مرة أخرى لأنها في ورطة؟ ألا يبدو هذا أنانيًّا بالنسبة إليك على الإطلاق؟ ولا حتى قليلًا؟

توقف متسمرًا.

- لم تكن لدي أي فكرة أنك قادرة على مثل هذه الغيرة.

التفت لمواجهتي فقلت: «لست غيورة، كل ما أفعله هو إخبارك بصوت عالٍ بما يخشى الجميع مصارحتك به. يجب على شخص ما فعلها. ثاد وكايلب يعتقدان الشيء ذاته. تصرُّف شديد الأنانية».

اعترض مشمئزًّا: «بالتأكيد يعتقدان هذا. سيوافقك ولداكِ على أن لديها قرنًا ينمو في جبهتِها إذا أخبرتهما ذلك أيضًا».

- الآن أنت مجرد أحمق.

قلتها وتابعت: «وبينما تتصرف بحماقة بلا سبب، كل ما أحاول فعله هو إجراء محادثة معك».

- أوه، هل هذا ما نفعله؟

ابتسم في وجهي: «حسنًا، بالنسبة لي، انتهت هذه المحادثة».

استدار وعاد نحو المنزل. ولم أكلف نفسي عناء اللحاق به هذه المرة.

***

كيت

في الماضي

- آبنر، لا، من فضلك، لا يمكنك أن تكون جادًّا. لا يمكنك.

سقطت على ركبتي عند قدميه، ووجهي اغرورق بالدموع. اكتملت مراسم زواجنا. لف رأس مارجو ورأسي بحجاب أبيض قذر ونطق بالكلمات من الكتاب المقدس فوق كلٍّ منا، قبل أن ينزلق إلى لغة صلاته الجديدة. لغة سرية بينه وبين الرب. حفل الزفاف لم يجعلني أبكي. لكن ما قاله لنا بعد ذلك هو ما صدمني في أعماق أعماقي. سيبقى أطفالنا معنا حتى يُفطموا، وعند هذه النقطة خطط آبنر لأخذهم في رحلة روحية معه، حيث لن يصيروا محاطين بأي شيء سوى النور ويشرف عليهم الرب. لم يذكر كم من الوقت سيحتفظ بهم أو إلى أين سيذهب. لم يقل حتى متى. فقط إن هذا سيحدث.

وضع شايلو على صدره، محاولًا تهدئتها، لكنها بكت كما كانت تفعل في كل مرة يمسكها بها.

- صوَّتنا على القرار الليلة الماضية، وكان قرارًا بالإجماع من أفراد العائلة كافة.

لا أستطيع أن أتذكر آخر مرة صوَّتنا فيها على أي شيء. ولَّت تلك الأيام منذ فترة طويلة. التفت إلى مارجو، التي جلست تئن في الزاوية، تحتضن طفلها الصغير إلى صدرها، زيد، وُلِد بعد شايلو بأربعة أيام.

- لماذا؟

سأعطي أي شيء، أفعل أي شيء، لأثبت أنني أستحق كوني من أتباعه. ولكن ليس طفلتي، لن أعطيه طفلتي، أي شيء عدا ذلك.

- لا يمكننا التشكيك في خططه. أنت تعلمين ذلك يا عزيزتي.

احمر وجه شايلو بالصراخ بقوة بين يديه، وسال الحليب من صدري لسماع صوتها، مبللًا مقدمة فستاني في لحظات.

- من فضلك أعدها إليَّ. اسمح لي بحمل طفلتي.

توسلت إليه، بغض النظر عن مدى اليأس الذي بدا في صوتي.

- إنها ليست طفلتك. هذه طفلة الرب.

حدق إلى وجهي بنظرة ذات مغزى. مددت يدي: «من فضلك، إنها جائعة. أنا بحاجة إلى إطعامها».

أعادها إليَّ، ولم أستطع إلا أن أبكي. ماذا كنت سأفعل لو لم يعِدها؟ ألقمتها صدري على الفور. يبلغ عمرها اليوم ثلاثة أسابيع، ولكن بدا وكأن الحياة لم تكن موجودة قبلها، لم أتخيل الحياة في غيابها.

بحثت عينا مارجو عن إجابات في عيني، عقلها لا يزال مشوشًا بسبب المخاض الصعب. حالتها لم تسِر على ما يرام. أخبرني وجهها الشاحب أنها لا تزال تفقد الكثير من الدم، وهذا من شأنه أن يرهقها أكثر فأكثر. كانت أضعف حتى من أن تتمكن من التعامل مع كل هذا. لم أستطع أن أفقدها. ليس مرة أخرى. سقطت كلمات آبنر كالرصاص في جنبات خيمتنا.

- كنا نعلم أن الله سيطلب تضحية من زوجاتي كي يشاركنني فراشي. كلتاكما كنتما مستعدتين.

- آبنر، من فضلك لا.

توسلت مارجو من مكانها في الزاوية. كانت منهَكة للغاية حتى إنها عجزت عن الحركة.

- الأمر لا يعود إليَّ. أنتما تعلمان هذا.

نظر إلى كلتينا قبل الخروج من الخيمة.

- من فضلك، علينا أن نفكر في شيء ما. علينا أن نفعل أي شيء!

بكت مارجو بمجرد أن علمنا أنه صار بعيدًا عن نطاق السمع.

- لا يوجد شيء يمكننا القيام به. تعرفين هذا.

أجفلت شايلو على صدري، فنقلتها إلى الثدي الآخر. الاتصال بيننا ثبتني في مكاني، كانت نوري الذي أسترشد منه. الحب الذي أبقاني حية.

هزت مارجو رأسها بشكل محموم، ووجهها مبتلٌ بالدموع وملتوٍ من الألم.

- ماذا لو غادرنا؟

واهتز العالم أجمع أسفل قدميَّ.

***

ثمانية وثلاثون

آبي

مكتبة ياسمين

الآن

مضيت خلف أمي إلى إحدى الشقق المدرجة في قائمتها. ساعدها دين في التقدم بطلب للحصول على ما يسمى منحة القلب المقدس، التي دفعت وديعة وإيجار الشهر الأول للمشردين. كان من الغريب سماع الإشارة إليها على أنها شخص بلا مأوى، لكن أعتقد أن هذا كان صحيحًا. بحثت عن معلومات عن المنظمة، ورأيت أن الحصول على منحة منهم لم يكن بتلك السهولة. ربما اضطر دين إلى طلب بعض الخدمات من أجل خاطرها. منذ أن أعلنت رغبتها في المغادرة، أمضت كل وقتها تقريبًا في البحث عن شقق، وحددتْ موعدًا بمجرد حصولها على القائمة منه، كما لو أنها لا تطيق الانتظار لمغادرة منزلنا.

فتح باب الشقة على غرفة المعيشة. على يمينها منطقة من المفترض أن تصير غرفة نوم، لكنها بدت أشبه بخزانة ملابس كبيرة، ولم تكن هناك مساحة كافية إلا لسرير بالكاد. انقسمت غرفة المعيشة إلى مطبخ صغير يقود إلى الحمام. لا شيء به سوى دوش، بلا حوض استحمام.

سألتني أمي: «ما رأيك؟».

- ستفي بالغرض بالتأكيد.

قلت الكلمات، غير راغبة في إيذاء مشاعرها. كانت شقة صغيرة، أصغر بكثير مما كنت أتوقع. معظم غرف الفنادق أكبر منها. أشارت إلى غرفة النوم.

- غرفة النوم كلها لك. كل فتاة مراهقة تحتاج إلى خصوصيتها.

لم يكن هناك حتى باب في غرفة النوم. سيتعين علينا تعليق ستارة أو شيء من هذا القبيل. كان عليَّ أن أتذكر البحث على موقع بينتريست للحصول على بعض الترشيحات. تقدمت أمي لي لتسحبني كي أقترب منها وتضمني بقوة.

- أنا في غاية السعادة لأنك آتية معي.

- وأنا أيضًا.

قلت، على الرغم من أن لا فكرة لديَّ كيف سيحدث ذلك. لم أتحدث مع أبي بشأن هذا الأمر منذ أن طرحته، واعترض. فكرت في إثارة الأمر الليلة الماضية، لكنه دخل -هو وميريدث- في شجار كبير بالخارج بالأمس، ولن أقدر على القيام بذلك بينما هو في مزاج سيئ.

لم يعلم أننا هنا. أخبرته أنني وأمي سنتوقف عند متجر البقالة في طريق عودتنا من موعدها مع كاميل. كرهت الكذب عليه، لكنني لم أرغب في المخاطرة بعدم السماح لي بالرحيل. ومع ذلك، لم أشعر بأن الأمر على ما يرام. ربما سيريان أن أمي تستطيع تحمل المسؤولية إذا حصلت على هذه الشقة وجهزت كل شيء بنفسها. قد يساعدهما ذلك على تغيير رأيهما بشأن قدرتها على الاعتناء بي. هذا ما ظللت أقوله لنفسي لتبرير الكذب على أبي، على أي حال.

***

اقتحمت الأصوات الغاضبة من الطابق السفلي جلسة أداء واجباتي المدرسية. خلعت سماعات الأذن الخاصة بي وهرعت إلى الأسفل لأرى ما يحدث. في المطبخ وقف كلٌّ من أمي وأبي وميريدث يتجادلون مرة أخرى. صرخت أمي في ميريدث: «هذا أكثر من أن يُحتمَل، تجاوزتِ حدودك».

لم ترفع أمي صوتها من قبل. ماذا حدث؟ سئمتُ حقًّا من كل هذا القتال.

- أنا تجاوزت حدودي!

أشارت ميريدث إلى الكاميرا الموضوعة على طاولة غرفة الطعام. لم أرَها من قبل.

- بعد كل ما مررت به، هل هذا هو ما يسيء إليك؟

- نعم.

استقامت شفتا أمي كخط وهي تقول: «لم تحصلي على إذني قط».

- لم أكن لأطلب منك أي شيء لو أنك تفوهتِ بالحقيقة عندما سألتُك. لكننا نعلم جميعًا أنك كذبتِ، أليس كذلك؟

وقفت ميريدث دون حراك بجوار الطاولة، في مواجهة أمي وجهًا لوجه. نظر أبي بينهما ذهابًا وإيابًا، كما لو أنه لم يكن متأكدًا تمامًا مما كان عليه أن يفعله أو إلى أي جانب كان من المفترض أن ينحاز. سألتُ مقاطعة إياهم: «ماذا يحدث هنا؟».

تجمد الجميع عند رؤيتي. وأخيرًا، تراجعت أمي، وخفضت ميريدث ذراعها. ظل أبي متجذرًا في مكانه بينهما، وذراعاه منفرجتان ليفصل بينهما.

- سجلت ميريدث تحركاتنا كافة في المطبخ.

قالتها أمي واعترضتُ: «سجلت تحركاتنا؟ كيف؟».

كانت ميريدث واحدة من أقل الأشخاص الذين عرفتهم ذكاءً في مجال التكنولوجيا. تحدث أبي دون أن يلتفت لينظر إليَّ: «آبي، عزيزتي، أعلم أن هذا قد يبدو مربكًا حقًّا، لكنني سأطلب منك العودة إلى الطابق العلوي ومحاولة إنجاز بعض من واجباتك. يمكننا أن نتحدث عن هذا لاحقًا».

وضعت يديَّ على جانبيَّ معترضة: «لن أذهب إلى أي مكان. ليس قبل أن أعرف ما الذي يحدث».

اتخذت ميريدث خطوة في اتجاهي: «أعتقد أن والدك على حق. ربما من الأفضل أن تدعينا نتحدث عن هذا الأمر بمفردنا».

نظرتْ نحو الدرج الذي خلفي.

- علاوة على ذلك، إذا استيقظت شايلو، يمكنك الاعتناء بها من أجل والدتك.

حركتُ رأسي نفيًا، لن أغادر حتمًا.

قالت أمي: «لا مشكلة لدي في بقائها».

استدارت ميريدث نحوها متسائلة: «لا مشكلة لديك؟».

- أنا لا أخفي أسرارًا عن آبي.

ابتسمتْ ابتسامة طفيفة فبادلتُها الابتسام. أردت أن تكون علاقتنا مبنية على الحقيقة أيضًا. لا أكاذيب.

- إذًا اثنان ضد اثنين إلا إذا غيرتَ رأيك يا أبي؟

قال وهو يبدو أبعد ما يكون عن الرضا: «لا مشكلة لي».

سألتُ من جديد، مولية إياه كل اهتمامي: «ماذا يحدث هنا؟».

رفض النظر إلى ميريدث في أثناء حديثه: «أنت تعرفين الجدال الذي دار بين والدتك وميريدث عن المكالمات الهاتفية، أليس كذلك؟».

هل كان ما يدور حوله الشجار؟ لِم عجزت ميريدث عن ترك الأمر وشأنه؟ أومأت فتابع أبي: «قررت ميريدث أنها ستسجل حديث والدتك على الهاتف، وقد اكتشفت والدتك الكاميرا للتو».

- أنا متمسكة بصحة ما فعلتُه، لم تترك لي أي خيار.

- كيف سجلتِه؟

- طلبتُ الكاميرا ذاتها التي أستخدمها لتصوير الطيور في الفناء الخلفي ووصلتها بالطريقة ذاتها.

أشارت إلى الجزء العلوي من الثلاجة: «ووضعتُها هناك».

- وسجلتِ تحركاتنا جميعًا؟

دار في ذهني كل ما حدث في المطبخ في الأيام القليلة الماضية. لم يكن لدي ما أخفيه، لكنني شعرت بالانتهاك قليلًا من فكرة أن ميريدث تراقبني دون علمي. كان هناك بالتأكيد شيء خاطئ في هذا الفعل. التفتت ميريدث

إلى أبي، متجاهلة إياي تمامًا هذه المرة: «كانت هناك لمدة يومين، وراجعت الفيديو المسجل في الليلة الماضية. وخمن من تسلل إلى المطبخ لإجراء مكالمة هاتفية أخرى في منتصف الليل؟».

صرخت أمي: «لا أستطيع تصديق أنك انتهكتِ خصوصيتي بهذه الطريقة».

- خصوصيتك؟ أنتِ في منزلنا. من حقنا أن نعرف ما يجري تحت سقفنا.

التفتُّ إلى أبي، الذي ارتج كل جزء من جسده من الغضب ليهز رأسه مشمئزًّا وهو يوجه حديثه إلى ميريدث: «لم أعد أعرفك بعد الآن».

صرخت ميريدث: «أنا! لماذا الجميع غاضب مني لهذا؟ إنها كاذبة!».

اقترب أبي منها. برزت الأوردة في رقبته، واهتز صوته بالغضب: «من المفترض أننا...».

تحركت أمي من خلف ميريدث وتدخلت بينهما: «لا. لا لا. انتظر، توقف، توقف».

رفعت يديها أمام أبي، تمامًا كما فعل معها ومع ميريدث منذ بضع ثوانٍ: «نحن لن نفعل هذا. ليس هذا. سأذهب. حان الوقت».

- ماذا؟ لا، لا يمكنك فعل ذلك.

قال أبي. ليتلاشى غضبه فورًا ويحل محله القلق، فأجابته بعين ملأى بالدموع: «إنه الخيار الأفضل للجميع».

تصدع صوت أبي: «إلى أين ستذهبين».

- سأبقى في فندق إلى أن تتاح شقة، أنا...

قفزتُ قبل أن تنهي جملتها وركضتُ إلى الطابق العلوي بأسرع ما يمكن. فتحتُ باب خزانة الملابس وبحثتُ عن حقيبتي القماشية. وجدتُها محشوة تحت كومة من علب الأحذية الفارغة. رميتُها على كتفي وتوجهتُ عائدة إلى غرفتي، حيث ارتديتُ ملابسي قبل أن أسرع إلى الحمام لأخذ فرشاةَ أسناني ومزيل العرق. سمعت أصواتًا في غرفة نوم أمي فأسرعت إلى هناك. كانت

تحشو حقيبة حفاضات شايلو بكل شيء كما فعلتُ مع أغراضي. طوت بالفعل مناشف الحمام ووضعتْها في كومة على طرف السرير. دار أبي حولها وهي تحزم أمتعتها متسائلًا: «أين ستذهبين؟ وكيف ستصلين إلى وجهتك؟».

استمر في مد ذراعيه كما لو كان يريد إيقافها ثم سحبهما بسرعة. قالت بلا طاقة لقتال متبقية في صوتها: «سأجد طريقة».

- على الأقل دعيني أعطيك بعض المال.

قالها أبي واستدار ليغادر حتى يتمكن من العودة إلى الطابق السفلي لإحضار محفظته ولاحظني أقف في المدخل وحقيبتي معلَّقة على كتفي.

- أين تعتقدين أنك ذاهبة؟

- أنا راحلة مع أمي.

- بالطبع لا.

هز رأسه نفيًا فقلت: «أنا لا أطلب إذنك».

انحنيت إلى الأسفل وأمسكت بإحدى حقائبها الملقاة على الأرض: «هيا يا أمي. دعينا نذهب».

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

تسعة وثلاثون

ميريدث

الآن

مرت أكثر من ساعتين، ولم يعد سكوت بعد. أصر على اصطحاب الفتيات إلى الفندق الذي سيقِمن فيه والتحقق من وصولهن، لكن ليس من الممكن أن يستغرق الأمر كل هذا الوقت. ليس إلا إذا قادهن إلى مدينة أخرى، ومن غير المرجح أنه فعل. لن يسمح أبدًا لآبي بالبقاء بعيدة عنه. لم أصدق أنه سيسمح لها بالذهاب مع كيت. عزمتْ على تنفيذ ما رغبتْ فيه، ولكن ما كان ينبغي له أن يستسلم هكذا. ربما قاد سيارته في الجوار محاولًا استعادة هدوئه. لم يكن لينزعج بهذه الطريقة لو أنه شاهد الفيديو، لكنه رفض النظر إلى الشاشة حتى عندما دفعتُ هاتفي في وجهه.

خطرت لي فكرة تسجيلها عندما ذكر دين شيئًا ما عن مقاطع الفيديو التي راجعوها في وقت سابق من ذلك اليوم، وخططتُ لتحليل مكالماتها الهاتفية بالطريقة نفسها التي حللوا بها اللقطات التي أظهرت تمتمتها الغاضبة لنفسها. اهتممت بما تفعله في الليل، حتى لو لم يهتم سواي. كان الصوت فظيعًا والفيديو غامضًا -لا يشبه حتى المعدات عالية التقنية التي استخدمها مكتب التحقيقات الفيدرالي- لكنها من دون لبس، تحدثت إلى شخص ما.

ظللت أفكر أن سكوت سيغير رأيه بشأن الثقة العمياء بها إذا رأى ذلك بأم عينيه. كان بحاجة إلى رؤية كيف تسللت كيت إلى الطابق السفلي مرتين للتأكد من أنني لم أتبعها قبل إجراء مكالمتها. وفي المرة الثانية اختبأت خلف جدار غرفة المعيشة لأكثرْ من ثلاثين دقيقة، محدقة عند أسفل الدرج.

لم يكن هناك شك في أنها تنتظر لترى ما إذا كنت سأنزل خلفها إلى الطابق السفلي. لم تتحرك من مكانها حتى أيقنت أن لا أحد يتبعها، ثم دخلت المطبخ على رؤوس أصابعها والتقطت جهاز الاستقبال. أدخلت الرقم بسرعة وتحدثت وهي تضع يدها بالقرب من فمها، هامسة لعدة دقائق. لم تغادر عيناها باب المطبخ قط.

لِم تكبدتُ العناء؟ لا يهم ما أظهره الفيديو. لن يغير أي شيء مما شعر به تجاهها. مر شهر تقريبًا، ولم نجرِ أي محادثة حول كيفية تأثير ذلك على علاقتنا. ليس مرة واحدة. لم يسألني كيف هو حالي أو ما الذي أشعر به.

لم يمنحني تعليقًا واحدًا رحيمًا يشي بأنه فكر في مدى صعوبة الأمر بالنسبة لي وأنا أتعامل مع كل هذا. لو أن إثبات أنها تكذب وتتسلل حول منزلنا ليلًا لن يغير نظرته إليها، فلن يغيرها أي شيء. هذا ما عرفته الآن بكل تأكيد.

كنت الزوجة البديلة، وكأي زوجة بديلة جيدة، فقد انتهى وقتي. لم تعد لدي فرصة قط بمجرد عودة كيت إلى الصورة. لم تعد هناك حاجة إلى خدماتي. أردت أن أنهار باكية على أرضية المطبخ، لكنني أجبرت نفسي على النهوض، لا يمكن أن يجدني في حالة فوضوية ما إن يعود. كان عليَّ أن أتمسك بآخر ذرة من كرامتي.

أخذت نفسًا عميقًا ومسحت الماسكارا التي لطخت أسفل عيني. ماذا سأفعل من دون سكوت؟ أجبرت جسدي على الحركة. مررت بأزمة من قبل. كان المفتاح هو التركيز على ما بوسعك فعله مباشرة في الوقت الحالي والقيام به. كل ما عليَّ فعله في هذه اللحظة هو حزم حقيبتي.

سأكتشف الباقي من غرفتي في الفندق.

كانت أمتعتي في المرأب، مكدسة بجوار الحاويات البلاستيكية التي تحتوي على زينة عيد الميلاد وصناديق ألبومات الصور القديمة. أخذت حقيبتي وتوجهت إلى الداخل. لم ألاحظ سيارة سكوت في الممر وكدت أن اصطدم به عند هبوط الدرج. سأل ويداه جواره: «ماذا تفعلين؟».

- ماذا يبدو لك أنني أفعل؟

لم أقصد الرد بفظاظة. لكن الكلمات خرجت بسرعة بهذه الطريقة. تجاوزته لأدخل غرفة نومنا.

- لا بد أنك تمزحين معي. لا يمكنك المغادرة.

مد يده إلى حقيبتي، فأبعدتها عنه.

- لن تلاحظ حتى إنني رحلت.

حُزن اللحظة تسلل إليَّ.

- هذا ليس صحيحًا، وأنت تعرفين ذلك.

أدرت له ظهري وبدأت في فتح أدراج خزانة ملابسي، محاولة دفن مشاعري عميقًا حتى أتمكن من التفكير بشكل صحيح. كنت بحاجة إلى حزم ما يكفي من الأشياء حتى لا أضطر إلى العودة إلى المنزل لمدة أسبوع على الأقل. كنت بحاجة إلى وقت للتفكير، ولم أتمكن من القيام بذلك هنا. ليس عندما اضطررت إلى رؤيته كل يوم أو مشاهدة كيفية تفاعله مع كيت. وضع يده على ظهري. قال بحنان: «ميريدث، من فضلك توقفي، هلا استدرتِ ونظرتِ إليَّ؟ للحظة من فضلك».

لم أستطع الالتفاف لأنني قد أبقى إذا نظرت إلى عينيه، ولم أستطع البقاء وأنا أعرف ما يشعر به حقًّا، على الرغم من كل ما كان على وشك قوله لي.

مهما كان ما أراد أن يقول، فهو لن يتخطى كونه رجلًا نبيلًا وهذا ما يفعله النبلاء. لم يكن لدي أي شك في أنه سيحترم التزامه تجاهي، لكن هذا جل ما سيفعله. احترام التزامه. قلبه سيبقى دائمًا معها. لطالما كان.

***

كيت

في الماضي

- هل هذا هاتف؟

سألتُ آبنر وهو يسلمه لي. لم نستخدم الهواتف. كانت إحدى الطرق التي سيطر بها الظلام على بقية العالم. لم أستطع تذكر آخر مرة رأيت فيها واحدًا.

- نعم، وهو لكِ، هل يشعِرك هذا بالتحسن؟

بحث في وجهي عن الموافقة وأنا آخذه منه. لكنني لم أفهم. لم أكن بحاجة إلى الهاتف، أو أرغب فيه. وقد جلب وجوده بالفعل ثقلًا إلى الخيمة. لكن آبنر قال: «ستحتاجين إليه حين أرحل مع الأطفال. لدي واحد أنا الآخر. لا تستخدميه إلا في الطوارئ، لا أرغب في مقاطعات خلال هذه الفترة المهمة. إذا حدث شيء لأحد الأطفال، فسأتصل بك. اكتبي هذين الرقمين».

أسرعت إلى الزاوية، أبحث في حقيبتي عن دفتر ملاحظاتي. أيقظت حركتي شايلو، وبدأتْ على الفور في البكاء. كانت تنتقل دائمًا من حالة النوم العميق إلى صرخات خارقة للأذن في ثانيتين. توقفتُ مؤقتًا، ممزَّقة بين العثور على الورقة وتهدئتها قبل أن يثير صراخها غضب آبنر. أمر آبنر وكأنه يستطيع قراءة أفكاري: «أعطيها لي».

- لا بأس. أمسكتُ بها. هذا لن يستغرق سوى ثانية واحدة.

قلتها وأنا آمل داخلي أن تصمت، لم يطق آبنر البكاء. لكنه أمر من جديد: «قلت لك، أعطيني إياها».

ولم يعد هناك مجال للنقاش. وقفت وسلمتها له. كان جسدها الصغير متكومًا ككرة، ووجهها اصطبغ بلون أحمر قانٍ. أخذها مني مرة واحدة وبسرعة. أسرعت عائدة إلى حقيبتي ووجدت دفتر ملاحظاتي.

- 422-3876.

بدأت بكتابة كل رقم: «هل يمكنك أن تكرر ذلك مرة أخرى؟».

كان من الصعب سماعه وسط صرخاتها. كرر الأرقام وبدأت بمراجعة كل واحد منها مرة أخرى. بكت شايلو بفظاعة حتى وصلت إلى حد سيصير إطعامها معه صعبًا. دار آبنر بها في الخيمة.

- اصمتي الآن أيتها الطفلة. كوني هادئة.

قال بالصوت نفسه الذي أمرنا به جميعًا.

- آبنر، إنها مجرد طفلة. لا تفهم ما تقوله لها.

- كلام فارغ. إنها تعرف بالضبط ما يحدث. إنها تعصيني عمدًا.

انعقدت معدتي أكثر من القلق، أمرها صائحًا مرة أخرى: «قلت اصمتي أيتها الطفلة».

لكن بكاءها لم يهدأ. وقبل أن أتمكن من إيقافه، وضع يده على فمها، يده التي كانت كبيرة جدًّا حتى إنها غطت أنفها وفمها الصغيرين. هدأتْ على الفور، وجسدها يتلوى تحت يده.

- اهدئي الآن. ها أنتِ ذي تصمتين.

صرختُ وانتفضتُ لأنتزعها من بين يديه: «أعطها لي!».

صفعتني يده على وجهي. آلمني وجهي عندما قطعت أسناني شفتي السفلية. أمسكني من شعري وسحبني إلى أعلى وأحكم قبضته: «افعلي ما يأمر به الرب. هل تفهمينني؟».

تجمع الدم في فمي: «أنا أفهم، أنا أفهم».

قلت بينما يسيل الدم إلى حلقي. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يضربني فيها، فقط المرة الأولى التي يضربني فيها على وجهي. أطلق سراحي، فتراجعت إلى الوراء ممسكة بشايلو. حنيت رأسي إلى الأسفل: «أنا آسفة يا آبنر. أنا آسفة. رجاءً سامحني».

أشار إلى مدخل الخيمة.

- اخرجي.

***

خرجنا أنا ومارجو من خيمة الولادة منذ بضعة أيام، وحتى الآن لم تترك أيٌّ منا طفلها. أبقيناهما مربوطين حول جسدينا طوال الوقت، كل دقيقة معهما تُحسب. حاولت مارجو عرض اعتراضها أمام ويل، لكنه بالكاد سمح لها بالحديث قبل أن ينحاز لآبنر. كان الأطفال للرب –وليس لنا– وتسليمهم لآبنر ليوجه أرواحهم في الصغر سيأتي بتأثير عظيم على المملكة القادمة. قالت وهي تحكي لي: «كان عليكِ سماع ويل وهو يقول، لا أفهم ما هي المشكلة. سيعودون. هم محض أطفال».

دارت عيناها: «لسمح لآبنر بجعله يحمل في طفله لو أن بإمكانه فعلها».

التفتُّ نحوها مصدومة: «مارجو!».

- أنت تعلمين أن هذا صحيح.

من الطبيعي أن تضحك إحدانا، لكن لم يكن هناك شيء مضحك في هذا الأمر. كيف يمكن لشخص واحد أن يعتني بطفلين رضيعين في مكان مجهول؟ حتى خبراء الأطفال الأكثر مهارة لا يستطيعون القيام بذلك بمفردهم. وأين سيذهبون؟ لم يكن لديهم مأوى أو مؤن. هل سيأخذهما إلى مكان ما؟ أين سيأخذهما؟ كيف سيصلون إلى هناك؟ ذهني دار بكل تلك الأفكار بصورة متواصلة، ولم أتوقع أن أنام على الإطلاق الليلة الماضية، لكنني فعلت على الرغم من مخاوفي. كان نومي متقطعًا، تقطعه باستمرار صورة آبنر وهو يعود من الغابة خالي الوفاض، قائلًا إنه فقد طفلينا. كان مشهدًا مروعًا. شاهدناه وهو يشق طريقه عبر المعسكر مع مايلز. كانت أعيننا ملتصقة بهما كلما كانا في محيط نظرنا، ندرس تفاعلات آبنر مع مايلز.

لاحظت أشياء لم أرها من قبل، مثل كيف كان يجفل في كل مرة يتحرك فيها آبنر بسرعة والطريقة التي لم يقف بها على مسافة معينة منه، كما لو أن حبلًا غير مرئي مربوطًا به، ولكن ليس بطريقة جيدة. ارتعد خوفًا كلما رفع آبنر صوته. مارجو رأت هذا أيضًا. لم نكن بحاجة إلى الحديث عما يعنيه ذلك. توجب علينا إبعاد آبنر عن البالغين عندما تجاوزت عقوباته الحدود. ماذا سيحدث لو فقد السيطرة على الأطفال ولم يكن هناك أحد ليوقفه؟

تحققت مرة أخرى للتأكد من عدم وجود أحد قبل أن أبلغ مارجو بسرعة بما حدث الليلة الماضية.

- اعتقدتُ أنه سوف يخنقها.

همستُ من زاوية فمي، وأبقيت عيني مستقيمة للأمام. قبَّلت مارجو بشكل غريزي قمة رأس زيد.

- ماذا سيفعل عندما لا يستطيع تهدئتهما؟

- ماذا بشأن ما تحدثنا عنه قبلًا؟

- المغادرة؟

أومأتُ برأسي ونظرت خلفنا مرة أخرى.

- لن أتمكن من فعلها أبدًا. أفقد الكثير من الدماء في كل مرة أمشي فيها.

كانت يداها لا تزالان مدفونتين في فقاعات الصابون في أثناء غسل الأطباق. وضعنا لأداء واجبات غسل الأطباق الخفيفة حتى إشعار آخر.

- ما زلتِ تنزفين هكذا؟

- نعم، وأنا خائفة. مر أسبوع. هذا وقت طويل. في بعض الأحيان أشعر وكأنني سأفقد الوعي بمجرد الوقوف.

خفضت صوتها أكثر: «أعتقد أنني سأموت هنا».

همستُ: «لا تقولي ذلك! لا يمكنك التحدث بهذه الطريقة».

- لا بأس. لقد قبلتُ ذلك.

قالتها وقد افتقر صوتها إلى أي نبرة مقاومة: «طفلي سيموت هنا وكذلك سأفعل أنا».

- توقفي عن ذلك.

أخرجت يديها من الماء وجففتهما بالمنشفة: «طفلك لن يموت، ولا أنت».

دارت عيناها ببطء وهي تحاول التركيز عليَّ.

- أنقذي طفلتك يا كيت.

أشرت إلى جذع الشجرة خلفها.

- اجلسي. تحتاجين إلى شرب الماء. أنت تعانين الجفاف.

بدأتْ بالضحك، ولكن في غضون ثوانٍ تحول ضحكها إلى البكاء. أمسكتُ بالمياه ورفعتُها إلى شفتيها وأنا أحثها: «اشربي هذا».

أخذتْ رشفة وهي تقول: «ما زلت أحبه، هل تعلمين هذا؟ حتى بعد كل ما حدث، حتى بعد مضي كل هذا الوقت».

افترضتُ أنها تتحدث عن آبنر، لأنني شاركت في الصراع ذاته، لكنني تابعت عينيها إلى منطقة التجمع ووجدتهما مثبتتين على ويل.

***

أربعون

آبي

الآن

- كيف تجري الأمور؟

واصل أبي إرسال رسائل نصية لي دون توقف تقريبًا منذ أن أوصلنا. وسرعان ما رددت، وأخبرته أنني سأستحم، لذا فعلى الأقل سيتوقف عن الإرسال مؤقتًا حتى أنتهي من حمامي. أقمنا في فندق يدعى «الإقامة المطولة-أمريكا». أحد تلك الفنادق التي تستطيع حجزها شهريًّا. لذلك بدت أقرب إلى شقة صغيرة منها إلى غرفة فندق، بل وكانت أجمل من الشقق التي رأيناها. فُرشت الغرفة بفراش كبير وأريكة قابلة للطي. عرضت أمي النوم على الأريكة على الفور.

كانت لا تزال تبدو متوترة على الرغم من مرور أكثر من ساعتين منذ وصولنا. نامت شايلو منذ ثلاثين دقيقة، لكن أمي بقيت متوترة جدًّا بحيث لم تتمكن من الجلوس. قالت وهي تتجول في غرفة الفندق وهي تضغط يديها معًا: «أنا آسفة جدًّا على كل هذا».

- من فضلك توقفي عن قول ذلك.

ظلت تعتذر مرارًا وتكرارًا، لكن لم يكن خطؤها أن ميريدث أصيبت بالذعر حتى صارت تتجسس على الجميع. لم يتوقع أحد أنها ستتصرف

بهذه الطريقة. لم أخبرها أن ميريدث غادرت الليلة أيضًا. شعرت بالسوء حقًّا حينها، ولم يكن من الممكن أن أعرِّضها لهذا. علاوة على ذلك، رأيت احتمال أن تعود ميريدث إلى المنزل في الصباح. غادرتْه مرة سابقة عندما دخلت في شجار. أعتقد أنها قضت الليلة في منزل كايلب، أو ربما في منزل ثاد. على أية حال، عادت بحلول موعد الغداء في اليوم التالي.

- هل أنت متأكدة من أنني لا أستطيع أن أعد لك أي حساء أو شاي؟

تمشينا إلى متجر «سيفن إليفن» عند الزاوية للحصول على بعض المؤنة. ودفعت بالكارت البنكي الخاص بي. أعطاني أبي الإذن باستخدامه كما أريد. لم يمنحني مطلقًا الحرية في فعل هذا من قبل. أجابتني رغم أنها بالكاد تناولت الطعام طوال اليوم: «أنا بخير. أنا لست جائعة حقًّا».

تذكرت أنها اعتادت قضاء أيام دون طعام، وربما لم يكن هذا شيئًا بالنسبة إليها. ربما صامت عمدًا. همستْ بالصلوات وهي تدور في الحجرة، وبصورة غريبة كان لهذا تأثير مهدئ عليَّ، ولم يمض وقت طويل قبل أن يثقل جفني بسبب الإرهاق.

كيف لا تزال واقفة؟ ناهيك بالتجول؟ خلعتُ حذائي وسقطتُ على السرير. كان الفراش صلبًا، وشعرت بالوسادة تخدش خدي، لكنني لم أهتم. كان هذا هو مقدار التعب الذي عانيته. لم أعتد النوم في أي مكان غريب، لكنني نمت قبل أن تتاح لي الفرصة لأقول ليلة سعيدة.

***

كيت

في الماضي

دق قلبي، محدثًا طنينًا في أذني، وضغط الظلام عليَّ. صرخ جسدي فيَّ لأركض، وبينما ارتجف أجبرت نفسي على البقاء ساكنة أنتظر. أين مارجو؟ كان هذا هو المكان المتفق عليه. راجعنا الخطة عشر مرات على الأقل. اتبعي طريق الغزلان إلى الشجرة التي نُزِع لحاؤها بالكامل. بالكاد أقنعت آبنر بالسماح لي بالنوم وحدي الليلة. لم يضيِّع أي وقت في محاولة إنشاء الجندي التالي وخطط لحملي مرة أخرى بحلول الوقت الذي غادر فيه مع شايلو. تظاهرت بأنني مصابة بالتهاب في معدتي الليلة، وحتى حينها، ظل عازمًا على البقاء في خيمتي. التقيؤ هو ما أجبره أخيرًا على تركي وشأني والذهاب لاختيار شخص آخر.

بحثت عنها بين أشجار الغابة، مرعوبة من أن ينادي صوته باسمي في أي لحظة، ويستدعيني إليه مرة أخرى. لِم استغرقتْ وقتًا طويلًا؟ اعتمدنا على المناقشات المطولة التي خاضها آبنر بعد جلسات ممارسة الحب، لمنحنا تقدمًا كافيًا قبل أن يدرك أي شخص أننا رحلنا، لكن النقاشات لم تستمر إلى الأبد.

أصدر غصن قرقعة خلفي. استدرت لأرى مارجو تسرع عبر الأشجار. ضغطتْ زيد بإحكام إلى صدرها، وأمسكتْ بطنها بذراعها الأخرى وهي تتحرك. ركضتُ نحوها وعانقتُها كما لو أن سنوات مرت منذ أن رأينا بعضنا بعضًا.

- شكرًا لله. شعرتُ بتوتر شديد، وتضخيم هذا المكان لكل صوت زاد الأمر سوءًا.

وضعتُ ذراعي حول خصرها وحاولتُ مساعدتها على المشي.

- هيا، علينا أن نسرع.

حاولتُ سحبها معي، لكنها لم تتحرك، وقفت ساكنة.

- لا يا مارجو، لا. لا.

حجبت الغيوم ضوء القمر، محاصرةً خيوطه الفضية حتى استحال عليها اختراق الأشجار الكثيفة فوقنا، أصبح الليل حالكًا تقريبًا. لكنني لم أكن بحاجة إلى رؤية وجهها لأعرف أنها كانت تبكي.

- لا أستطيع تركه. أنا فقط لا أستطيع فعلها.

مدت يدها بطفلها زيد لي: «خذيه».

- لن آخذه. هذا كلام سخيف. أنت خائفة فقط، ولكن لدينا بعضنا بعضًا. يمكننا أن نفعل ذلك معًا. أنا خائفة أيضًا. هيا، علينا الذهاب.

بقيتْ متسمرة مكانها. أمسكتُ بها ودفعتُها إلى الأمام. ستصير ممتنة بمجرد رحيلنا. دفعتني للخلف وصرخت: «ابتعدي عني!».

تجمدنا في أماكننا. وضعت يدها على فمها وهي تتراجع مرعوبة: «يا إلهي، أنا آسفة جدًّا. أنا آسفة جدًّا».

حاولتْ تسليم زيد لي مرة أخرى، لكنني حركت رأسي نفيًا. كلتانا عرفت أنها في عداد الأموات إذا عادت من دونه. تدفقت الدموع على خدي: «لا أستطيع أن أتخلى عنكِ».

- اذهبي، عليكِ فعلها.

اهتز صوتها: «اركضي».

بكيتُ: «تعالي معي، رجاءً. لا أستطيع أن أفعل هذا وحدي».

- سيأتون في أي لحظة. عليك الذهاب الآن. لا يمكنك الانتظار.

أخذتْ خطوة إلى الوراء، مستعدة للانطلاق.

- تذكري ما يقوله آبنر دائمًا: عندما ترحلين، لا تنظري إلى الوراء. اذهبي يا كيت.

ارتجفتُ بالبكاء: «مارجو، لا».

لكنها أدارت ظهرها بالفعل وبدأت في الركض إلى المخيم. للحظة، كدت أتبعها، لكن أنفاس شايلو على صدري أعطتني الشجاعة التي كنت بحاجة إليها للالتفات والركض في الظلام.

***

واحد وأربعون

آبي

الآن

استيقظت مذهولة إثر يد وُضعت على فمي. توتر جسدي كله، وفوقي، رأيت وجه أمي يحوم. وضعت إصبعها على شفتيها وطلبت مني النهوض من السرير. بدأت الغرفة تعود لتتشكل حولي عندما تأقلمت عيناي ببطء مع الظلام. حملتْ شايلو في لفافة ضيقة على صدرها وهدهدتها بصبر نافد وهي تنزع الأغطية عني، ماذا حدث؟ لِم نلتزم الهدوء. تكلمتْ حين نهضتُ متعثرة لأبحث عن ثيابي على الأرض.

- بسرعة، علينا أن نسرع.

- إلى أين نحن ذاهبتان؟

هزت رأسها بشكل محموم وأشارت إلى حذاء نايكي خاصتي أمام باب الحمام. ارتديت الجينز والقميص الذي ارتديته سابقًا وبينما ركعت لأنتعل حذائي ألقيت نظرة خاطفة من النافذة الأمامية. بدأتُ بوضع الأشياء في حقيبتي، لكنها أمسكت بي وسحبتني إلى قدمي، وهي تهمس في أذني: «ليس هناك وقت».

ضغطتْ وجهها على العين السحرية بالباب، قبل أن تفتحه وتخرج إلى الفناء. أمسكتْ بذراعي وأسرعت بنا عبر الممر الأسمنتي، دون أن ترفع عينيها

عن موقف السيارات تحتنا. انعطفت عند الزاوية بجوار ماكينة صنع الثلج، حيث قادت السلالم إلى الطابق الأرضي. بمجرد وصولنا إلى السلالم قلت: «أمي، ما الذي يحدث؟ أنتِ تثيرين رعبي».

حفرت أظفارها علامات في جلدي، وتصرفتْ وكأنها لا تسمعني. هل كانت تعاني إحدى نوبات ما بعد الصدمة أو أيًّا كان ما يسمونها؟ وصلنا إلى موقف السيارات وانطلقنا عبر طوابير السيارات حتى وصلنا إلى الشارع. أمسكتْ بي لأتوقف. نظرتْ خلسة في كل اتجاه.

- إلى أين نحن ذاهبات؟

قالت بأنفاس متقطعة: «سأشرح كل شيء بمجرد وصولنا إلى هناك».

- أحتاج إلى الاتصال بأبي.

بحثت في جيبي عن هاتفي. أين كان؟ نظرتْ أمي خلفنا، ثم انطلقتْ مسرعة على الجانب الأيسر من الشارع. توقفتْ بمجرد أن رأت أنني لم أتحرك من مكاني على الرصيف وأسرعتْ تعبره آمرة: «آبي، علينا أن نذهب. تعالي».

كان هناك خطأ ما في وجهها. لماذا بدت غريبة هكذا؟

- لا أستطيع العثور على هاتفي.

حاولتُ إبعاد الهستيريا عن صوتي. كان عليَّ أن أتصل بأبي. سيعرف ماذا يفعل.

- ليس لدينا وقت.

أمسكتْ بذراعي مرة أخرى وسحبتْني إلى الأمام معها. خرج رأس شايلو من لفافتها، وأطلقت عويلًا. وضعت أمي يدها على فمها.

- ششش، ابقي هادئة.

لا بد أنها فقدت عقلها، لا أحد يستطيع سماعنا. وصلنا إلى الشارع، فبدأتْ في الركض، وبينما أمسكتْ بيدي ونحن نمضي على الرصيف، انعطفت شاحنة سوداء عبر الزاوية مسرعة نحونا. توقفتْ أمامنا وتجمدنا. فُتحت الأبواب الأمامية، وقفز رجلان من الكابينة. ملأ الرعب أحشائي وهما يتحركان

نحونا. وضعت أمي ذراعها حول خصري، وقبضت عليَّ بقوة. أطلقتُ أنينًا: «أمي؟».

- الرب معنا، لا تخافي.

في غضون ثوانٍ كانوا حولنا. أطلقتُ صرخة مروعة عندما أمسكني أحدهم من معصمي ولف ذراعي خلف ظهري، فهسهس على بعد سنتيمترات من وجهي: «اصمتي يا فتاة».

عيناه وحشيتان، الأوساخ تغطي وجهه، شعره كثيف وأشعث وجلده تغطيه البقع والقشور في أجزاء منه. صرخت من جديد: «ساعدوني، فليساعدني أحد!».

لطمت يده وجهي وأغلقت فمي. انفجرت نبضات قلبي صارخة في أذني. دفعته بعيدًا وانطلقت مسرعة برعب أعمى، أصرخ بعنف. دفعني من الخلف لأسقط على الأرض الخرسانية. ضربته، عضضته، خدشت وجهه محاوِلة وضع أصابعي في عينيه، محاولةً ركله بين ساقيه، لكن دون فائدة، كان قويًّا للغاية. حذرني: «اصرخي مرة أخرى وسأوذيك».

خرجت أنفاسه ملتهبة على رقبتي. رائحته مثل الجبن الفاسد. حاربت الرغبة في الركض مرة أخرى. ارتجف جسدي كله وأنا أتوسل: «من فضلك ماذا تريد؟ قل لي ماذا تريد».

بكيت وتجاهلني. سحب ذراعي خلفي محدثًا جرحًا حادًّا في معصميَّ وهو يربطهما معًا. عمل في صمت.

- من فضلك دعنا نذهب. من فضلك لا تؤذِنا.

بماذا نصحونا في الصف؟ مناشدة إنسانيتهم. اجعل نفسك إنسانًا لو عجزت عن إجبار نفسك على أن تصير مثيرًا للاشمئزاز. رفعني وكأنني لم أزن شيئًا وأدارني.

- هل عندكَ أطفال؟

انسالت حبات العرق من أسفل ذقنه، تجاهلني وسحبني نحو أمي. وضع شريكه ذراعه حول خصرها، يهمس بشيء في أذنها، يلمسها. أغلقت عينيَّ؛ لم أرغب في النظر، لا أستطيع. توسلتُ، أضغط قدميَّ على الأرض وهو يسحبني.

- ابتعد أرجوك، اتركنا وشأننا.

استدار الرجل الذي وقف مع أمي، غطت طبقة قذرة من الشعر وجهه.

- أسرع، هيا بسرعة أكبر.

نظر إليَّ بعينين زرقاوين ثاقبتين.

لماذا لم تركض؟ كيف كانت واقفة هناك؟ وبعد ذلك لاحظتُه. المسدس على جانبه. أحاط بي الاثنان. دفعني آسري نحو الرجل الرث، وأمسك بي، حفرت أظفاره علامات في ذراعي. تركتُ جسدي يرتخي، لم أستطع رفع عيني عن مسدسه. ثم فتح الرجل ذو اللحية السوداء الباب الخلفي للشاحنة.

- من فضلك يا الله، لا، من فضلك.

بكيت بشدة حتى إنني بالكاد استطعت التحدث بينما دفعوني إلى الداخل. لم يعيروني أي اهتمام. بينما وضع أحدهم شريطًا لاصقًا على فمي، لف الآخر كاحليَّ معًا. الخوف شلني تمامًا. بحثت عيناي عن أمي، تسللتْ ببطء تقترب منهما وتسارعت ضربات قلبي في صدري. أجبرت نفسي على البقاء ساكنة والتظاهر وكأنني لم أرَها. بماذا ستضربهما؟ كانت قريبة جدًّا. خلفهما مباشرة. كل عضلة في جسدي توترت.

انضمت إليهما، وبدا وكأن العالم يتحرك ببطء عندما حلت لفافة شايلو وسلمتها للرجل على اليسار، ذلك الذي حمل المسدس. في تلك اللحظة توقف عقلي، عرفتهما، عرفتهما حقًّا. لِحى طويلة غير مشذبة، قمصان باللون البيج، سراويل كاكية، ثياب متسخة ومهترئة. أضاءت عينا أمي ورأت أنني أدركت ما يحدث. لم ترمش حتى حين مدت يدها وأغلقت باب الشاحنة، لأصير سجينة في الداخل.

صرخت: «لا!» بقوة خلف الشريط اللاصق على فمي، شاعرة وكأن عينيَّ ستنفجران إلى خارج مقلتيَّ.

قالت أمي: «أسرع، علينا التحرك يا آبنر».

تجمدت في مكاني، الصوت، ذلك الصوت ذاته الذي تحدثتْ به في مقطعَي الفيديو المنزلي الخاصين بها.

- أخبرتك أنني أستطيع فعلها. جعلت الرب فخورًا. أنت تعلم أنني فعلت.

ضحك: «اشتقت لك يا حبي».

لم أتمكن من فهم ما قالته بعدها، همساتهما المكتومة تحركت في طريقها إلى مقدمة الشاحنة. فُتحت الأبواب ثم أُغلقت. تحركت الشاحنة إلى الأمام. حاولت الإمساك بشيء ما، أي شيء لأثبِّت نفسي، لكن لم يكن هناك شيء. جُرِّد الجزء الخلفي تمامًا. سقطت على الأرض واصطدمت بالحائط، وتكومت على هيئة كرة. قطعت الأربطة جروحًا في معصمي. خفق رأسي. إلى أين يأخذونني؟ لطمني إدراك أنها أحضرتني إليهم عمدًا مرارًا وتكرارًا وانعقدت معدتي أكثر. ارتجفت بشدة حتى اصطكت أسناني. خيانتها آلمتني كثيرًا حتى إنني عجزت عن البكاء. لِم يفعلون هذا بي؟

توقفت الشاحنة بقوة. مما دفعني إلى الطيران إلى الجانب الآخر من السيارة. لطمتُ رأسي بالمعدن. وضربتْ موجات من الذعر عمودي الفقري. شعرت ببلل بين ساقيَّ وكأنني تبولت على نفسي. هل تبولت حقًا؟ حاولت الصراخ لكن صوتي لم يخرج. تدفقت الدموع من زوايا عينيَّ. تحركت الشاحنة للأمام مرة أخرى. ثم توقفت. غمرني الدوار. صرخت الإطارات على الأسفلت. ثم توقفت. ليشق صوت رجل الهواء: «توقفوا! هنا الشرطة!».

صرخات في المقدمة، كحيوانات ذبيحة. هل هذا صوت أمي؟ هل أذاها؟ انطلقت بسرعة وألقيت بنفسي على الجدار الخلفي، وضربت قدمي المربوطة به. حاولت الصراخ: «ابتعد عنها!».

لكن الكلمات كُتمت خلف الشريط الذي غطى فمي. ركلت الجدار مرة أخيرة قبل أن أعود إلى الزاوية. الشرطة لن تؤذيها، أليس كذلك؟

المزيد من الصراخ. الكثير من الصراخ. انطلقت طلقة نارية. تجمدت أحشائي. اعتراني الذعر حتى لم أعد قادرة على التنفس. نقرات على الباب ثم

فُتح، ليطل وجه دين. أسرع إلى داخل الشاحنة، ركع أمامي وأزال الشريط بعناية عن فمي.

- هل أنتِ بخير؟

أردت التحدث، لكن كل الأصوات ظلت عالقة بداخلي.

كرر: «هل تأذيتِ؟».

حدق إلى وجهي، وجهه على بعد سنتيمترين. ولم ينتظر الرد. حل قيودي بسرعة قبل أن يرفعني عن الأرض ويحملني وكأنني لم أزن شيئًا. تشبثت به ودفنت وجهي في صدره. حملني عبر الشاحنة، وداس فوق البطانيات المنتشرة على الأرض، لنخرج وسط الضجة. كانت الأضواء الساطعة في كل مكان. زأرت المروحية فوقنا مثيرة طنينًا في أذني. بحثت عيني عن أمي.

- أغمضي عينيك.

صاح دين: «فقط أغمضي عينيك وتمسكي بي».

بعد فوات الأوان. رأيت الجثة المغطاة ببطانية وسط الطريق: «هل هذه...».

لم أستطع إنهاء الجملة لكن دين قال: «ليست والدتك».

أغمضت عينيَّ وأنا أرتجف بالبكاء بين ذراعيه. لم أفتحهما حتى وصلنا إلى سيارة الإسعاف. التف الطاقم الطبي حولي. كانت هناك الكثير من الأضواء. لماذا هناك الكثير من الأضواء؟ ولِم كل شيء شديد السطوع. شعرت وكأنني سأتقيأ. فات الأوان. بتلك السرعة تقيأت، ونُظف وجهي. تطلعت امرأة في وجهي.

- آبي، أنتِ آمنة الآن، سيلاقيك والداك في المستشفى. حسنًا؟ هل تفهمين؟

أدرت رأسي بعيدًا، الحركة ترسل سيلًا من آلام حادة أسفل رقبتي. تحرك المشهد أمامي، ذائبًا في أنوار دافئة مشعة.

أمي، أين هي؟

أغمضت عينيَّ مرة أخرى حتى يتوقف العالم عن الدوران.

***

اثنان وأربعون

ميريدث

الآن

جلست، أفرك عيني لأزيل آثار النعاس منها، منتبهة فورًا.

- سكوت تحدث بصورة أبطأ، عمَّ تتحدث؟ لا أفهم.

وضعت هاتفي على أذني الأخرى، ووضعت نظارتي حتى أتمكن من الرؤية في الظلام.

- أنا هنا، لكني لا أفهم كلمة مما تقوله. عليك أن تبطئ.

تلعثم: «حاولوا اختطاف أبي. يا إلهي. لا أستطيع حتى أن أصدق هذا. كيف يمكنني أن أكون بمثل هذا الغباء؟».

نبهته: «هل تقود؟ يبدو أنك تقود. لماذا لا تتوقف وتتحدث معي؟».

أضأت المصباح الجانبي فوق المنضدة.

- لا أستطيع التوقف. لا بد لي من التوجه إلى المستشفى. كيف لم أرَ هذا؟ كنتِ على حق يا ميريدث. كنت دائمًا على حق.

- عن ماذا تتحدث؟ كلامك لا يحمل أي معنى...

- نعم، يا إلهي، لا أستطيع أن أصدق هذا...

- سكوت، ركز. إما ذلك وإما توقف، لأنه لا يمكنك القيادة كرجل مجنون، وإلا سيتأذى شخص ما.

ارتديت سترة رمادية وبحثت عن المكان الذي ألقيت فيه سروالي الرياضي قبل النوم الليلة الماضية، وأنا أحث سكوت: «احكِ لي ما حدث، خطوة بخطوة، سيساعدك ذلك على الهدوء».

- واصلت إرسال الرسائل النصية إلى آبي بعد مغادرتك، لكنها توقفت عن الرد بعد فترة. ربما لأنني أزعجها. على أية حال، غفوت وأنا أشاهد التلفاز، وأيقظني هاتفي. عرفت أن الأمر سيئ بمجرد أن رأيت أن دين هو المتصل. قفزت عن الأريكة، وقلت له أخبرني ما يحدث. وقال إنه لا يستطيع التحدث عن الأمر عبر الهاتف، لكن آبي في المستشفى، وكيت محتجَزة في مركز الشرطة بسبب عملية اختطاف. واصل الحديث عن ظهور راي وأحد رجاله بالقرب من الفندق الذي أقامت فيه الفتيات وكيف أمسكا بهن. قيَّدوا آبي وألقوا بها في مؤخرة شاحنة. ظل يقول «هم» واستغرق الأمر مني بعض الوقت لأدرك أنه قصد كيت أيضًا، كيت تورطت في هذا.

توقفت في مكاني: «انتظر؟ ماذا تقول؟ إنها ساعدت في اختطاف آبي؟».

- نعم.

صوته متقطع، مُحمل بالأسى: «كيف استطعت أن أكون غبيًّا هكذا؟ كان يجب أن أستمع لكِ».

- هل كانت على اتصال به طوال هذا الوقت؟ هل نحن واثقون أننا في أمان؟

قفز قلبي بينما أحاول الامتناع عن الركض. بحثت عن سيارتي في موقف سيارات الفندق غير المألوف. لوحت بالمفاتيح، منصتة إلى صوت الصفارة.

- ليست لدي أي فكرة. استمرت محادثتنا لمدة دقيقتين. أنا لا أمزح. وقال إنه سيزودني بالتفاصيل بمجرد وصولي إلى المستشفى.

لم يخِف الاختناق في صوته، لا يزال في نوبة انهيار: «أنا بحاجة إليك هناك. عليكِ أن تقابليني هناك. لا أستطيع أن أفعل هذا من دونك».

أدخلت مفتاحي في القفل.

- أنا في الطريق.

بغض النظر عما حدث، هما ما زالا عائلتي، وستحتاج إليَّ آبي بقدر ما تحتاج إليه الآن. كانت أصغر من أن تشعر بالدمار الذي خلَّفه رحيل والدتها قبلًا، لكنها بالتأكيد ستشعر بتوابع هذه الضربة. وستحتاج إلى المساعدة لتجاوز توابع ما حدث، حتى ولو لم تعرف هذا بعد.

***

اندفع سكوت عبر ممر المستشفى عندما رآني. ملابسه مجعدة ومهلهلة، ينتعل فردتَي حذاءَي تنس مختلفتين، إحداهما زرقاء والأخرى سوداء. عيناه حمراوان، باكيتان، انحنى وقبَّلني على وجنتي: «لا أستطيع أن أصدق أنني تركت هذا يحدث».

ما زال يكافح للسيطرة على عواطفه.

- أنت لم تدع هذا يحدث.

فتحت ذراعي، فسقط بينهما، لكن جسده ظل متصلبًا، متصلبًا من القلق والحزن. فركت ظهره بحركة دائرية، على أمل أن يساعده ذلك على الهدوء.

- أين هي؟

ابتعدَ: «لم تعد بعد، أخذوها ليفحصوها بالأشعة المقطعية».

اغرورقت عيناه بالدموع: «كيف لم أرَ هذا؟».

سيسأل نفسه السؤال ذاته لفترة طويلة. لم يكن لدينا الوقت لنوبة الذنب تلك الآن.

- ما مدى الضرر الذي تعرضتْ له؟

علا صوته: «تضررت بشدة، يبدو أنها قاومت بشراسة».

أصر دين على أن تأخذ آبي دروسًا في الدفاع عن النفس عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها. وقد أحببتُ ذلك.

- وكيت؟

تصلب جسده كله.

- إنها بخير. في زنزانة في الوقت الراهن. ولم يلمسوها.

- أنا لا أفهم أيًّا من هذا. كيف عرفوا أين كانوا؟ من كان متورطًا؟

عندها فُتحت الأبواب المزدوجة، وأطل دين عبرها. هرعنا أنا وسكوت إليه محاولين عدم الحديث في وقت واحد ونحن نغمره بالأسئلة. رفع يده وأشار إلى الكراسي في الردهة: «لماذا لا تجلسان حتى نتمكن من الحديث؟».

هز سكوت رأسه، فبقيت واقفة بجانبه. قال: «فقط أخبرني ما حدث، كل شيء».

أومأ دين عدة مرات: «بالتأكيد».

ثم تابع: «تركنا أجهزة مراقبة خطوط الهاتف حتى بعد إزالة معدات المراقبة، فقط في حالة قرر شخص ما من منظمة الحب الدولي التواصل مع كيت».

صمت لحظة قبل أن يقول: «لم نتوقع قط أن تبادر هي بالاتصال. كنا في حالة من الصدمة حين تواصلت معهم للمرة الأولى».

أوقفتُه: «اعتقدت أنهم يعيشون كمنبوذين على أطراف الحضارة، كيف حصلوا على هواتف؟ ناهيك بالوجود في مكان به تغطية؟».

- نحن لا نعرف شيئًا عن أيٍّ من الآخرين، لكن راي كان في سان فرانسيسكو، وهو من تحدثت كيت معه.

توقف دين مؤقتًا وأخذ نفسًا عميقًا قبل المتابعة. الهالات أسفل عينيه وشت بأنه بقي مستيقظًا لعدة أيام.

- هناك بعض الأشياء التي تحتاج إلى معرفتها عن راي. أولًا، هو أيضًا من تشير إليه كيت باسم آبنر. اعتقدنا دائمًا في نظرية أن آبنر نوع من

الكيانات الإلهية التي آمنوا بها كجزء من لاهوتهم المزيف. فكرنا في وقت مبكر أنه ربما شخص من لحم ودم، لكننا استبعدنا هذا الاحتمال بسرعة، بسبب الطريقة التي تحدثت عنه بها، ظنناه إلههم في الأساس.

سعل دين بضيق: «اتضح أنه إلههم بالفعل، بطريقة ما، لكن ليس كما تخيلناه. تقول كيت إنه والد شايلو. أجرينا فحصًا للحمض النووي بسرعة، لكن ليس لديها سبب للكذب بشأن ذلك، لذا أعتقد أن بوسعنا افتراض أنه والدها، أيضًا أعتقد أنك يجب أن تعلم أنها أشارت إلى نفسها على أنها زوجته منذ أن قُبض عليها...».

شعرت بسكوت يغالب شهيقًا حادًّا جواري. ساورني الشك دائمًا في أن راي هو والد شايلو، ألم يفعل سكوت أيضًا؟ افترضت دائمًا أن هذا هو السبب الذي دفعنا لتجنب الحديث عنه. كل شيء كان غريبًا بما يكفي دون إضافة الحديث عن راي إلى المعادلة. سأل ووجهه أبيض كالشمع: «هل هذا هو سبب عودتها إلى المنزل؟ لتأخذ آبي إليه؟».

وضعتُ يدي على ذراعه: «دعنا نحاول الجلوس، حسنًا؟».

قدته إلى الكراسي التي اقترحها دين سابقًا، فجلس على مضض في المقعد المجاور لي. دسست حقيبتي تحت قدمي. استند دين إلى جدار الردهة وعقد ذراعيه على صدره.

- هناك شيء ما أخاف كيت بما يكفي لترك منظمة الحب الدولي. كان رعبها في البداية حقيقيًّا، لذا لا بد أن أيًّا كان ما أثاره سيئ للغاية. ولكن هذا هو الحال مع ضحايا العنف المنزلي، الخوف لا يبقيهم بعيدًا أبدًا. يعودون في النهاية. هي التي أجرت الاتصال الأول، وتغير صوتها بمجرد سماع صوته. أصبحت تحت تأثير تعويذته على الفور تقريبًا، وتحدثت بهذه النبرة الخاضعة الغريبة التي لم أسمعها تستخدمها من قبل. وبحلول نهاية مكالمتهما الهاتفية الأولى، بدأت تتوسل إليه أن تعود. في البداية، رفض إعادتها. و...

قاطعه سكوت: «لماذا اتصلت به بالأساس؟ هل أفصحتْ عن هذا قط؟».

- نعم، لكنني لا أريد أن يخبر أيٌّ منكما آبي أبدًا ما سأقوله لك.

حملت عيناه نظرة جادة. تبادلت أنا وسكوت نظرة خاطفة قبل الإيماء باتفاقنا. ما الذي سيخبرنا إياه ولا يمكننا مشاركته مع آبي؟

- تفحصت كلٌّ من آبي وكيت صور راي على وسائل التواصل الاجتماعي معًا ليلًا. غاب ذهنها بمجرد رؤية صورته، بدرجة كافية لتتواصل معه. ثم بمجرد أن سمعت صوته، صار الأمر محسومًا.

طلبنا من آبي مرات عديدة أن تبتعد عن وسائل التواصل الاجتماعي بشأن هذه القضية، لكن كيف يمكن أن أغضب منها وأنا فعلت الشيء نفسه؟ لم يكن من الممكن أن تتوقع آبي أن كيت ستثار بهذا الشكل بسبب هذه البادرة البسيطة، ودعوت ألا تفكر في ذلك الاستنتاج أبدًا، لأجل خاطرها.

سأل سكوت: «لأنها رأت صورة؟ هذا كل ما تطلبه الأمر؟».

لم أستطع معرفة ما إذا شعر بالاشمئزاز أو بالأذى. ربما مزيج من الاثنين معًا.

أوضح دين: «الأمور ليست بهذه البساطة. عليك أن تفكر فيها كضحية للعنف المنزلي. معظم النساء لا يتركن المعتدين عليهن أبدًا، وإذا فعلن، فسيستغرق الأمر منهن سبع محاولات في المتوسط قبل أن ينجحن».

لم يبدُ سكوت مقتنعًا، وشاركتُه في شكوكه. لم تستطع ترك المعتدي عليها، لكن هل تستطيع التخطيط لاختطاف ابنتها؟

- إذًا ماذا حدث؟

- أرادت العودة، لكنه رفض استعادتها. خانته بالرحيل، لكن كيت ظلت تتوسل إليه ليغفر لها وتقول إنها على استعداد لفعل أي شيء. وفي تلك اللحظة تحول كل شيء. بدأ يداعبها، ويطلب منها أن تفعل أشياء صغيرة لتثبت ولاءها له، وفعلتها.

قاطع سكوت مرة أخرى: «أي نوع من الأشياء؟».

للحظة وجيزة، اصطبغت تعبيرات دين بالإحراج قبل أن يمحوها بسرعة: «أشياء ذات طبيعة جنسية وأخرى ذات طبيعة عقابية. غطت ساقها الجروح

التي أحدثتها بنفسها، كنوع من التكفير. ستريها لك لو أنك سألتها، هي فخورة بها جدًّا».

أمسك سكوت بجانبَي كرسيه. وشعرت بالامتنان لأننا جالسان. بدا محطمًا بالكيفية ذاتها تقريبًا، كما كان في اليوم الذي اكتشفنا فيه عودتها.

- استمرت كيت في ابتكار طرق لإثبات ولائها، وفي النهاية اتفقوا على أن بوسعها العودة، بشرط أن تحضر آبي معها. نحنـــ...

- لماذا سمحت لهم باختطافها؟

قاطعه سكوت: «إذا كنت تعلم أن هذا ما سيفعلونه، فلماذا سمحت لهم بالاستمرار في خطتهم؟».

حان دور دين ليبدو غير مرتاح، تبدلت طريقة وقفته: «علمنا أن هذه القضية ضخمة بمجرد اكتشافنا أنها انضمت إلى منظمة الحب الدولي. أول ما فعلناه كان التحقيق في أي شكاوى أو اتهامات سابقة ضدهم، ولم يكن علينا أن ننظر بعيدًا. ظهرت الحالات في كل مكان، وبخاصة حالة فتاة تبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا تدعى ويلو. اشتبه والداها دائمًا في أن اختفاءها له علاقة بمنظمة الحب الدولي، ولم يتوقفا عن البحث عنها. ساعدانا في تحقيقنا».

سعل مرتين وتابع: «النقطة المثيرة للاهتمام في أشخاص مثل راي هو أنهم يعتقدون أنهم أكثر ذكاءً من أي شخص آخر وفوق القانون، لذا كانت محادثاتهم عبارة عن مناجم ذهب للمعلومات، لأنهم لم يتوقعوا قط أن أحدًا تنصت عليهم. لم يمضِ وقت طويل قبل أن نضع كل النقاط فوق الحروف. ولسوء الحظ، أدت النقاط إلى ثلاث جثث في ولاية أوريغون عثرت عليها فرقنا، مدفونين في قبور لا تحمل علامات مميزة».

ضيَّق سكوت عينيه لتصيرا شقوقًا: «هذا لم يجِب عن سؤالي. لماذا سمحتم لهم باختطاف آبي؟».

- كنا بحاجة إلى توجيه تهم الاختطاف إليهم حتى يكون لدينا شيء يمكن الإمساك به ضدهم. نأمل أن ينقلب أحدهما على الآخر، لكننا كنا

بحاجة إلى احتجازهما لفترة كافية لبناء قضيتنا ضدهما. وهذه القضية ستكون ضخمة. صدقني يا سكوت، الكثير من العائلات ستحصل على إجابات بمجرد قول وفعل كل هذا.

قفز سكوت من كرسيه وأشار بإصبعه إلى دين: «استخدمتها كطعم! هذا ما تقوله، أليس كذلك؟ كيف استطعت فعل هذا؟».

رفع دين يديه مستسلمًا: «من فضلك، سكوت. أنا آسف، ولكن فقط استمع لي. راقبنا كل خطوة بعناية، وصدقني يا سكوت، لم أكن لأفعل ذلك لو أن هناك طريقة أخرى».

- كل خطوة مراقَبة بعناية؟

صرخ سكوت: «سمعت للتو في الأخبار قبل وصول ميريدث إلى هنا أن شخصًا مات في مكان الحادث».

قفزت بجواره: «ماذا؟».

أردت أن أضرب دين أيضًا.

- اهدأ من فضلك. اهدأ. نحن نفعل أشياء مثل هذه طوال الوقت. وهذا ما تدربنا على القيام به.

لم أهتم بعدد المرات التي فعل فيها هذا. نحن نتحدث عن آبي.

- أطلق ويل، شريك راي، النار على ضباط الشرطة، ولم يكن أمامهم خيار سوى استخدام القوة لحماية أنفسهم.

وكأن كلام دين يبرِّر سلوكه. تفوه سكوت بالسؤال ذاته الذي فكرتُ فيه: «ولو أنه اختار إطلاق النار على آبي عوضًا عن ذلك؟».

لم يرُد دين. لم أرَه عاجزًا عن الكلام من قبل. لا يسعني إلا أن أتساءل عما عرفته آبي من بين كل هذا.

- هل يمكننا رؤية آبي الآن؟

- قالت آبي إن كيت هي التي حبستها داخل الشاحنة. سمعتْهم يتحدثون بينما هي في الداخل عن مدى افتقادهما لبعضهما بعضًا ومدى فخر الرب بهما. هذا مُمرِض.

مددت يدي وأمسكت بيده: «إنها موهومة يا سكوت. وهذا ما لم تفهمه قط. أنا متأكدة من أنها كانت إنسانة عقلانية ومنطقية، لكنها أصبحت مشوهة. لكن في الوقت الحالي، لا يمكننا التركيز على هذا. نحن بحاجة إلى الذهاب إلى آبي. إنها تحتاج إلينا».

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

مكتبة ياسمين

معكم نكبر ونستمر بكل جديد

اضغط هنا .. اتبع اللينك

ثلاثة وأربعون

آبي

الآن

كان مركز الشرطة يشبه مكتب طبيبي، حتى إنه امتلأ بالمجلات القديمة ذاتها. العلامة الوحيدة التي وشت بأنه مركز شرطة هو موظف الاستقبال خلف الحاجز الزجاجي المقاوم للرصاص. خوت الغرفة تقريبًا من أي شخص باستثناء امرأة في الزاوية تنقر بشكل محموم على هاتفها. بينما أمسك أبي بذراعي ضغط موظف الاستقبال على الزر ليطلب من الضابط إعادتنا إلى أمي. أبقوني في المستشفى طوال الليل للمراقبة، وتوسلت إلى أبي أن يأخذني إلى مركز الشرطة قبل أن يعيدني إلى المنزل. لم تعجبه الفكرة، لكن ميريدث شجعته على اصطحابي، وقد رضخ أخيرًا. انسحبت ميريدث من اللقاء، متعللة بأنها مرهقة وتحتاج إلى الاستلقاء، لكنها لم ترغب في رؤية والدتي أكثر مما رغب هو.

فُتحت الأبواب، ودخل أحد الضباط، متفحصًا إيانا بنظراته فورًا، توقعت أن يرتدي زيًّا رسميًّا، لكنه ارتدى قميصًا ذا ياقة مدسوسًا داخل حزام بنطاله الرسمي.

سأل: «سكوت بينيت؟».

إجراء شكلي واضح لأنه لم يكن هناك رجل آخر في الغرفة. تقدم أبي إلى الأمام، وتبعته.

أشار الضابط: «من هنا».

بينما لم نتحدث أنا وأبي تبعناه عبر الممر. اصطفت سلسلة من الأبواب المعدنية المتطابقة على كل جانب. نبض رأسي بصداع لم يفارقني منذ أن ألقوا بي في الشاحنة. لم يعجبني الشعور الذي خلَّفته المسكنات. لذلك لم أتناول أيًّا منها هذا الصباح، لكنني بدأت أشعر بالندم. استمر أبي في الالتفاف للتأكد من أنني بخير. لم يرغب في أن أغيب عن بصره لفترة طويلة، لكنني لم أعارضه. كل ما أردت فعله هو الاستلقاء في بطانية على الأريكة في المنزل ومشاهدة الأفلام بمجرد الانتهاء من هذا الأمر.

توقف الضابط عند أحد الأبواب وحرك بطاقة التعريف على القفل لفتح الباب. أمسك بالباب ليسمح لنا بالدخول وأسرعنا إلى الداخل. كانت الغرفة مربعة بزوايا مثالية تقريبًا. وُضعت طاولة في وسطها وكرسيان على كلا الجانبين. في الزاوية استقر مبرد مياه قديم الطراز، من النوع الذي استخدمناه في المدرسة الابتدائية مع أكواب مخروطية الشكل. جلسنا أنا وأبي بجانب بعضنا بعضًا على الكراسي. انزلق الباب لينغلق خلف الضابط. سأل أبي من فوره: «كيف حالك؟».

- أنا بخير.

كذبتُ. كيف يشعر الآخرون بعد أن تحاول أمهم اختطافهم؟ ستُعرض قضيتها على العدالة غدًا، وسيوجهون لها تهمة الاختطاف وعرقلة العدالة. كلتاهما جريمتان يعاقب عليهما القانون. عرضوا عليها صفقة مقابل الإقرار بذنبها وفي مقابل أي معلومات تزودهم بها عن راي، لكنها رفضت. لا مفاجأة هناك.

كرر أبي: «كان يجب أن تستريحي في المنزل».

- أبي، أنا بخير.

تصرف وكأنني مصابة بمرض عضال.

- هل أنت بخير؟

لم يرَ أمي منذ أن حدث ما حدث، وأقسم إن المرة الوحيدة التي أراد أن يراها مرة أخرى فيها كانت في المحكمة. ولكن طلبتُ زيارتها بعدها ولم يعد لديه خيار، لأنه من المستحيل أن يسمح لي بالذهاب وحدي.

- أريد فقط الانتهاء من هذا بأسرع وقت ممكن.

ومض الضوء الأحمر من الكاميرا فوق رأسه. ربما الغرفة مزودة بأجهزة تسجل الصوت أيضًا. لكن هذا اللقاء لم يكن بشأن الحصول على معلومات.

دخلت أمي إلى الغرفة ويداها أمامها مكبلتان بالأصفاد. تجر ساقَي بذلتها ذات اللون الأزرق الفاتح بسبب طولها. شعرها متشابك على شكل كعكة كبيرة خلف رأسها، كما لو أنها لم تمشطه منذ أسابيع، على الرغم من أنها لم تأتِ إلى هنا إلا في الليلة السابقة. اندفعتْ للأمام كما لو أنها ستعانقني.

- ممنوع اللمس.

دفعها الضابط للخلف، ثم دفعها إلى الجانب الآخر من الطاولة آمرًا: «اجلسي».

جلست أمي تمتثل لأوامره، ومدت يديها أمامها. فك الضابط أصفاد أمي. ودلكت معصميها كما لو أنها تحاول إزالة الضغط عنهما، ثم ضمتهما إلى حضنها.

- أوه آبي، الحمد لله أنك هنا. هل أنت بخير؟

انضمت تجاعيد جديدة إلى تلك الأقدم على وجهها، وأحاطت الهالات السوداء بعينيها. فهل كان قلقها حقيقيًّا؟ هل اهتمت من الأساس؟

قلت وأنا أحرك فمي بصعوبة: «أنا بخير».

كان الأمر مؤلمًا، لكنني لن أبكي. سأفعل ما جئت إلى هنا للقيام به. كنت بحاجة إلى أن تنظر إلى عيني وتخبرني ما فعلته، ماذا كان سيحدث لو لم يقفز دين ورجاله لإيقافهم.

- أخذت الشرطة شايلو. انتزعوها مني كالوحوش، هل تصدقين هذا؟ ما زالت رضيعة!

هزت ساقيها في أثناء حديثها: «كيف ستأكل يا آبي؟ ليس لديها أسنان. لم تأكل أي طعام قط. ماذا لو أعطوها هذا السم؟».

كلماتها محملة بالهستيريا.

- هلا ساعدتِني؟ أرجوكِ؟ يجب أن يكون هناك قانون ضد هذا. لا يمكن فصل الأمهات عن أطفالهن. أرجوك ساعديني.

- أنا لا أعرف شيئًا عن القانون والأطفال.

كيف قبلَت الحصول على طفلة من هذا الوحش؟ وماذا يجعلها هذا؟ على الأقل ستبقى شايلو مع عائلة تحميها منهم. قال دين إن هناك قائمة بطول ميل من الراغبين في تبني أطفال.

تسمر أبي بجانبي، وهو يحدق إليها والغضب يشع منه. لم أشعر قط أنها موجودة دائمًا بالنسبة لي، وبدأت أجمع أجزاء من الذكريات عنها ونحن نمضي قدمًا، لأنني رفضت أن أبقى عالقة بلا ذكريات هذه المرة. احتفظتُ بأجزاء صغيرة منها، المنشفة التي استخدمتْها لتجفيف شعرها، أجزاء من القميص الممزق الذي اعتادت ارتداءه للنوم كل ليلة. فرشاة الأسنان التي استخدمتها في المستشفى. هل صُبغ كل هذا بأكاذيبها الآن؟ أراد جزء مني جمعهم جميعًا معًا وحرقهم في كومة كبيرة في الفناء الأمامي.

- هل يمكنك أن تتخيلي؟

انهارت باكية بالطريقة ذاتها التي فعلتها خلال أيامها القلائل الأولى معنا. محطمة، في حالة يرثى لها. حتى تشعر بالأسف عليها وتنتابك الرغبة في مساعدتها. وحتى هذه اللحظة، أثَّرت دموعها بي.

- شايلو المسكينة.

ألم تفكر قط في احتمال أن يلقوا القبض عليها؟ أم أنها كانت متأكدة من خطتهم؟

- قلتِ سابقًا إنك ترغبين في بناء علاقة صادقة معي، هل عنيتِ هذا؟

أومأت من خلال دموعها: «عنيت كل شيء يا آبي، كل شيء».

تساقط المخاط على شفتها العليا دون رادع.

- إلى أين كنا ذاهبين في تلك الليلة؟

سألت وكأنني لم أعرف بالفعل. أمضيت الساعات الأربع والعشرين الماضية بين محققين وأفراد شرطة في أثناء استجوابي، حتى صرت على دراية كاملة بخطتهم.

أراد راي أن تجلبني أمي إليه كاختبار ولاء غريب، لإظهار توبتها على المغادرة. رفضتُ الاستماع لتسجيلات مكتب التحقيقات الفيدرالي لمحادثاتها الهاتفية معه. أردت منها أن تخبرني إياها بنفسها، لا يهمني عدد المرات التي شرح فيها أبي. لن يبدو أيٌّ منها حقيقيًّا إلا إذا جاء منها.

دارت عيناها في أرجاء الغرفة وخفضت صوتها: «يمكننا التحدث عن ذلك لاحقًا. كل ذلك جزء من خطة الرب. خططه ليست سهلة دائمًا. في بعض الأحيان يكون الأمر صعبًا».

اختنقتُ بالرغبة في البكاء. أي جزء هو الصعب؟ أردت أن أسأل. تسليمي لقائدك المجنون؟ هل كان ذلك صعبًا؟ أم أنك فعلتِه بسهولة ويسر؟ هل تتحدث عن مدى صعوبة الابتعاد عنهم طوال هذا الوقت؟

- فكرتُ في التراجع يا آبي. فعلتُ.

إلا أنها لم تتراجع. كما لو أن التفكير في الأمر يعني أي شيء. ليس حتى وسيلة رخيصة للمواساة.

- من فضلك أمي، فقط أخبريني إلى أين كنا ذاهبين؟

- لا يهم.

استقامت في مقعدها، ولفَّت يديها في حضنها. لم يكن لديها أي فهم للواقع إذا اعتقدت أن الأمر لا يهم. هذا أهم شيء. سألت محاولة منع نفسي من البكاء: «لماذا عدتِ إليهم؟».

وقفتْ، ثم جلستْ بسرعة مرة أخرى.

- لا شيء من هذا مهم. أين آبنر؟

ثم صدمني أنها لم تكن عائدة إليهم، بل إليه هو. هل تمحور الأمر بالكامل حوله؟ منظمة الحب الدولي مجرد ذريعة لتبرر تركنا خلفها؟ انحنى أبي واضعًا ذراعيه حولي لدعمي. ربما كان محقًّا. ربما هذه ليست فكرة جيدة.

- هل رأيتِه؟

رأيت عينيه الثاقبتين في كل مرة حاولت فيها النوم. لم أنم منذ الحادث. أخبرني دين أن الأمر طبيعي وسيمر بمرور الوقت. قال إنه سيطلب المساعدة إذا لم يحدث ذلك. هززت رأسي.

وضعت أمي يديها على صدرها وأغمضت عينيها. أخذت نفسًا عميقًا، يليه آخر. غادر بعض التوتر وجهها: «أوه الشكر للرب، إنه هنا. أستطيع أن أشعر به. ما دمنا معًا، يمكننا تجاوز أي شيء».

أخذتْ نفسًا عميقًا آخر، كما لو أنها ذاقت عبيرًا في الهواء. تركت رحيقه يملؤها قبل أن تزفر الهواء من جديد. لكنني بادرت بقولي: «في الواقع أنتِ مخطئة، ليس هنا».

فتحت عينيها فجأة: «أين هو؟».

انحنت عبر الطاولة: «اعتقدت أنك لا تعرفين مكانه».

- لا أعرف أين هو، لكني أعرف من معه.

قلتها رغم أنني لم أخطط لقول أي شيء عن راي -أو أيًّا كان اسمه- ولكن صبَّ اهتمامها كافة عليه هو ما آلمني. قفزتْ عبر الطاولة وكل عضلة في رقبتها مشدودة: «أين هو؟».

سألتْ مرة أخرى، وهي تتفحص الغرفة كما لو أنني أخفيه.

- والدته دفعت كفالته البارحة.

التوى وجه والدتي بتعبير الصدمة ذاته الذي حمله وجه والده حين أطلعوه على الخبر البارحة. حركت رأسها يمينًا ويسارًا: «ماذا؟ لا، هذا غير ممكن. ماتت والدته عندما كان في السادسة عشرة من عمره».

- والدته على قيد الحياة وبصحة جيدة. ولطالما كانت. وهي سيدة غنية غَناء فاحشًا أيضًا. وكذلك راي. وتبين أن هذا هو المكان الذي حصل

منه على كل أمواله، ولا يزال يفعل. يجلس فعليًّا على ملايين. لم يعمل قط ليوم واحد في حياته.

هزت رأسها بقوة أكبر وأسرع: «لا لا لا. أنت تكذبين. هذا ليس صحيحًا. لماذا تكذبين؟ لا أفهم. لا بد أن هذا اختبار. أي نوع من الاختبارات هذا؟».

حركت أصابعها لأعلى ولأسفل ساعديها: «سأجد الحل. سأفعل. سأتجاوز هذا الاختبار. أنا أنجح في تجاوزهم جميعًا».

- اسمه ليس حتى راي.

ألقيت بالقنبلة الأخيرة.

- بل هارولد ألين فيتزجيرالد.

قفزت من كرسيها وقفزت عبر الطاولة أمام وجهي وهي تصرخ: «أكاذيب!».

قلب أبي الطاولة بها لتندفع عائدة إلى الخلف. وفي الوقت ذاته اندفع الضابط المناوب عند الباب إلى الغرفة وأمسك بها، وقاومته أمي.

- انتهت هذه الزيارة.

قالها الضابط وهو يلوي ذراعَي أمي خلف ظهرها ويقيدها مرة أخرى.

- كفي عن الكذب! لِم تكذبين؟ كيف تجرئين على ملئي بمثل هذه الأكاذيب؟

هزت رأسها مثل كلب مسعور: «أنت شريرة».

وقف أبي: «إياك أن تقتربي منها مرة أخرى. لو أنك حتى...».

أمسكتُ بذراعه مقاطعة: «لا بأس يا أبي. لقد انتهيت».

وقفتُ جواره ودفعتُ الكرسي. رفعتُ يدي وحللتُ القلادة التي وضعتُها حول رقبتي، تلك القلادة التي تحمل صورتها، التي ارتديتها منذ أن كنت في الخامسة من عمري.

وضعتُها على الطاولة أمامها، وأنا أقول أخيرًا: «وداعًا أمي».

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook